في علم اللغة العام

تأليف
الدكتور عبد الصبور شاهين

مؤسسة الرسالة

الطبعة السادسة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه دراسة (فى علم اللغة العام) تتعرض لأهم القضايا التى يثيرها هذا العلم بالنسبة إلى جميع اللغات بعامة . وإلى اللغة العربية بخاصة ، وقد حاولت جاهداً أن اقتصر على الأفكار الأساسية ، دون استطراد يتجه إلى التخصص . فالكل مسألة من مسائل هذه الدراسة فرع يعالجها ، ويعمق بحوثها ، وهو ماسوف ينال عناية خاصة فيما يلى من دراسات (علم اللغة) فى الفرق المختلفة .

على أن بعض فروع (علم اللغة) لا يظفر بالدرس فى نطاقه المنهجى ، بالنسبة إلى اللغة العربية ، نظراً إلى استقلال هذه الفروع ، ونهوض هيئات من الدارسين بالتفرغ لدرسها وتدريسها ، وأعنى بذلك علمى (النحو والصرف) ، وإذا كان لعلم اللغة أفكار معينة تتناول قضاياهما ، فإن ذلك بعيد عن المجال التطبيقى التعليمى لهما ، وهى على أية حال أفكار تهم المتخصصين فى الدراسات اللغوية الحديثة ، سواء أكانوا من النحاة أم من اللغويين ، فالهدف واحد ، وإن اختلفت الطرق .

ولقد اكتسبت قضايا علم اللغة الحديث رواجا فى الجامعات العربية ، وأقبل كثير من الدارسين على متابعتها ، والتخصص فيها ، من حيث كانت مخرجا من الحائط المسدود الذى وقفت عنده دراسات النحو والصرف واللغة منذ بعيد .

وأخذت الاتجاهات إلى التجديد فى ميدان هذا العلم تلح على كل مهتم بشئون التعليم والتربية ، تقريبا للحقائق اللغوية ، وتصحيحا لما شاع من

أفـكار تقليدية قد تـكون ملتبسة بالخطأ ، أو معقدة تحتاج إلى تبسيط على أساس منهجى يناسب العصر ، ويأخذ كل معطياته فى الاعتبار .

ولا ريب أن الطريق شاقة وطويلة إلى توحيد الدراسات اللغوية بمفهومها المنهجى ، ولـكن بُعد الشقة لا يقف حائلا دون مواصلة الجهود لإرساء الاتجاه نحو المنهج . وحشد كل الطاقات من أجل تقدم لغتنا الخالدة ، لغة القرآن .

عبد الصبور شاهين

تحديد المصطلحات

يشيع في مجال الدراسات اللغوية مصطلحان ، مستخدمان لتسمية هذا العلم ، هما (علم اللغة) ، و (فقه اللغة) .

وقد غلبت التسمية الأولى حديثا على فروع هذه الدراسات فى مقابل المصطلح الأجنبى Linguistique الذى تنضوى تحته عدة مصطلحات دالة على المواد التى يدرسها المتخصصون فيها . كعلم الأصوات العام phönétique ،وعلم الأصوات التشكيلى phonolog ie وعلم الدلالة Sémantique ... الخ ..

وقد كانت التسمية الثانية (فقه اللغة) أكثر شيوعا فى مجال الدراسات العربية القديمة ، ووضع لها الأوربيون مقابلا هو philologie ،وأصل الكلمة مركب من philos ومن معانيها الحب أو الصداقة ، ومن Logos بمعنى الكلام، والمعنى الكلى هو : حب الكلام أو اللغة الذى يدفع إلى فقهها أو علمها .

ولاشك أن كلا المصطلحين قديم الاستعمال فى الثقافة العربية ، وهو مسجل فى عناوين الكتب التى ألفها العلماء من السلف، فقد ألف أبو الحسين أحمد بن فارس كتابه : (الصاحبى فى فقه اللغة ، وسنن العرب فى كلامها) ، كما ألف أبو منصور الثعالبى كتابه : (فقه اللغة) ، وهما متعاصران تقريبا ، إذ أن ابن فارس توفى عام (٣٨٥ ه) ، وتوفى الثعالبى بعده عام (٤٢٩ ه) فمن المحتمل أنه أدرك حياة ابن فارس ، وكتاباهما يتناولان فى مجموعهما الكثير من قضايا اللغة العربية وخصائصها ، وإن غلب على ثانيهما الطابع المعجمى ، إذ هو معدود من معاجم المعانى ، ولكن مضمونهما لايكاد يختلف عن مضمون كتاب جلال الدين السيوطى (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها)

وإن كان أكثر منهما استيعابا، على ما اشتهر به السيوطى من جمع كتب السابقين، والأخذ عنها، وله فى هذا الباب فضل الإبقاء على كتب فقدت أصولها، وبقيت روايتها عنده.

أى: أن القدماء من علماء العربية لم يكونوا يفرقون فى الاستعمال بين مفهوم العبارتين: (علم اللغة، وفقه اللغة)[١].

بيد أن المحدثين من علماء اللغة العرب يفضلون استعمال التعبير (علم اللغة) بناء على ماتلقوه من ثقافة غربية تنزع إلى تحديد المصطلحات، وبقى مصطلح (فقه اللغة) ذا دلالة على مفهوم محدود ضيق.

ذلك أن موقف الأوربيين من ترجمة مصطلح (فقه اللغة) بكلمة phiollogie – يدل على أنهم قد فهموه فهماخاصا، فالكلمة إغريقية الأصل، وهى تعنى على الترتيب:

١ — معرفة الأدب الجميل ودراسة نصوصه.

٢ — دراسة لغة معينة بالتحليل النقدى لنصوصها، وقد عرف الرومان والجرمان فى القرن التاسع عشر شهادات فى النحو والفيلولوجيا.

٣ — الدراسة الشكلية للنصوص فى المخطوطات المختلفة التى انتهت إلينا.

والمفهوم الثانى قريب من مراد المصطلح فى الثقافة العربية.

---

(١) لاشك أن الكتب التى تناولت قضايا اللغة بالمفهوم الشامل أكثر من هذا، وفى مقدمتها كتب سيبويه، وأبى على الفارسى، وابن جنى، ومؤلف المعاجم، والمؤلفين فى المعرب والأصيل من كلام العرب، كالجو اليقى والشهاب الخفاجى وغيرهما، وسيأتى حديث عن بعض ذلك.

أما المعانى التى حددوها لمصطلح **Linguistique** فهى على الترتيب التاريخى :

١ — الدراسة المقارنة والتاريخية للغات ، كالنحو المقارن، والفيلولوجيا المقارنة .

٢ — العلم الحديث الذى موضوعه اللغة فى ذاتها ، ولذاتها (وهو مفهوم فرديناند دوسوسور) ، وينضوى تحته كل المصطلحات المعروفة ، وهى : علم اللهجات Dialectologie ، وعلم الاشتقاق التاريخى **Etymologie** ، والنحو **Grammaire** ، والمعاجم **Lexicologie** ، والصرف **Morphologie** ، والأعلام **Onomastique** ، والفيلولوجيا **Philologis** ، وعلم الأصوات العام **Phonétique**، وعلم الأصوات التشكيلى **Phonologie**، وعلم الدلالة **Sémntique** وعلم الأسلوب **Stylistique** ، وأسماء البلدان **Toponymie** (1).

وهناك علم اللغة التاريخى **Limguistique historique** ، وعلم اللغة الوصفى **descriptive** ، وعلم اللغة العام **Générale** (الذى يعنى دراسة الشروط العامة للحركة والتطور فى اللغات) وعلم اللغة الوظيفى **Foncti - onnelle** ، والبنيوى **Structurale** ، والتطبيقى **Apptiquée** ، (الذى يشمل الترجمة الفورية ، والتربية) ، والمقارن **Comparative** .

وفى هذا يقول اللغوى ماريو باى : « إن موضوع فقه اللغة **Philology** لايختص بدراسة اللغات فقط ، ولكن يجمع إلى ذلك دراسة تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة ، أما علم اللغة

---

(1) **Dictionnaire de la langne Française,: par paul Robert, 1972. Linguistique, et philelogie.**

Linguistic – فيركز على اللغة نفسها، ولكن مع إشارات عابرة –أحيانا– إلى قيم ثقافية وتاريخية. ويولى علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة ، وإن كان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئا من الاهتمام[1] » .

وإذن ، فإن هناك فرقا كبيراً بين مفهوم المصطلحين فى الثقافة القديمة والحديثة ، وهو فرق ينبغى أن يراعى عند استعمال أيهما ، نظراً إلى أن أغلب ما بأيدينا الآن من الكتب التى تحمل عنوان (فقه اللغة ، أو علم اللغة) إنما يجرى على الاستعمال الحديث ، وهو اعتبار العنوان الأول خاصا بدراسة العربية وخصائصها ، على حين يستخدم الثانى استخداما شاملا فى كل ما يتصل بالعربية وغيرها من اللغات ، من فصيلتها أو غيرها .

هذا الموقف خير – فيما نرى – من النزوع إلى تبسيط الأمور ، وتعميم مصطلح (فقه اللغة) بحيث يصدق على كل فروع الدراسات اللغوية ، استنادا إلى أن (كل علم لشىء فهو فقه) ، على ماذهب إليه الأستاذ الدكتور صبحى الصالح[2] ، فليس من الممكن التغاضى عن إشعاع الكلمة حين تستقر فى اصطلاح أهل الفن ، والعلم فى عصرنا تراث إنسانى ، بعد أن حطم الحواجز القومية والإقليمية، فصار مايتردد فى نصف الكرة الغربى موجوداً فى نصفها الشرقى ، عبر المسافات ، وقديما قيل : (لامُشَاحَّةَ فى الاصطلاح) . أى : أن من واجب الباحث أن يحدد مدلول مايستخدم من المصطلحات عند بداية بحثه ، وليس لأحد أن ينازعه هذا الحق العلمى .

وعلى أى حال فإن موضوع هذه الدراسة هو (اللغة) كما نعرفها ، سواء أ كانت نطقا فى صورة (كلام) ، أم كتابة فى هيئة (نصوص) ، وقد تكون

---

(١) أسس علم اللغة – تأليف ماريوباى – ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر – ص ٣٥ .

(٢) دراسات فى فقه اللغة – ص ٥ : وأنظر أيضا: الوجيز فى فقه اللغة – تأليف الأستاذ محمد الأنطاكى – نشر مكتبة الشهداء بسوريا – ص ٧ ومابعدها .

هذه النصوص حديثة تقترب أو تتطابق فى الذهن صورتها النطقية مع صورتها المكتوبة ، بحكم ممارستنا لكلا المستويين ، وقد تكون النصوص قديمة بحيث لا نملك حولها إلا أحكاما منقولة فى التراث ،وآثارا منقوشة أومسجلة فى الوثائق ،ومع ذلك ينضوى هذا كله تحت مفهوم (اللغة) التى هى موضوع هذا العلم ، والتى نرجو أن نلقى عليها فى دراستنا هذه بعض الأضواء .

على أن من الضرورى ابتداء أن ندرك وجود مسافة فاصلة بين الأصوات المنطوقة وبين ما يمثلها من رموز مكتوبة ، وهى مسافة تعترف بها كل اللغات الإنسانية ، ولاسيما اللغات ذات التاريخ الحضارى ، ولسوف يتضح ذلك خلال ما نقدمه من دراسة حول اللغة المنطوقة وعلاقتها باللغة المكتوبة إن شاء الله .

نظرة على تاريخ علم اللغة

أولا : عند العرب قديماً وحديثاً :

وإذا كان المراد بعلم اللغة ما يتناول الدراسات اللغوية فى أى مستوى ، فإن هذا هو ماهدفت إليه جهود السلف من علماء العربية ، فقد اعتنوا عناية كبيرة بكل ما يتصل باللغة من قريب أو من بعيد ، وذلك منذ بدأ اهتمامهم يتجه إلى المحافظة على القرآن الكريم ،دستور العربية الخالد ، فإذا به منطلق العقل العربى إلى دراسة نصوص اللغة ، ومتنها ، وقواعدها النحوية ، والصرفية ، والصوتية ، والبلاغية . وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدأون فى اللمسات الأولى فى العلوم العربية ، استهدافاً لخدمة النص الكريم .

ولعل أقدم ما وصلنا من ملامح هذا النشاط وأخباره ماروى عن عبدالله بن عباس من أنه كان يتصدى فى المسجد لتفسير القرآن ، وكان الناس يلقون إليه بأسئلتهم ، وهو يجيب عنها إجابة العالم المتثبت والراوية المحيط . ويذكر التاريخ من أخبار ذلك العهد ما أطلق عليه « سؤالات نافع ابن الأزرق » التى كانت تدور حول تفسير بعض الألفاظ من كتاب الله ، وقد رواها السيوطى فى (الإتقان)[(١)] . ثم كان نهوض أبى الأسود الدؤلى إلى وضع قواعد النحو العربى ، بتوجيه من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أو غيره ، حين رأى تفشى اللحن على ألسنة الناس[(٢)] .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ص ١٢٠ وما بعدها ـ الطبعة الثانية ١٩٣٥ .

(٢) أنظر : إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ للوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ـ حـ ١ ص ١٠ وما بعدها ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

أى أن بداية الدرس اللغوى كانت لغوية نحوية . وقد تولى العلماء من التابعين وتلاميذهم تعميق محاولة أبى الأسود والزيادة فى ذلك العهد ، ولمعت أسماء كبيرة . فى مقدمتها عبد الرحمن هرمز ، ويونس بن حبيب ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى ، كما يعدبين لغويى ذلك العهد قراء القرآن ، ورواة قراءاته .

والواقع أن هذا الجيل ، على الرغم من أنه كان حافلا بالكثير من الموالى غير العرب ، قد حمل أمانة القرآن والعربية حملا عربياً خالصاً ، إذ أن العروبة كانت تياراً استوعب كل الموجات الداخلة فى المجتمع .

ومن عباقرة هذه المرحلة الأولى فى الدرس اللغوى الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) وتلميذه عمر بن قنبر ، الملقب بسيبويه (ت ١٨٠ هـ) وكلاهما يعد نموذجاً للثقافة العربية الجامعة ، فقد كانت شخصية العالم آنذاك لا تكتمل إلا بأن يأخذ نصيبا من كل العلوم ، فيكون لغويا ، وراوية ، ونحويا ، وأديبا ، وقارئا ، وكذلك كان الخليل لغويا ، نحويا ، صوتيا ، رياضيا ، موسيقيا ، شاعرا ، كما كان سيبويه لغويا نحويا صوتيا .

وتتمثل فى الدرس اللغوى فى أقدم وثائق ذلك العصر ، كتاب سيبويه ، تلك الثقافة الجامعة ، التى تمزج الرواية بنقد النص ، بالقاعدة النحوية ، بالعلاج الاشتقاقى ، بالتحليل الصوتى .

وتأتى بعد ذلك المرحلة الثانية للدرس اللغوى ، وتبدأ مع منتصف القرن الرابع تقريبا ، وفيها يخرج ابن جنى (توفى ٣٩٢ هـ) على الناس بكتابه

(الخصائص)[١] ، وهو كتاب فى فقه العربية ، وقضاياها العامة ، كما يؤلف كتابا فى علم الأصوات يسميه (سر صناعة الإعراب)[٢] . إلى جانب كتب أخرى كثيرة .

ونكاد نجزم بأن الدرس اللغوى قد بلغ القمة بهذين العملين الكبيرين ، بالإضافة إلى أعمال أخرى لغير ابن جنى ـ من العلماء .

وتأتى المرحلة الثالثة ، أو الباب الثالث من الدرس اللغوى ، وأعنى به النشاط المعجمى ، الذى وضع الخليل بن أحمد على أرجح الأقوال نواته الأولى بتأليف معجم (العين) على أساس صوتى ، فإذا بالقرن الرابع وماتلاه يشهد نهضة فى وضع المعاجم على اختلاف مناهجها ، ويتألق جهد العلماء فى جمع اللغة ، وتصنيف مادتها ، وتعريف ألفاظها ، حتى كان معجم (لسان العرب) لابن منظور المصرى قمة المعاجم ، وقد توفى مؤلفه عام (٧١١هـ) . ويعد ماجاء بعده ، مثل القاموس المحيط ، من قبيل متن اللغة ، فقد ازدهر بعد ذلك فن المتون والحواشى ، والتعليقات والتقريرات .

ولا شك أن هذه الإلمامة السريعة بمراحل تاريخ الدراسة اللغوية ، لا تستطيع أن تتعرض لكل الأعمال اللغوية ، ولا لكل مؤلفيها ، ولا لدراسة التيارات المؤثرة فى ثقافة الأجيال ، كتيار الثقافة اليونانية ، أو الفارسية ، فلذلك كله كتب تخصصت فى علاجه .

وبوسعنا الآن أن نقفز عبر القرون إلى العصر الحديث ، الذى شهد نهضة ثقافية هائلة ، كان من أبرز عواملها انفتاح عقلية الباحثين على مناهج

---

(١) حققه الشيخ محمد على النجار ، ونشرته دار الكتب فى ثلاثة أجزاء : ابتداء من عام ١٩٥٢

(٢) حقيق الشيخ محمد الزفزاف ، والأساتذة ابراهيم مصطفى ، ومصطفى السقا ، وعبد الله أمين ، ونشر الجزء الأول منه ، ومازال بقيته رهن النشر بعد وفاة المحقق الأستاذ السقا .

البحث التى اهتدى إليها العلماء فى أوربا . وطبقوها ، كما كانت أعمال المستشرقين الأوروبيين من عوامل التأثير فى توجيه أجيال العلماء إلى معالجة قضايا اللغة ، وكنوز التراث بعقلية جديدة .

ومن المؤكد أن الحركة الاستشراقية كانت تختلط أحيانا دوافعها النبيلة بأهداف الاستعمار ، الذى يسخرها لتحقيق مخططاته ، ولكن كثيراً من آثار المستشرقين يعتبر الآن من أثمن ماقدمت أوربا لهذا الشرق الإسلامى ، الذى لقنها الدروس الأولى فى الحضارة والتقدم .

ويعتبر الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس بحق رائد الدراسات اللغوية الحديثة فى مجال اللغة العربية ، وهو مثال فريد للقدرة على المزج بين احترام المنهج الحديث ، وتقديس التراث ، فى كل الأعمال العلمية التى قدمها ، وهى تتناول أكثر مجالات علم اللغة الحديث ، ثم توالى من بعده تلاميذه وغيرهم فى كل معاهد العلم . وهم الآن كثيرون والحمد لله[1] .

ثانيا : فى أوربا :

وهنا ينبغى أن نلقى نظرة على تاريخ علم اللغة الحديث ، الذى يعتبر أوربى النشأة ، وربما كان من المناسب أن نلجأ إلى خير من يتحدث عن هذا الجانب ، العالم اللغوى فرديناند دوسوسور ، أشهر اللغويين المحدثين على الإطلاق (١٨٥٧ — ١٩١٣م) ، وهو يرى أن هذا العلم الذى يدرس الأحداث

---

(١) ممن ينبغى أن نشير إليهم فى هذا الصدد الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والأساتذة الدكاترة تمام حسان ، وعبد الرحمن أيوب ، وكمال بشر من أساتذة كلية دار العلوم وحسن عون من جامعة الاسكندرية ، كما يعنى بالدراسات اللغوية في العالم العربى أساتذة كبار ، فى مقدمتهم الدكتور محمد المبارك ، فى سوريا ، والدكتور ابراهيم السامرائى ، فى العراق ، والدكتور صبحى الصالح ، فى لبنان ، وإلى جانبهم جيل كبير من الشباب يعمل الآن فى الجامعات العربية المختلفة .

اللغوية مر فى الغرب بثلاث مراحل متوالية ، قبل أن يهتدى أساسا إلى موضوعه الدقيق :

المرحلة الأولى : أطلق عليه فيها (علم النحو) ، وقد بدأ هذه الدراسة

الإغريق وحملها من بعدهم بصفة رئيسية الفرنسيون . وقد كان قائما على أساس المنطق ، دون أية نظرة علمية تهتم باللغة فى ذاتها . فقد كان يهدف فقط إلى تنظيم قواعد تميز بين الصيغ الصحيحة وغير الصحيحة ، أى : أنه نظام يصف الواقع ، عار عن الملاحظة الخالصة ، ضيق الأفق إلى حد بعيد .

ثم ظهر بعد ذلك علم (الفيلولوجيا — أو فقه اللغة) ، وقد كان معروفا من قبل فى الاسكندرية . حيث كانت هنالك مدرسة (فيلولوجية) ، بيد أن هذا المصطلح ينسب بخاصة إلى الحركة العلمية التى أنشأها فردريك أوجست وولف ، ابتداء من عام ١٧٧٧م ، واستمر نموها تحت رعايته .

لم تكن اللغة هى الموضوع الوحيد للفيلولوجيا . فقد كانت مهمة هذا العلم الأولى أن يوثق النصوص ، وينشرها ، ويعلق عليها . وقد قادت هذه الدراسة الأولى إلى الاهتمام أيضا بالتاريخ الأدبى ، وبالأخلاق ، وبالأنظمة . . . الخ . فكان علم الفيلولوجيا يتناول كل هذه الموضوعات بمنهجه الخاص ، المتمثل فى النقد ، فإذا ما صادف مسائل لغوية تناولها فى إطار مقارنة النصوص من عصور مختلفة ، وتحديد اللغة الخاصة بكل مؤلف ، وإحصاء المخطوطات التى يعثر عليها ، محررة بلغة قديمة أو غامضة . ولا ريب أن هذه البحوث قد مهدت لعلم اللغة التاريخى .

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت عندما اكتشف إمكان مقارنة اللغات فيما بينها ، وكان هذا هو أساس علم الفيلولوجيا المقارنة ، أو (النحو المقارن

Grammaire comparée) ، وقد ظهر كتاب (نظام تصريف السنسكريتية Système de la conjugaison du Sanscrite عام ١٨١٦م ، ودرس فيه مؤلفه فرانز بوب Franz Bopp — العلاقات التى تربط السنسكريتية بالجرمانية ، والإغريقية ، واللاتينية . . . الخ .

لم يكن بوب هو أول من لاحظ هذه الوشائج ؛ ولا أول من أكد أن هذه اللغات جميعا تنتمى إلى أسرة واحدة ؛ فقد كان هذا معروفا من قبله ، ولاسيما على يد المستشرق الانجليزى و . جونس W. Jones (ت ١٧٩٤م) . على أن عدة شواهد مفردة لا تدل على أن الناس قد أدركوا عام ١٨١٦ بصفة عامة معنى هذه الحقيقة ولا أهميتها ، وإذن ، فلم يكن لبوب وحده الفضل فى اكتشاف أن السنسكريتية قريبة لبعض لغات أوربا وآسيا ، ولكنه أدرك أن العلاقات بين اللغات المتقاربة يمكن أن تكون مادة علم قائم بذاته.

فكل ما استطاع بوب تحقيقه هو إيضاح لغة بأخرى ، وتفسير صيغ لغة بصيغ أخرى ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد استطاع إنشاء هذا العلم ، وعلى الأقل بهذه السرعة ، لو لم تكن اللغة السنسكريتية قد اكتشفت ، فقد كانت هذه اللغة شاهداً ثالثاً إلى جوار الإغريقية ، واللاتينية ، فقدمت له أساس دراسة أرحب وأصلب .

وقد كان من أقطاب مدرسة بوب وأواخرهم ثلاثة كبارهم : ماكس مولر Max Müller وج . كيرتيوس G. Curtius ، وأوجست شليشر Aug. Schlecher . ولكن هذه المدرسة التى كان لها فضل لاينازع فى فتح مجال دراسة خصب وجديد — لم تصل إلى تأسيس علم اللغة بالمعنى الصحيح ، فهى لم تعن باستنباط طبيعة موضوع دراستها ، وبدون هذا الاستنباط يعجز أى علم عن أن يرسم منهجه .

وما إن وافى عام ١٨٧٠ حتى طرح سؤال عن الشروط التى ينبغى أن تتوفر لحياة اللغات ؟ فقد أدرك العلماء أن العلاقات التى توجد بينها ليست سوى جوانب للظاهرة اللغوية ، التى تعتبر الدراسة المقارنة مجرد وسيلة ومنهج لإعادة تنظيم أحداثها .

أما علم اللغة بالمعنى الدقيق ، وهو الذى وضع الدراسات المقارنة فى مكانها الصحيح - فقد نشأ من دراسة اللغات الرومانية ، واللغات الجرمانية على يد عالم اللغات الرومانية دييز Dies فى كتابه (نحو اللغات الرومانية Grammaire des Langues Romanes) وقد نشر فى أعوام ١٨٣٦ — ١٨٣٨ والعالم الأمريكى وايتنى Whitney مؤلف كتاب حياة اللغة Vie du Langage عام ١٨٧٥ . وقد عقد لواء الريادة فى هذه الدراسات لمجموعة من العلماء الألمان من أمثال برجمان Brugmann ، واستوف Osthoff وبراون Braune وسيفرس Sievers وعالم السلافية لسيكيان Leskien .

فإلى هؤلاء جميعاً يرجع الفضل فى وضع نتائج المقارنة فى أفقها التاريخى، ومن ثم ربط الأحداث اللغوية فى نسقها الطبيعى ، وقد أدى علمهم إلى أننا لم نعد نرى من المحتمل أن تشتمل اللغة على نظام يتطور وينمو من تلقاء ذاته ، وإنما يعود التطور إلى الروح الجماعية اللغوية ، ثم إننا أصبحنا ندرك إلى أى مدى كانت الأفكار السابقة للفيلولوجيا والنحو المقارن مخطئة وناقصة[1] .

ومع ذلك فإن أعمال هذه المدرسة لم تتسع لمسائل العلم بأ كلها ، فمازالت أمور كثيرة غامضة ، إلى أن يجىء فردينانددوسوسور ، ليفتح آفاق البحث.

(١) سوسور ص ١٣ وما بعدها Cours de Linguistique générale

ويثير مشكلات العلم بصورة منهجية فى كل ما قدم من دراسات وبحوث ، وبخاصة فى كتابه الممتاز (محاضرات فى علم اللغة العام) الذى يعد مرجعا هاما لكثير من أفكار علم اللغة الحديث .

ولقد تناول دوردوسور تلميذه أنطوان مييه فى كتابه الكبير (علم اللغة التاريخى ، وعلم اللغة العام -Linguistique historique et Linguistique générale)-فقد تحدث عن أستاذه فى مقال طويل بعنوان (فردينا ند دوسوسور) وبين موقعه من ريادة هذا العلم ، وفضله على سابقيه ، وعلى لاحقيه أيضا ، من الأجيال التى تتلمذت عليه .

يقول فى إحدى فقرات هذا المقال : « ولو أننا اقتصرنا فى الحديث على اللغويين . فإن لدينا دوفو Duvau ، وج . مول Mole ، وم . جرامونت M· grammont ، ودوتان Dottan ، وبوابيه Boyer ، وكاتب هذه السطور (مييه Meillet) - فهؤلاء جميعا قد تأثروا بنشاطه ، فقد كان دوسوسور أستاذاً حقا . ولكى يصبح المرء أستاذا لا يكفى أن يقرأ أمام مستمعيه أحد الكتب قراءة دقيقة وسريعة ، بل يجب أن تكون له نظرية ومنهج ، وأن يقدم العلم مع نبرة شخصية . ولقد كان للدروس الخاصة التى يتلقاها الطالب منه قيمة عامة ، فقد كانت تدفع إلى العمل ، وتصوغ العقل ، وتثبت فى الذاكرة مرشداً ونموذجا .

كان يحبب الدارسين فى العلم ، ويبرز قيمته ، وكان فكره الشاعر يضفى على عرضه لحة بيانية رائعة لا يمكن أن تنسى . ولقد كنا نتخيل دائما خلف التفضيلات التى يذكرها عالما من الأفكار العامة ، ومن المشاعر أيضا .

لقد كان شخصه يحبب المرء فى العلم ، وكان المرء يدهش حين يرى هذه العين الزرقاء المليئة بالأسرار تلمح الواقع بمنتهى الدقة ، وكان صوته المتوافق الهادىء ينزع عن الأحداث النحوية جفافها وقسوتها »[1].

والواقع أن أعمال دوسوسور العلمية كانت تدور حول الدراسات المقارنة ، ومنها استطاع أن يقدم أفكاره عن علم اللغة العام ، أى : أنه بدأ تاريخيا ، وانتهى وصفيا ، فأضفى على علم اللغة الكثير من الموضوعية رغم أنه لم يعمر طويلا ، فقد مات فى سن الخامسة والخمسين .

ويرى ماريوباى أن كتاب دوسوسور عن علم اللغة العام ، هو أول كتاب رسم الأسس الدقيقة لعلم اللغة الوصفى باعتباره فرعاً من فروع اللغة. وقد نشر الكتاب بعد موت مؤلفه بأربع سنوات ، عام ١٩١٦[2] إلا أن ماريو يذهب إلى أن لعلم اللغة العام فروعا ثلاثة هى :

١ — علم اللغة التاريخى .

٢ — علم اللغة الوصفى .

٣ — علم اللغة الجغرافى .

ويكاد تأليفه لكتابه (أسس علم اللغة) يستهدف تأكيد هذا الفرع الأخير ، وإثبات أهميته ، ولعله رأى أن تناول الباحثين له لم يكن على مستوى الاهتمام الجدير به ، فركز الجزء الأكبر من عمله لهذا الغرض ،وربما كان من المفيد أن نلم برأيه فى منهج كل فرع من هذه الفروع الثلاثة، لندرك الفرق بينها على نحو تفصيلى ، فهو يقول عن علم اللغة الوصفى :

---

(١) أنظر المقال فى الكتاب المذكور حـ ٢ ص ١٧٤ - ١٨٣ - طبعة ١٩٥٣ .
(٢) أسس علم اللغة ص ٢٣٥ .

« حينما يستخدم الناس كلمة (علم اللغة) من غير إضافة كاشفة ، فإنهم يعنون غالبا : (علم اللغة الوصفى أو التركيبى). فهو أساس الدراسات اللغوية ، ويتمثل إسهامه الكبير فى النواحى الصوتية والفونيمية ، التى تعد أكثر فروع اللغة موضوعية ، وأقربها إلى المناهج العلمية ... ومايزال حقل الدراسات اللغوية الوصفية المثمرة بكراً حتى الآن ، وبخاصة فى مجال الدراسة الوصفية للغات ، كل على حدة ، وفى مجال تنقية الوسائل المستعملة فى البحث ، كالوسائل الآلية ، والميكانيكية ، من أجل تعليم اللغات دراستها ... ومن مجالاته أيضا وضع أطالس لغوية جديدة ، وتهذيب الأطالس الموجودة » .

وأما علم اللغة التاريخى فهو يهتم بماضى اللغة ؛ « وإن مانستخلصه من ماضى اللغة وتطورها التاريخى لايمكن استخدامه فى المجال التطبيقى العملى لتعليم اللغة وتعليمها ، كل مايمكن أن يقال هو أن الدروس المستفادة من الماضى ربما أفادت فى فهم مايحدث الآن ، أو ماسيحدث فى المستقبل » .

« أما ميدان علم اللغة الجغرافى فهو أكثر الميادين خصباً ، لأنه أقل الفروع حظاً من عناية الباحثين ، ونصيباً من العمل المنظم ، وإن مباحث علم اللغة الجغرافى قد حكم عليها علماء اللغة المتخصصون بأنها فرع خادم للفرعين الآخرين ، بدلا من أن يعالجوها بطريقة أساسية مستقلة... وقد أدى استخدام هذا المنهج خلال الحرب العالمية الثانية إلى وضع المناهج الدراسية العملية لتعليم اللغات لأفراد القوات المسلحة ، وقد كانت الحكومة مهتمة بالناحية العملية ، لا النظرية أو التاريخية للغة ، لقد كانت تريد أن تعرف أى اللغات تستعمل فى العالم ، ومن يتكلم بها ، وكم عدد المتكلمين ، وكيف تستعمل؟ ».

ثم يقول : « إن الفروع الثلاثة المتآخية سوف تحقق أحسن النتائج ،

إذا سمح لها أن تسير جنبا إلى جنب كفروع منفصلة »[1].

والواقع أن ماريوباى يبدو لنا فى مواضع كثيرة من كتابه شديد الحفاوة بهذا الفرع العملى من علم اللغة ، حتى لنكاد نظن أنه هو الذى أبدع فكرته ، وشرع منهاجه ، ولكن النظرة السريعة فى كتاب دوسوسور ترينا أنه قد خصص لعلاج مسائل هذا العلم القسم الرابع من كتابه : (محاضرات فى علم اللغة العام) ، فقد جعل عنوانه : - Linguistique Géographique - أى : علم اللغة الجغرافى ، وكان حديثه فى هذا القسم عن تنوع اللغات ، وتعقد التنوع الجغرافى ، وتعايش اللغات فى بقعة معينة ، وعن اللغات الأدبية ، والرطانات المحلية ، ثم تحدث عن أسباب التنوع الجغرافى ، والزمن عنصر أساسى فيه ، وعن تأثير الزمن فى الرقعة الممتدة ، وعن أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ، وكذلك اللغات ، ثم تناول فى الفصل الأخير مسألة انتشار الموجات اللغوية وخصائص هذا الانتشار .

ومعنى ذلك أن دوسوسور قد وضع المنهاج النظرى على الأقل ، لما سماه علم اللغة الجغرافى ، بحيث يمكن اعتبار كل من جاءوا بعده امتداداً له فى سائر الأوطان ، وحسبنا أن نلاحظ فى كتابه هذا التتابع الرائع فى معالجته للفروع الثلاثة لعلم اللغة العام ، وهى :

١ — علم اللغة الوصفى Linguistique Synchronique

٢ — علم اللغة التاريخى Linguistque Diachronique

٣ — علم اللغة الجغرافى Linguistique Géogrephique

وقد لوحظ على تأريخ الأوربيين للدراسات اللغوية أنهم يقتصرون فى سرده على جهودهم ، بدءاً من أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، دون أن

(١) أسس علم اللغة ص ٢٣٧ ومابعدها — بتصرف . ولسوف نعود إلى الحديث عن علم اللغة الجغرافى فيما بعد .

يعرج أحدهم على ماقدم العلماء العرب من جهود فذة فى هذا الميدان .

ولو أننا أردنا أن نعلل لهذا المسلك تعليلا يقدم حسن الظن بهم ، فربما لم نجد سوى أنهم يؤرخون لعلم اللغة التاريخى المرتبط بالمقارنة بين اللغات المختلفة ، وهو علم أوربى النشأة قطعاً . بيد أن أوربيا آخر كانت له نظرة أشمل وأكثر إنصافا ، هو المستشرق الألمانى (ا . شاده) فقد وجدناه يتجه إلى الاعتراف بجهود العلماء العرب ، وإسهامهم فى الحضارة الإنسانية بما قدموا من دراسات لغوية لم يسبقوا إليها ، فى ميدان النحو ، والصرف ، والأصوات، والمعاجم،وقد خص بالدراسة جانب الأصوات فى بحث بعنوان: (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) ـ انتهى فيه إلى أن من الصعب إضافة أى تعديل على ماقدم سيبويه من تحديدات علمية لكل ماتعرض لدراسته من الظواهر الصوتية ، اللهم فيما عدا موضوع الحنجرة التى لم يعرف العرب لها وظيفة صوتية ، فجعلوها جزءا من الحلق[1].

ومع ذلك فإن أحداً لاينكر أن التناول الحديث للغة قد خضع للمناهج الأوربية ، واتبع طريقتها فى البحث ، كما سبق أن اتبع الأوربيون مناهج المسلمين ، إبان عصر النهضة ، حتى استطاعوا أن يقفوا على أقدامهم ، وأن يستقلوا بوجهات نظرهم فى مختلف العلوم،فكانت الحضارة الأوربية الحديثة نتاج الامتزاج التاريخى بين عطاء العقل الإسلامى ، والعقل الأوربى .

(١) توجد نسخة خاصة من هذا البحث لدى المؤلف .

تعريف اللغة

ولكن ما اللغة ؟ . . سؤال تنبغى الإجابة عليه لتعريف ماهيتها ، قبل أن نحاول تحديد وظيفتها ، وقبل أن نسرد الآراء المختلفة فى نشأتها .

يطلق لفظ (لغة) على تلك الأصوات التى ينتجها جهاز النطق فى الإنسان ، معبرا بها عما يحس به من حاجات يريد بيانها والإيضاح عنها ، هكذا عرفها القدماء أيضاً ، حين قال أبو الفتح عثمان بن جنى : « أما حدُّها - أى اللغة - فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم [1] ».

وبدهى أن موقف الفرد أمام هذه الأصوات لا يتعدى أحد احتمالين : فإما أن يكون منتجاً للأصوات ، وإما أن يكون متلقيا لها. وتتم عملية التفاهم بين الأفراد فى حدود هذا الإصدار والتلقى ، وبذلك تكون اللغة قد أدت وظيفتها الأساسية التى تتحقق بها شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتنشأ بفضلها حضارة الإنسان . ومعنى ذلك أن اللغة هى (الكلام) منطوقا أو مسموعا ، أى أنها تتعامل مع عضوى اللسان والأذن .

ومعلوم هنا أن (اللسان) هو العضو الأساسى فى جهاز النطق الإنسانى ، حتى لنجده يستعمل فى كثير من اللغات بمعنى (اللغة) ، وقد ورد استعماله بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لُدًّا »[2] ، وقال : « وإنه لتنزيل رب العالمين . . . بلسان عربى مبين »[3] .

---

(١) الخصائص ١/٣٣ طبعة دار الكتب .
(٢) مريم /٩٧
(٣) الشعراء / ١٩٢ و ١٩٥

وهو أيضاً بنفس المعنى فى الفرنسية ، فكلمة Langue هى (لسان) ، وهى (لغة) ، غير أن (اللسان) بمعنى (اللغة) يعتبر من باب الاستعمال المجازى المتفرع عن دلالته الحقيقية ، بمعنى العضو المعروف فى الفم ، سواء فى ذلك العربية والفرنسية ، والأمر لايختلف فى الإنجليزية بالنسبة إلى كلمة tongue .

واللغة بهذا المعنى هى من خصائص الإنسان وحده ، دون غيره من سائر المخلوقات ، التى تساكنه هذه الأرض ، رغم ما عرف من وجود نوع من المستويات اللغوية لدى الحشرات والطيور والحيوانات ، يتم بوساطته التفاهم المشترك بين أفرادها ، وهو ما أكدته البحوث العلمية أخيرا ، وجاءت به قديما إشارات القرآن فى قوله تعالى عن نملة سليمان : « قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم (سليمان) ضاحكا من قولها » ، وقوله عن الهدهد : « فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . . الخ . . الآية »[1] .

ولا يبعد عقلا أن تكون لمخلوقات الله الأخرى لغات تتخاطب بها ، وقد يبدو لنا من هذه اللغات مظاهر نلحظها مثلا فى اختلاف صوت القطة فى حالة غضبها ، عنه فى حالة شجارها ، عنه فى حالة طلبها الطعام ، عنه فى حالة ندائها لقطاطها ، وهو أيضاً ما ندركه من نباح الكلاب عند الخطر ، أو فى حالات أخرى ، وهكذا سائر أنواع المخلوقات .

هذا القدر من الاختلاف يمنح النظر السطحى اقتناعا بوجود مستوى لغوى يتم به تعاون أفراد النوع فيما بينهم ، على الرغم من ارتباط وجود اللغة بوجود العقل لدى الإنسان ، فأثر العقل فى لغة الإنسان مدهش عجيب ، لايطيق أى وصف تصويره ، فلو أننا تصورنا وجود لغة بلا تحكم عقلى فى

(١) النمل /١٨و١٩و٢٢

عملياتها المنظمة لما كان ذلك غير ضوضاء خالية من المعنى ، شبيهة بما يصدر عن محركات السيارات ، أو عن احتكاك مادة بأخرى. ولقد يكون لمثل هذه الضوضاء حين تصدر من إنسان مريض بالخرس مدلول محدد أو قريب التحديد ، وذلك إذا اقترنت بإشارات تعين على هذا التحديد ، ووجود هذه الإشارات يدل على وجود نشاط عقلى لدى الأخرس ، ولو إلى حد ما .

والفرق بين الأصوات اللغوية ، وبين الضوضاء هو ما نلاحظه من نظام فى الأولى ، واضطراب فى الأخرى ، والعقل هو مصدر هذا النظام فهو الذى يمنح جهاز النطق المحدود ثراء وفاعلية لا حدود لهما .

وحسبنا أن ننظر إلى جهاز النطق الإنسانى ، المتمثل أساسا فى الحنجرة واللسان وفراغ الفم ، وهى أعضاء محدودة الحجم ، محدودة الأوضاع ، تنتج عند تشغيلها مجموعة محدودة من الأصوات ، يصطلح على عددها أهل كل لغة ، فالعربية مثلا تتكون أحرف هجائها من ثمانية وعشرين حرفا صامتا ، يضاف إليها ثلاث حركات أساسية هى الفتحة والكسرة والضمة . والإنجليزية تتكون أحرف هجائها من سبعة وعشرين حرفا بما فيها الحركات ، ومع ذلك نجد أن هذه الحروف المحدودة تنتج أعداداً هائلة من التراكيب الصوتية ، تأخذ شكل (كلمات) ، تختلف من لغة لأخرى ، وتكاد تبلغ الملايين ، دون أن تستنفد إمكاناتها فى إنتاج (كلمات) جديدة ، طبقاً لقوانين اللغة المصطلح عليها . وعلى مستوى لغات العالم البالغة الكثرة .

ثم إن عقل الإنسان لاتنتهى حيله ، ولا تفرغ وسائله فى محاولاته إثراء اللغة ، باستعمال الكلمات الموجودة فعلا فى معان متجددة ، عن طريق التوسع المجازى ، حتى لتعبر الكلمة الواحدة عن مجموعة من المعانى ، تميز بينهما السياقات المختلفة ، وهو أمر مألوف لنا فى اللغة العربية ، وسنرى له أمثلة كثيرة .

ومن الملحوظ فيما يتعلق بالأصوات (التى يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) أن المجموعات الصوتية قد تتفق ما بين لغة وأخرى ، ولكن الدلالة التى تحملها المجموعة المعينة هى التى تختلف ، وذلك كأن نجد المجموعة الصوتية (mat) فى العربية تعنى الهلاك والعدم (مات) ، على حين أنها تعنى فى الإنجليزية (حصيرة أو برشا) ، مع تساوى النطقين فى كلتا اللغتين . كذلك نلاحظ فى المجموعة الصوتية hall وهى فى الإنجليزية بمعنى (قاعة أو ردهة) ، أنها ذات معنى آخر فى العامية المصرية (هول) أى : ما يبعث الفزع والرعب .

ومعنى ذلك أن اصطلاح أصحاب اللغة على شكل المجموعة الصوتية يصحبه دائماً اصطلاحهم على ما تحمله من شحنة دلالية ، وذلك هو الذى يفصل فى الكثير الغالب ما بين لغة وأخرى .

ومن دلالة المجموعة الصوتية فى اللغة الواحدة على معان متعددة ما نجده فى العربية من دلالة كلمة (جبن) على ذلك الطعام المستخرج من اللبن ، وعلى الخلق المذموم ، نقيض الشجاعة ، ومثل كلمة (عين) التى تعنى فى العربية على التوالى : الباصرة ، والجاسوس ، والجارية والنبع ، وانضاف إليها حديثا : المصباح الكهربائى فى جهاز الراديو ، المسمى بالعين السحرية ، وربما تجد بفعل التطور معان كثيرة تدل عليها هذه المجموعة الصوتية .

هذا التعدد فى معنى المجموعة الصوتية يتيح للناطقين باللغة أن يستخدموها فى حديثهم بهدف التورية حين يريدون المعنى غير القريب ، متذرعين إليه بالاختفاء خلف المعنى القريب .

ومن المفيد أن نعلم أن هـذا التعدد فى معنى اللفظ الواحد ، أو معنى المجموعة الصوتية الواحدة ـ سمة من سمات اللغات المتحضرة ، إذ هو أولا : يوفر على الذهن الإنسانى مهمة معرفة كثير من المجموعات التى تعنى كل منها

معنى واحداً فقط ، كما أنه يقوم على أساس الذكاء الإنسانى الذى يستطيع أن يضع الكلمة فى موضعها ، وأن يفهم ما يراد بها حين ينظر فى سياقها .

وذلك بعكس اللغات البدائية التى تضع لكل شىء تسمية خاصة ، حتى ولو تشابهت الأشياء ، أو كانت بينها علاقة تسمح بتوحيد الاسم المطلق عليها ، فرأس الإنسان غير رأس الجبل ، غير رأس الحيوان ، غير رأس الشجرة ، كل منها له اسم خاص به وفى ذلك ما فيه من إرهاق للذهن الإنسانى وإهمال للذكاء ، ولكنه مناسب طبعاً للمرحلة البدائية التى تمر بها اللغة .[1]

ولقد يطلق لفظ (لغة) على ما تراه العين من أشكال ورموز مكتوبة ، لكن هذا الإطلاق فيه بعض التوسع ، إذ أن الحروف كما يقول إدوارد سابير العالم اللغوى المعروف ليست سوى رموز الكلام الملفوظة ، فإذا ما علمنا أن الأصوات ليست فى حقيقتها سوى رموز اختارها الإنسان للتعبير عما يدور بخلده من معان مرادة له - أدركنا بسهولة علاقة الحروف بالأصوات فى نطاق اللغة ، فهى رموز الرموز[2] وسنفرد هذا الموضوع بعلاج خاص .

وليس إطلاق لفظ (لغة) على أنها تعبير عن حاجات الإنسان ـ مقصوداً به أنها تعبير مقصور على ضروراته الحيوية (البيولوجية) ، إذ أن هذا المستوى هو أدنى مستويات التعبير ، وهو أشبه ـ مع الفارق الكبير طبعاً ـ بما يصدره الحيوان من أصوات يفهم منها أنه جائع ، أو عطشان ، أو مذعور خائف ، فالحيوان فى هذه الحال يعبر عن حاجة أساسية يطلب إشباعها ، حين يكون بحاجة إلى الطعام ، أو الشراب ، أو الأمن .

إن اللغة ـ فى واقع الأمر ـ تتجاوز هذا المستوى ، إلى أنها تعبير عن

---

(١) دلالة الألفاظ ـ ص ٩٩ ـ الطبعة الثانية .
(٢) علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى ـ ٨ ، ـ تأليف الدكتور محمود السعران .

الأهداف السامية التي يدور في فلكها العقل البشري ، متأملا حقائق الكون ، أو متطلعاً إلى اكتناه أسراره ، أو معبراً عن علاقات جمالية أو نفسية دقيقة ، وهي بهذا المستوى أو التصور تعد أداة مميزة للوجود الإنساني ، لا يشركه فيها غيره من الكائنات التي تعايشه على ظهر الأرض .

ولأمر ما . . كان قوله تعالى « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان[1] » ، فالمراد الأصلي من أن الله سبحانه علم الإنسان (البيان) هو أنه علمه اللغة التي يبين بها عما في نفسه ، بما يشمل المستويات الرفيعة في البيان ، من حيث كونه ظاهرة إنسانية راقية يتميز بها عن سائر الكائنات[2] .

ونستطيع بعد هذا أن نخرج بتعريف عام للغة ، هو أنها : « نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة الاصطلاحية »[3] .

ويقصد بكلمة (العلامات) : الأصوات الصادرة عن جهاز النطق الإنساني ، فهي في الحقيقة رموز أو علامات للدلالات التي ضُمِّنتها ، وهي رموز اصطلح على أشكالها ، وكيفياتها ، وكمياتها ، بالقدر الذي تسمح به اللغة المعينة ، كما اصطلح على الدلالة التي ترتبط بكل مجموعة من الأصوات .

و(اللغة) بهذا التحديد يمكن أن تطابق (الكلام) ، بل هي كذلك من الوجهة اللغوية الحرفية ، ففي المعجم العربي : « واللغة من الأسماء الناقصة ، وأصلها : لغوة ، من : لغا إذا تكلم ، ويقال : لغي يلغى لغة ، ولغا يلغو لغوا : تكلم ، وزنتها : فُعْلَة ، لأن أصلها : لُغْوَة[4]

---

(١) الرحمن ١ ـ ٤

(٢) تفسير القرطبي ١٧ ـ ١٥٢ ـ ط . دار الكتب .

(٣) علم اللغة ـ د . السعران ـ ص ٦٦ .

(٤) لسان العرب ـ لغو

وبذلك يكون (علم اللغة) هو (علم الكلام)، غير أن هذا المصطلح الأخير قد اكتسب خلال التاريخ معنى مغايراً لما يفهم منه ابتداء ، إذ يراد به (علم الجدل حـــــــول بعض القضايا الدينية) ، ومن ثم سمى علماؤه (بالمتكلمين) ، إذ كان من شأنهم دائماً القول فى مجموعة من التراكيب والقضايا ذات الدلالة الجدلية .

فكان لابد من تسميته (علم اللغة) فى المصطلح الحديث ، فى مقابل المصطلح الأوربى : La linguistique، أو فى مقابل Science du Lan,age

مصطلحات ثلاثة

اللغة — اللسان — الكلام

جرى اصطلاح علم اللغة الحديث على التفرقة بين ثلاثة مصطلحات، باعتبارها من مصطلحات العلم، وقد سبقت الإشارة إلى أن نشأته حديثا كانت أوربية، وأننا تلقيناه بمناهجه ومصطلحاته فى معاهد أوربا وكتبها، كيما نطبق أفكاره، ونفيد من مناهجه.

وقد وجدنا أن دوسوسور يفرق بين ثلاثة مفاهيم، وضع لكل منها كلمة مستقلة تدل عليه فى إطار هذا العلم، فهو يرى أن هنالك كيانا عاما يضم النشاط اللغوى الإنسانى، فى صورة ثقافة منطوقة، أو مكتوبة، معاصرة أو متوارثة، وباختصار: كل ما يمكن أن يدخل فى نطاق النشاط اللغوى من رمز صوتى أو كتابى، أو إشارة أو اصطلاح، نخص هذا النشاط بكلمة Langage، أى: (اللغة)، ثم إنه ينظر إلى اللغة المعينة بطريقتين، فإما أن تكون فى صورة منظمة ذات قواعد وقوانين، وذات وجود اجتماعى، فيطلق عليها Langue، ويقابلها فى العربية: (اللسان)، وإما أن تكون فى صورة ممارسة فردية منطوقة، على أى مستوى، ويطلق عليها: Parole، وهو بالعربية: (الكلام).

وإذا نحن سقنا هذه الأفكار على هذا النحو من التبسيط فربما أسأنا إلى الرجل، الذى يعد تصوره لموضوع علم اللغة الحديث أشبه بقانون ملزم لكل من جاء بعده من العلماء والباحثين، فى الشرق والغرب على سواء، فقد عاش دوسوسور فى فترة تعد من أخطر مراحل الفكر الإنسانى، حيث

كانت بداية هذا القرن العشرين تشهد ميلاد كثير من الأفكار الحضارية ، وتطبيقاتها على سائر ضروب النشاط الإنسانى .

وكانت فكرة التطور ، وفكرة الوجود الجمعى، وفكرة النوافذ المفتوحة بين سائر ضروب المعرفة الإنسانية — من الأفكار الأساسية التى حفرت لنفسها قناة متدفقة فى فكر دوسوسور ، فبدأ يطبق كل معطيات نظرية التطور وما يتصل بها من دراسة للعلاقات التاريخية بين اللغات ؛ ومايستتبعه ذلك من مقارنات لغوية بين الأصول والفصائل ، كما بدأ يفيد فى دراساته من معلومات علوم مختلفة كعلم الحياة ، والفيزياء ، ووظائف الأعضاء ، والتشريح ، وعلم الصوت (الأكوستيك) ، وعلم النفس ، وعلم الإنسان ، وعلم الأجناس ، وعلم الاجتماع ، والرياضيات .

وكل ذلك يضفى طابع الثراء على علاج دوسوسير لمسائل علم اللغة ومناهجه كما يراها ، وليس من الممكن عرض وجهة نظره فى المشكلة التى نحن بصددها إلا بأن نقدمها كاملة كما عبر عنها ، فإن أفكاره تبدو دائما حية ، حتى ولو بدا أن الزمن تخطاها إلى غيرها من مظاهر التجديد .

تعريف اللغة واللسان

عند دوسوسور [1]

ما الموضوع المتكامل والمادى لعلم اللغة ؟ سؤال صعب ، ولسوف ندرك فيما بعد أسباب صعوبته ، ولكننا نقتصر الآن على محاولة إدراك هذه الصعوبة فى ذاتها .

إن هناك علوما تبحث موضوعات معينة مقدما ، ثم يجد الباحثون أنفسهم بعد ذلك فى حاجة إلى معالجتها من نواح أخرى ، وهو أمر يتجلى أكثر ما يتجلى فى علم اللغة . ولنأخذ على ذلك مثالا : فإذا نطق إنسان الكلمة الفرنسية (nu) فإن الملاحظة السطحية سوف ترى فيها موضوعا لغويا ماديا ، ولكن النظر المدقق قد يرى فيها ثلاثة أو أربعة أشياء يختلف بعضها عن بعض اختلافا كاملا ، تبعاً للطريقة التى ينظر بها : فهى صوت ، وهى تعبير عن فكرة ، وهى مقابل للفظة اللاتينية (nūdum) ... إلخ ...
وبصرف النظر عن أن الموضوع يسبق دائما الرأى فيه - فإن من الممكن القول بأن الرأى هنا هو الذي يخلق الموضوع ، ومع ذلك فإن شيئا لا يدلنا مقدما على أن واحدة من هذه التصورات تسبق الأخرى أو تلحقها .
ومهما يكن الأمر الذى نأخذ به فى ترتيبها فإن . للظاهرة اللغوية وجهين

دائما يتقابلان ، ولا يتضح أحدهما إلا بوجود الآخر ، ومثال ذلك :

---

(١) أنظر : cours de Linguistique générale - ص ٢٣ وما بعدها .

أولا : أن المقاطع التى ننطقها هى تأثيرات صوتية طبيعية Accoustique تستقبلها الأذن ، ولـكن الأصوات ما كانت لتوجد دون أعضاء النطق ، فالنون مثلا لاتوجد إلا بالتقاء هذين الجانبين . فليس من الممكن إذن أن نحصر اللسان la langue فى الصوت، ولا أن نفصل الصوت عن النطق الفموى، أى : أننا لانستطيع أن نعرف حركات الأعضاء النطقية إذا ماغضضنا النظر عن التأثير الصوتى .

ثانياً : فلنقرر جدلا أن الصوت شىء بسيط ، ولـكن هل هو الذى يصنع اللغة ؟... كلا ، فهو ليس سوى أداة للفـكر ، وهو لم يوجد من أجل ذاته ، ومن هنا ينشأ تقابل جديد وهام ، هو : أن الصوت ، من حيث كونه وحدة صوتية نطقية مركبة accoustico-Vocale يكون بدوره مع الفـكرة وحدة مركبة عضوية physiologique وذهنية Mentale . وليس هذا هو كل مافى الأمر .

ثالثاً : أن للغة وجهاً فرديا ، ووجهاً اجتماعيا ، ولا يمـكن تصور أحدهما دون الآخر .

رابعا : ثم إن للغة فى كل لحظة نظاما ثابتا ، وحركة متطورة ، وهى فى كل لحظة بناء حاضر ، ونتيجةُ ماضٍ ، ولقد يخيل إلينا للنظرة الأولى أن من السهل أن نفصل بين هذا النظام وتاريخه ، أى : بين ما كان وماهو كائن، والواقع أن العلاقة التى توحد هذين الأمرين جد وثيقة ، لدرجة يصعب معها فصلها .

وهنا نسأل : هل يكون الأمر أكثر يسرا إذا ماتناولنا الظاهرة اللغوية من مباديها ، أعنى : إذا بدأنا بدراستها فى لغة الأطفال مثلا؟ . . كلا . فإن

من الخطأ أن نعتقد فيما يتعلق باللغة أن مشكلة الأصول تختلف عن مشكلة شروط البقاء ، وإذن فلن نستطيع الخروج من الحلقة .

وهكذا ، من أى الجهات أتينا القضية لا يتاح لنا أن نضع بين أيدينا للموضوع الكامل لعلم اللغة ، إذ أننا نصادف في أى احتمال هذا الخيار المحرج: فإما أن نتناول جانبا واحدا من كل مشكلة ، وبذلك نجازف باحتمال ألا نعالج الثنائيات المذكورة آنفا ، وإما أن ندرس اللغة من جوانب متعددة فى آن واحد ، فيبدو لنا موضوع علم اللغة أشبه بكم غامض من الأشياء المتفاصلة المفككة ، دون رباط فيما بينها .

فإذا نحن سرنا على هذا النحو فتحنا الباب لعلوم كثيرة كعلم النفس ، Psychologie ، وعلم الإنسان Anthropolgie ، والنحو التاريخى ، والفيلولوجيا .. إلخ ، وهى علوم نرى أن نفصلها فصلا قاطعا عن علم اللغة . وإن كانت اللغة ، طبقا لمنهج غير دقيق — يمكن أن تعتبر موضوعا من موضوعاتها .

ليس هناك فيما نرى سوى حل واحد لكل هذه الصعوبات هو أنه : يجب أن نحصر أنفسنا أساسا فى مجال اللسان ، وأن نتخذه مقياسا لجميع مظاهر اللغة .

والواقع أن اللسان ، مهما كثرت الثنائيات ، يبدو وحده صالحا لتعريف مستقل ، وهو يقدم نقطة ارتكاز كافية للعقل .

ولكن ما اللسان – La Langue ؟ ... فى رأينا أنه لا يختلط

باللغة Le Langage ، فهو ليس سوى جزء محدد أساسى منها ، والحق أنه نتاج اجتماعى لملكة اللغة Le Langage ، وهى مجموعة من الأعراف الضرورية ، يستخدمها الكيان الاجتماعى ، ليسمح بمزاولة هذه الملكة عند الأفراد .

فأما إذا أخذنا اللغة فى مجموعها فسنجد لها أشكالا كثيرة ، ومتضاربة ، لأننا إذا تناولناها فى مجالات متعددة ، مادية وعضوية ونفسانية، فإنها تنتمى أيضا إلى مجال فردى ، وإلى مجال اجتماعى ، وبذلك لا نستطيع أن نضمها فى أية مجموعة من الأحداث الإنسانية ، لأننا لا نعرف كيف نحقق وحدتها .

واللسان بعكس ذلك هو كل فى ذاته ، وهو مبدأ تصنيف ، فإذا نحن أحللناه فى المكان الأول من كيان اللغة فإننا ندخل نظاما طبيعيا فى مجموع لا يخضع لأى تصنيف آخر .

ومن الممكن أن نعترض على هذا المبدأ فى التصنيف ، حين نرى أن ممارسة اللغة تعتمد على ملكة نستمدها من الطبيعة ، على حين أن اللسان شىء مكتسب وعرفى ، ينبغى أن يكون تابعا للغريزة الطبيعية ، بدلا من أن يتقدم عليها .

وللإجابة عن ذلك نقول : ليس من الثابت أولا أن وظيفة اللغة ، وهى التى تتجلى عندما نتكلم ، تكون طبيعية فطرية بصورة كاملة ، أعنى : أنه ليس مسلما أن جهازنا النطقى قد صنع ليتكلم ، كما أن أرجلنا خلقت لنمشى عليها ، ولم يتفق اللغويون حول هذه النقطة .

فوايتنى Whitney الذى يشبه اللسان بالمنظمة الاجتماعية كغيرها من المنظمات ، يرى أننا نستخدم الجهاز النطقى أداة للسان بمحض الصدفة ، ولأسباب تتصل بسهولة الاستعمال ، وقد كان بوسع الناس أن يختاروا أيضا الإشارة ، وأن يستعملوا الصور المرئية ، بدلا من الصور الصوتية .

ولا شك أن هذه النظرية شديدة الإطلاق ، فاللسان ليس منظمة اجتماعية مماثلة فى كل شىء لغيرها من المنظمات . وفضلا عن ذلك فإن وايتنى يذهب بعيدا عندما يقول : إن اختيارنا قد وقع بمحض الصدفة على الأعضاء النطقية ، فلقد فرضت علينا الطبيعة ذلك بصورة ما .

بيد أن هذا اللغوى الأمريكى يبدو لنا من ناحية أخرى على صواب ، فإن اللسان اتفاق ، وطبيعة الرمز المتفق عليه قليلة الأهمية ، فمسألة الجهاز النطقى إذن هى مسألة ثانوية فى مشكلة اللغة .

ولقد يؤكد هذه الفكرة ما نجد من تعريف لما يسمى باللغة المنطوقة le langage articulé فى اللاتينية articulus بمعنى (عضو ، جزء ، قسم فى مجموعة من الأشياء) ، وفيما يتعلق باللغة يمكن أن يقصد بالنطق أحد أمرين : فإما أن يكون قسما من السلسلة المنطوقة فى صورة مقاطع ، وإما أن يكون قسما من سلسلة المعانى التى تتمثل فى وحدة معنوية .

فإذا أخذنا بهذا التعريف الثانى لأمكننا القول بأن اللغة المنطوقة ليست هى الشىء الفطرى الطبيعى فى الإنسان ، ولكن الفطرى هو القدرة على تكوين لسان ، أعنى : ذلك النظام من العلامات المتميزة المقابلة للأفكار المتميزة .

ولقد اكتشف بروكا Broca أن ملكة الكلام منحصرة فى القسم الثالث من تلافيف المخ الأمامية اليسرى ، ومن ثم ذهب إلى أن اللغة ذات صبغة فطرية ، بيد أن من المعروف أن هذا الانحصار قد لوحظ بالنسبة إلى كل ما يتصل باللغة ، بما فى ذلك الكتابة .

فإذا ضممنا هذه الملاحظات إلى ما عرف عن مختلف أشكال الخرس ، الناشئة عن خلل هذه المراكز المخية لظهر لنا :

أولا : أن الاضطرابات المختلفة فى اللغة الشفوية متشابكة متداخلة بمائة شكل ، مع اضطرابات اللغة المكتوبة .

ثانيا : أن جميع حالات الخرس ، والعجز عن الكتابة تشير إلى أن الذى أصيب هو القدرة على التلفظ بهذا الصوت أو ذاك ، أو رسم هذه العلامة أو تلك ، ولكن بدرجة أقل من القدرة على استدعاء رموز لغة منظمة بوساطة أداة معينة ، أية كانت هذه الأداة .

وكل هذا يؤدى بنا إلى أن نعتقد بوجود قدرة أكثر عموما ، تسيطر على تشغيل مختلف الأعضاء ، وهى التى تتحكم فى العلاقات والرموز ، وتلك هى الملكة اللغوية بالمعنى الصحيح ، وبهذا نصل إلى نفس النتيجة التى أسلفنا .

ولكى نخص اللسان بالمكان الأول فى دراسة اللغة يمكننا أخيراً أن نفيد من هذا الدليل ، وهو أن القدرة ـ الفطرية أو غير الفطرية ـ على نطق الكلام لا تمارس إلا بمساعدة الأداة المخلوقة ، والتى هى عطاء المجتمع ، فليس

إذن من باب التوهم أن نقول بأن (اللسان) هو الذى يحقق وحدة (اللغة)
[انتهى كلام دوسوسور] .

* * *

والواضح من هذا كله أن هناك تفرقة ضرورية بين اللغة ، واللسان ، من حيث كانت الأولى دالة على تلك الظاهرة الإنسانية فى عمومها ، وكان الآخر دالا على نظام متعارف عليه داخل جماعة إنسانية محددة .

وقد اخترنا أن نجعل مقابل **Langage** مصطلح (اللغة)، ومقابل **Langue** مصطلح (اللسان) ، وكذلك فعل المرحوم الدكتور محمود السعران فى كتابه (علم اللغة ـ مقدمة للقارىء العربى) ، والواقع أن اختيار هذه الترجمة للمصطلحين يقترب من مذهب بعض اللغويين فى الشمال الافريقى ، ومن بينهم محررو مجلة اللسانيات ، التى يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر ، وعلى رأسهم الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح ، حيث اختاروا أن يترجموا **Linguistique** بعلم اللسان ، فكأنهم تجاهلوا صلاحية لفظ (لغة) للاستعمال فى هذا المجال ، ولهم فى ذلك تحليل علمى وسلفى منشور[1] :

أما الذى جرينا عليه فى استعمال المصطلحين فهو موقف يحل مشكلة ينبغى الاتفاق العاجل بشأنها ، توحيداً للجهود ، وتوفيراً للوقت ، ولقد يبدو استعمال مصطلح (لسان) غريبا لدى الدارسين ، ولكن من الممكن استخدامه عندما

---

(١) أنظر مجلة اللسانيات المجلد الأول ـ الجزء الأول ١٩٧١ ـ مقال رئيس التحرير ص ٢٨ وما بعدها .

يراد به التعبير عن لغة معينة ، كما أن من الممكن أن يحل محله التعبير بمصطلح (لغة) موصوفا بما يحددها ، كأن يقال : (اللغة العربية) أو (لغة الاصطلاح) أو (اللغة العلمية) ، فهذا فى نظرنا يؤدى المعنى المراد من التعبير : (اللسان العربى) و (لسان الاصطلاح) و (اللسان العلمى) ، وأول هذه التعبيرات وارد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (بلسان عربى مبين)[٢] وإن جرى الاستعمال الشائع على تفضيل التعبير (اللغة العربية) ، وهو ما لا يختلف مع خواص المصطلحات كما حددها رائد علم اللغة الحديث .

---

(٢) الشعراء / ١٩٥ .

مكان اللسان والكلام فى أحداث اللغة (١)

لكى نجد فى مجموع اللغة ـ المجال الذى يقابل اللسان ـ يجب أن نقف أمام العمل الفردى الذى يسمح بإعادة تكوين دائرة (الكلام) ، هذا العمل يفترض وجود فردين على الأقل ، وهو الحد الأدنى المعقول لتكتمل الدائرة ، فلدينا إذن شخصان ا ، ب يتحادثان :



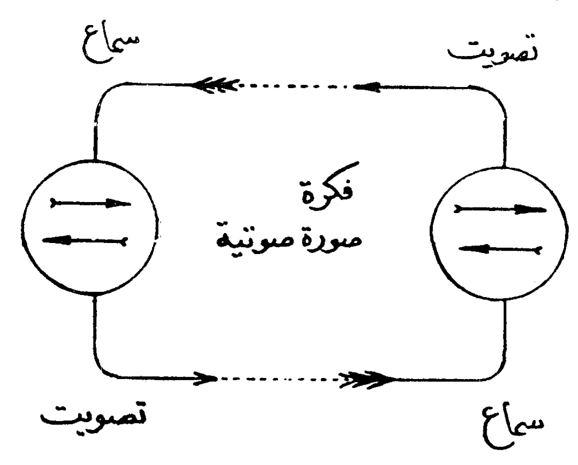
ونقطة بدء الدائرة هى فى مخ أحدهما (ا) مثلا ، حيث توجد أحداث التفكير التى نطلق عليها (أفكارا) ، مختلطة بغيرها من العلامات اللغوية ، والصور الصوتية المستخدمة فى تعبيره .

ولنفرض أن فكرة معينة قد فجرت فى المخ صورة صوتية مقابلة لها ، فتلك ظاهرة نفسية بصورة كاملة ، تتبعها حركة عضوية ، إذ أن المخ ينقل إلى أعضاء التصويت أمرا يتفق مع الصورة ، ثم إن الموجات الرنانة تنبعث من فم (ا) إلى أذن (ب) : وتلك حركة مادية محضة physique .

---

(١) دوسوسور Cours de Ling. générale ـ ص ٢٧ وما بعدها .

وبعد ذلك تستمر الدائرة لدى (ب) في صورة أمر معاكس ، من الأذن إلى المخ ، وهو نقل عضوى للصورة الصوتية ، وفى داخل المخ يجرى تداع نفسى لهذه الصورة مع الفكرة المقابلة ، فإذا تكلم (ب) بدوره فإن هذا العمل الجديد سوف يتتابع من مخه إلى مخ (ا) ، وهى نفس الرحلة الأولى ، وسوف يمر بنفس المراحل المتتابعة التى نصورها على النحو التالى :



هذا التحليل لا يدعى الكمال فإن من الممكن أن نميز عنه أيضا : الإحساس الصوتى المحض ، ويتمثل هذا الإحساس فى الصورة الصوتية الخفية ، وفى الصورة العضلية للأثر الصوتى .. الخ .. ونحن لم نضع فى اعتبارنا سوى العناصر التى نراها جوهرية ، بيد أن رسمنا يسمح ابتداء بتمييز الأجزاء المادية Physique (وهى الموجات الرنانة)، من الأجزاء العضوية Physiologique (التصويت والسماع) ، والنفسية (الصور الشفوية ، والأفكار) .

ومن المهم فى الواقع أن نلاحظ أن الصورة الشفوية لا تختلط مع الصوت ذاته ، وأنها ذات طابع نفسانى ، شأن الفكرة التى استدعتها .

هذه الدائرة التى قدمناها يمكن أن تنقسم إلى :

(ا) جزء خارجى فى صورة (ذبذبات أصوات ذاهبة من الفم إلى الأذن) ، وجزء داخلى يشمل كل ماتبقى .

(ب) جزء نفسانى ، وجزء غير نفسانى . وهذا الثانى يضم الأحداث العضوية التى تصدر عن الأعضاء . كما يضم الأحداث المادية Physique الخارجة عن الفرد .

(ج) جزء إيجابى ، وجزء سلبى ، فكل مايصدر عن مركز التداعى من أحد الفردين إلى أذن الفرد الآخر — هو إيجابى ، وكل مايصدر عن الأذن إلى مركز تداعيه هو سلبى .

وأخيراً ففى الجزء النفسانى الموجود فى المخ يمكن أن نطلق وصف (مرسل) على كل ماهو إيجابى : (فكرة ← صورة) ، وأن نطلق وصف (مستقبل) على كل ماهو سلبى : (صورة ← فكرة) .

ويجب أن نضيف القدرة على التداعى والتنسيق ، وهى تظهر عندما تختفى العلامات المفردة ، وهذه القدرة هى التى تقوم بأكبر دور فى تنظيم اللسان ، من حيث هو نظام .

ولكنا لكى نحسن فهم هذا الدور يجب أن نخرج من دائرة العمل الفردى ، الذى ليس سوى جنين للغة ، ثم نشارف الحدث الاجتماعى ، فهؤلاء الأفراد ، الذين ربطت بينهم اللغة — سوف يستقر فيما بينهم نوع من القدر المشترك ، وسوف تنتج لديهم نفس العلامات التى توجد نفس الأفكار ، إن لم يكن على سبيل التطابق ، فعلى وجه التقريب .

فما منشأ هذا التبلور الاجتماعى ؟ .. وأى طرفى الدائرة هو المهم هنا ؟.
ذلك أن من المحتمل ألا يكون اشتراك كل فرد فى هـــذا الواقع مساوياً للآخرين ، ولربما استطعنا أن نسقط الجزء المادى من أول لحظة ، عندما نسمع رجلا يتـكلم لساناً نجهله ، فنحن نستقبل الأصوات ، ولـكننا نظل خارج الحديث الاجتماعى بسبب من عدم فهمنا .

والجزء النفسانى لايدخل هنا أيضاً بصورة كاملة ؛ ذلك أن الجانب المرسل يبقى خارج المحال ، لأن الإرسال لايصدر مطلقاً عن الجماهير ، فهو أبداً فردى ، والفرد هو دائماً مصدره ، ولسوف نطاق عليه : الـكلام .

وإنما يتـكون لدى الأفراد المتـكلمين بفضل تشغيل القدرات المستقبلة والمنسقة ـ إحساس يصل إلى درجة التوحد فيما بينهم ، فـكيف يمـكن أن نتصور هذا الواقع الاجتماعى حتى يخلص لنا اللسان فى النهاية ؟ ..

إننا إذا استطعنا أن نضم مجموعة الصور الشفوية المختزنة لدى جميـع الأفراد فقد نلمس الرباط الاجتماعى الذى يـكون اللسان ، فهو كنز مودع بوساطة ممارسة الـكلام لدى الأفراد المنتمين إلى مجتمع مشترك ، وهو نظام نحوى موجود افتراضاً فى كل مخ ، أو على الأصح : فى أمخاخ مجموع الأفراد ، وهو لايوجد كاملا إلا فى الجماهير .

فإذا مافصلنا اللسان عن الـكلام ، فإننا نفصل فى نفس الوقت :

أولا : ماهو اجتماعى عما هو فردى .

ثانياً : ماهو أساسى عما هو تابع ، أو عارض .

واللسان ليس وظيفة الفرد المتـكلم ، إنه الثمرة التى يسجلها الفرد دون

قصد أو وعى ، وهو لا تتطلب سبق التأمل . وليس للتفكير دخـل فيه إلا من أجل مهمة الترتيب .

أما الكلام فهو على العكس عمل فردى . نابع عن إرادة . وذكاء . بحيث يمكن أن نميز فيه :

أولا : المجموعات التى بها يستخدم الفرد المتكلم رموز اللسان وقوانينه للتعبير عن فكره الشخصى .

ثانياً : الآلية النفسية المـــادية Psycho-pheysique التى تسمح له بإخراج هذه المجموعات إلى حيز السماع .

ومن الواجب أن نلاحظ أننا هنا قد عرفنا (أشياء) . لا (كلمات) . فليس لنا إذن أن نتهيب من بعض المصطلحات الغامضة التى لاتتقابل مابين لسان وآخر . ففى الألمانية نجد مثلا الكلمة Sprache وهى بمعنى (لسان Langue) . و (لغة Langa ge) ، ونجد كلمة Rede وهى تقريباً فى مقابل كلمة (كلام Parole) . ولكن يضاف إليها المعنى الخاص لكلمة (خطاب Discours) .

أما اللاتينية فإن كلمة Sermo تعنى (اللغة ، والكلام) على حين أن كلمة : Lingua تعنى (اللسان) . وهكذا لاتقابل كلمة أخرى فى مفهومها المحدد . ولذلك نرى أن أى تعريف يوضع بصدد (كلمة) أية كانت عديمُ الجدوى . فإن من سوء المنهج أن نبدأ بالكلمات لتعريف الأشياء .

ونعود الآن إلى تلخيص صفات اللسان فهو :

أولا : موضوع محدد فى مجموع غير مترابط من أحداث اللغة . ومن

الممكن أن نحله فى قسم محـدد من الدائرة . حيث تستدعى الصورة السمعية إلى الفكرة . واللسان هو الجزء الاجتماعى من اللغة . فهو خارج الفرد . الذى لا يملك إبداعه . ولا تعديله . وهو لا يوجد إلا بمقتضى نوع من العقد الموقع بين أعضاء الجماعة .

والفرد من ناحية أخرى بحاجة إلى أن يتلمذ للسان حتى يتعرف أثره . فالطفل لا يتمثله إلا شيئاً ، فشيئاً . لأنه شىء متميز الوجود عن الإنسان . لدرجة أن الإنسان العاجز عن استعمال الكلام يحتفظ باللسان . شريطة أن يفهم العلامات الملفوظة التى يسمعها .

ثانياً : واللسان المتميز عن الكلام موضوع يمكن أن يدرس على حدة . فنحن لم نعد نتكلم الألسنة الميتة ، ولكننا نستطيع أن نمثل لأنفسنا بناءها اللغوى . وعلـم اللسان ليس فقط مستغنياً عن العناصر الأخرى فى اللغة . بل إنه ليس من الممكن أن يكون إلا إذا استبعدت منه هذه العناصر .

ثالثاً : وعلى حين أن اللغة مفككة العناصر ، نجد أن اللسان على هذا النحو المرسوم ذو طبيعة متوافقة ، فهو نظام من العلامات ، جوهره هو اتحاد المعنى بالصورة الصوتية . وطرفا العلامة ذوا طبيعة نفسية .

رابعاً : واللسان ، كالكلام ، موضوع ذو طبيعه محسوسة ، وتلك ميزة كبيرة تخضعه للدراسة ، والعلامات اللغوية ليست تجريدات ، لكى تكون نفسية فى جوهرها .

أما المعانى المتداعية التى أقرها الاتفاق الجماعى ، والتى تكون فى مجموعها

(اللسان) فإنها أحداث واقعية مركزها المخ ، وفضلا عن ذلك فإن علامات اللسان ذات طبيعة محسوسة ، ويمكن للكتابة أن تثبتها فى صور متفق عليها ، على حين أنه ربما كان مستحيلا أن نصور تفاصيل أحداث الكلام ، ذلك أن تصويت كلمة مهما صغرت يمثل مالا يحصى من الحركات العضلية ، التى يصعب إلى أقصى حد معرفتها ، أو تصويرها .

أما فى اللسان ، فعلى العكس ، لا توجد غير الصورة الصوتية ، وهى قابلة لأن تتجلى فى صورة مرئية ثابتة ، لأننا ، إذا ما غضضنا النظر عن حجم تلك الحركات الضرورية لتحقيقها فى الكلام ، فإن كل صورة صوتية ليست سوى عدد محدود من العناصر أو الفونيمات ، قابلة بدورها لأن تستدعى بعدد مقابل لها من علامات الكتابة .

هذه الإمكانة ، المتمثلة فى إثبات ما يتعلق باللسان ، هى التى تجعل من القاموس ، والقواعد ، ممثلين أمينين له .

وإذا كان اللسان مستودعا للصور الصوتية ، فإن الكتابة هى الشكل الملموس لهذه الصور .

* * *

وإلى هنا ينتهى حديث دوسوسور ، الذى ترجمناه كاملا ، وربما لأول مرة ، وأحسب أن رأيه القائل بالتفرقة بين اللسان والكلام قد اتضحت معالمه تماما ، وهى تفرقة من قبيل تحديد المصطلحات ، وقد يرى بعض الباحثين الأخذ بها ، أو رفضها ، ولكنها على كل حال ذات طابع علمى يقوم على جملة من الحقائق والتصورات الأكاديمية ، ولسوف نعرض بعد قليل لما وجه إلى هذه الآراء من نقد يقوم على وجهات نظر مختلفة إلى الموضوع .

وقد اقتصر الحديث حتى الآن على تحديد مفهوم (اللسان) من حيث هو

أصوات ، وعلامات لهذه الأصوات ، مصطلح عليها ، دون أن نتعرض لمفهوم آخر للسان أو اللغة ، خارج هذا النطاق : بل هى عدة مفاهيم . فنحن نقول : لغة الإشارة ، ونقصد بها شيئا آخر غير الأصوات ، بعض الحركات المصطلح على مدلولها اجتماعيا ، بالمعنى العام لكلمة (مجتمع) ، أو بالمعنى الخاص الذى يمارسه الخرس فى مجتمعنا ، فلولا ما يبدون من حركات ذات دلالات خاصة لما استطاعوا العيش مع جماهير الناطقين .

ونقول : لغة الشفرة ، ونقصد بها التفاهم بوساطة أرقام ذات دلالات مصطلح عليها بين المتعاملين بهذه الأرقام . بغية إخفاء أغراضهم عن الآخرين.

ونقول : لغة العيون ، ونقصد بها تأثير النظرة حين تتجه إلى مرئى تحمل إليه رغبة أو رهبة ، ينفعل بها من يتابعها .

ونقول : لغة الزهور ، ونقصد بها ما تحمله ألوانها وعطورها من إيحاءات شعرية ، مفرحة ، أو محزنة ، أو موحية .

ولكن العقل الإنسانى ، برغم اعتماده لهذه الوسائل كلها فى تبادل الفهم والتعامل ، لا يعد ذلك كله إلا وسائط يجب أن تترجم إلى النظام المصطلح عليه من العلاقات ذات الدلالة ، حتى يمكن أن يستجيب لما يوجه إليه ، أو يشعر به من خطاب سمعى . أو بصرى ، أو ذهنى ، أو وجدانى .

نقد لرأى دوسوسور فى اللسان والكلام

هذا الذى تقدم من رأى دوسوسور فى التفرقة بين اللسان والكلام لا يسلم له بإطلاق ، فمن الباحثين من تتبع هذا الرأى ناقداً له ، ومدللا على عكسه . وفى مقدمة هؤلاء تلميذه وأحد جامعى كتابه ، شارل بالى Charles Bally الذى يرى أن أستاذه قد تغالى فى اعتبار اللسان أمراً ذهنيا ، ناتجا عن العقل الجمعى .

وإذا كان دوسوسور قد اعتبر اللسان مجموعة من الصور اللفظية المختزنة فى الذهن الجماعى ، وأنها ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد ، على حين أن الكلام أمر فردى يكون المادة التى يبنى منها اللسان ، وذلك بنوع من الاتفاق الجماعى ، إلى آخر تلك الأفكار المستوحاة من مذهب دوسوسور عن (العقد الاجتماعى) ـ إذا كان هذا هو مذهب دوسوسور فإن تلميذه كان يرى أن هناك صراعا مستمراً بين الكلام الذى هو أمر فردى ، وبين اللسان .

وإذا صح أن اللسان أداة للتفاهم الجمعى فإن الكلام نشاط فردى لغوى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، وهو وحده الذى يعبر عن الواقعية والعاطفية ، بعكس اللسان الذى ليس سوى إمكانات تعبيرية[1] ، يعنى بمفهوم دوسوسور .

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٩ .

ولنأخذ على ذلك مثلا الكلمة (يضرب) ، فإن لها معنى قاموسيا هو إيقاع الضرب والأذى : أو السير فى الأرض جريا وراء أهداف معينة ، وهذا هو الوجود اللغوى للكلمة (يضرب) .

غير أن الفرد المتكلم يستعملها فى معان لا علاقة لها بالمعنى القاموسى ، ومن ذلك : التعبير (يضرب التليفون) ، أى : (يدير أرقامه) ؛ والتعبير (الحظ يضرب معاه) بمعنى (يحالفه) ، والتعبير : (يضرب ٥ × ٧) ، أى : (يضاعف الرقم [٥] سبع مرات) .. وكل هذه معان أحدثها تصرف الأفراد فى الكلمة خارج المعنى المعجمى .

وقد شبه اللغوى جسبرسن الكلمة اللغوية فى وجودها القاموسى بالعملة فى خزانة المصرف ، لها قوة التعامل ، ولكنها لا تمثل تفاعلا واقعيا ، أما الكلمة المنطوقة فى وجودها الكلامى فهى عملة نشيطة لها قوة شرائية واقعية ، ولذلك يحدث لها ما يحدث للنقود الكثيرة التداول فى أيدى الجماهير من تغيير وتبديل وتحريف ، ولكل هذا أثره على اللغة على مر الزمان[1] .

ويتعرض جسبرسن لآراء دوسوسور بالنقد ، فيوافقه أولا على أن للفرد تأثيره فى اللغة ، حين يجرى قياسا معينا ، فيؤثر بذلك على المفردات والصيغ ، ثم يشيع هذا التأثير فى نطاق الجماعة ، ولكنه يرى أن هذا الأمر ليس جديداً على التصور ، فإن علماء الاجتماع يرون أن جميع الأحداث

---

(١) السابق .

الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم يتسع نطاقها شيئا فشيئا إلى أن تصطبغ بالصبغة الجماعية .

وأما قوله بأن (الكلام من نتاج الأفراد على حين أن اللغة من نتاج المجتمع) ، فقول مردود . حيث إن الجماعة ليست سوى مجموعه من الأفراد ، ولا يمكن بحال أن نعتبرها شيئا آخر ، ودوسوسور فى هذا الرأى ناقل عن بعض علماء الاجتماع القائلين بوجود الجماعة وجودا يختلف عن وجود الأفراد ، وبأنه إذا صح أن يقال : إن للفرد (عقلا فرديا) فإن للجماعة كذلك (عقلا جماعيا) .

والحق أن العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، وأن ما نراه من اختلاف بين تصرف الفرد حين يكون وحده ، وحين يكون بين مجموعه من الأفراد — هو فى الحقيقه اختلاف ناتج عن الظروف التى تواجهه . كذلك لا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية قد تأثرت بظروف ودوافع متشابهه[1] .

وينتهى جسبرسن من نقده لدوسوسور إلى القول بأن علاقة اللسان بالكلام شبيهة بعلاقة معنى الكلمة التى فى صيغة الجمع بمعنى الكلمة التى فى صيغة المفرد ، فدلالة الكلمة (خراف) تتحدد علاقاتها بدلالة كلمة (خروف) فى أن معنى الأولى هو أنها تدل على (الخروف الأول)، و (الثانى)، و(الثالث)،

(١) ٢١ .

على التوالى ، واللسان كذلك هو كلام الفرد رقم (١) ، والفرد رقم (٢) ، والفرد رقم (٣) . . إلى آخره .

وإذن فليس اللسان فى حقيقة الأمر شيئا آخر غير الكلام ، بل هو الكلام فى ذاته ، ولكن باعتبار آخر . ومفردات اللسان هى جميع ما ينطق به كل أفراد الجماعة اللغوية من ألفاظ تختلف فى درجة شيوعها ، ومن أصوات، وكيفيات للنطق[١] .

على أن هذا النقد الذى وجهه جسبرسن لرأى دوسوسور لا يعنى أن رأى هذا الأخير قد انتهى ، الآن ، فمازال رأيه رغم كل شىء ذا قيمة منهجية ، إذ أنه فى كل بحث لغوى حديث ينبغى الفصل بين مستوى كلام الأفراد ومستوى لسان الجماعة ، وتبدو هذه الملاحظة جد خطيرة إذا ما لاحظنا المسافة التى تفصل بين العامية والفصحى فى العربية مثلا ، إذ هما تختلفان فى أمور كثيرة لا مفر من اعتبارها عند البحث ، فضلا عن أن بحوث علم اللغة لا تتجاهل حتى الفروق الفردية .

ثم إنه على فرض أن المسافة ضئيلة القدر بين العامية والفصحى فى لغة ما فإن من المبالغة أن يقال : إن مفردات اللسان هى جميع ما ينطق به كل أفراد الجماعة ـ على ماذهب إليه جسبرسن فمن المؤكد أن اللسان أكبر من الناحية القاموسية ، من مجموع مفردات الجماعة اللغوية ، فهذه الجماعة لا تستعمل من المفردات المودعة فى القواميس إلا نسبة ضئيلة ، لا تتجاوز ٥٪ من مجموع المواد ، ولو اقتصر نظرنا إلى اللسان على هذه الكمية المحدودة لفقدنا جوهر المشكلة ، لأن اللسان قبل أن يكون ملكا للجماعة ـ هو ملك لأجيال التاريخ

---

(١) السابق ٢٤ ـ ٢٥ .

على امتداده ، وهذا هو السر فى زيادة رصيد اللسان من المفردات على ما تستعمله الجماعه فعلا ، ومع ملاحظة أن القدر المستعمل يختلف من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان .

وعلى أى حال فليس من المقبول أن نفصل فصلا صارما بين اللسان والكلام ، كما أنه ليس من صواب المنهج أن ندمجهما إدماجا تاما ، فإن دراسة الكلام تفيد اللسان ، كما أن دراسة اللسان تفيد الكلام ، وخير لنا أن نتناولهما بمنهج متكامل يبرز لأعيننا الحقيقة اللغوية كما ينبغى تناولها .

مكان الكتابة فى أحداث اللغة

وضح إذن من تحديد دوسوسور لمعنى اللغة أنها تشمل كل وسائل التفاهم والاتصال الإنسانى ، بما فى ذلك الأصوات اللغوية ، والإشارات ، وتسجيل الأصوات فى رموز كتابية ، أو فى صور موحية .

ولقد عرفت الإنسانية طرقا عدة لتسجيل أفكارها مستخدمة الألوان والخطوط . فكانت المحاولة الأولى للكتابة على عهــــد قدماء المصريين ، وكان دافعهم إلى اختراع الكتابة حرصهم على إبقاء أفكارهم مدة أطول من الزمان ، من جهة ، وحرصهم أيضاً على نقل أفكارهم إلى أماكن أبعد من مواطنهم ، من جهة أخرى .

ولا شك أن الكتابة كفيلة بتحقيق هذين الهدفين ، بعكس الكلام المنطوق الذى يتلاشى عقب صدوره من فم صاحبه .

وربما كان موقف الكاتب المصرى القديم لا يختلف كثيراً عن موقف فنان يريد تسجيل خواطره ، فهو يرسم تفاصيل منظر طبيعى ، أو يستلهم من مشاهداته فكرة للوحة معبرة ، ومن جزئيات اللوحة ، ومن مجموعها يقرأ الناظر أفكار الفنان ، ويتعمق فى أسرار نفسه .

وهكذا كان موقف الكاتب المصرى القديم حين أراد أن يعبر عن أفكاره ، مع اختلاف الظروف الحضارية التى عاشها الفنان القديم ، فهو من هذه الناحية أعظم إبداعاً من أى فنان معاصر ، لقد كان يحاول ابتداء أن يوجد شيئاً لا سابقة له ، وأن يخترع طريقة لتسجيل الأفكار ، فهــــداه تفكيره إلى التعامل مع الأشياء جملة ، فإذا أراد أن يعبر عن حيوان معين

مثلا رسم صورته ، وحين شاعت هذه الطريقة ، وتعارف الناس على استعمالها ، بدأ يفكر فى تطوير وسيلته لتسجيل موجودات أخرى لاصورة لها فى الطبيعة . فهو يرسم فكرة الحرب ، والسلام ، من خلال رسم لوازم الحرب ولوازم السلام ، ولكنه كان فى كلتا الحالين يتعامل مع موضوع الكتابة بطريقة إجمالية ومباشرة ، فهو يرسم (البقرة) مثـــلا لأنه يريد تسجيلها هى ، واستحضار صورتها عند الضرورة ، دون أن يتعلق غرضه برسم اسمها ، أو بالتعرف إلى حروف هذا الاسم ، فلم يكن تحليل الأصوات ، ووضع رموز لها — من معارف البشرية آنذاك ، رغم أن ارتباط الاسم بالمسمى أمر مقرر فى كل لسان أو عرف لغوى . ولقد مرت الكتابة بعـــد ذلك فى أطوار متعددة إلى أن انتهت إلى استخدام الرمز للصوت المفرد منفصلا عما عداه من الأصوات ، ودون أن يرتبط بالمسمى ، أو بصورته . يقول الأستاذ حفنى ناصف : « والتحقيق أن الخط من وضع البشر ، وأنه لم يصل إلى ماهو عليه الآن إلا بعد أن قطع أربعة أدوار :

الأول : الدور الصورى المادى .

الثانى : « « المعنوى .

الثالث : « « الحرفى .

الرابع : « الحرفى الصرف .

وذلك أن الناس فى أول الأمر كانوا يرسمون صور الماديات للدلالة عليها ، فإذا أرادوا أن يدلوا على معنى الأسد رسموا صورة أسد وإذا قصدوا الدلالة على معنى النخل رسموا صورة نخلة ، وإذا راموا الدلالة على معنى المعبد ، رسموا صورة معبد ، وهلم جرا . . . ولكن الكتابة بهذه الطريقة ناقصة ،

لأن من المدلولات مالا صورة له مادية ، كالخوف والحزن والفرح ، فبدا لهم بعد زمن أن يدلوا على المعانى التى لاصور لها بصور لوازمها كأن يرسموا الدواة والقلم للدلالة على معنى الكتابة ، والشعر المسدول للدلالة على الحزن ، وضخامة الجسم للدلالة على غنى صاحبه . . . . ثم ترقوا إلى الدور الحرفى بواسطة الصور ، فاصطلحوا على استعمال صور للدلالة على الحروف التى فى صور أسمائها .... ثم اختصروا تلك الصور مع مرور الأيام . حتى صارت علامات لاتدل إلا على أصوات الحروف ، كما هو الشأن الآن[1] .

ويخلص حفنى ناصف من هذا التصوير السريع لمراحل الكتابة الإنسانية إلى القول بأن أقدم حلقة معروفة فى سلسلة التطور التاريخى للكتابة هم أهل مصر ، وبعدهم الفينيقيون ، ويليهم الآراميون وأصحاب المسند ، وقد وصل هذا الخط من اليمن والآراميين ، إلى الحيرة والأنبار ، ومنهما جاء لأهل الحجاز ، حيث انتشر فى صورة الخط العربى .

وبهذا يربط المؤلف وجود الخط العربى بحركة التاريخ الإنسانى فى هذا الاتجاه .

إن الذى ينظر الآن إلى استعمال الخط فى تسجيل اللسان ، ويسر هذا الاستعمال مع كثرة اللغات والرموز المستخدمة فى كتابتها بصورة هائلة — قد لايذهب ذهنه إلى هذه البداية العجيبة للنشاط الإنسانى فى اختراع الكتابة ، ولعله لايتصور أن هذه المهارة الإنسانية التى أصبحت فيصلا بين الجهل والعلم ، وبين الرقى والانحطاط ، بل لقد أصبحت مقياس الحضارة والتقدم فى عصرنا ـ كانت فى أصل نشأتها فيصلا بين السحرة وغيرهم من العامة ، فقد حملت

---

(١) تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية ـ الكتاب الأول ص ٣٠ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٠٨ .

الـكتابة هذه الصفة ردحاً طويلا من الزمن ، فـكانت رقى وتماويذ سحرية يظن الناس أن لها فاعلية النجاح أو الشفاء أو الضرر ، وكان كتاب تلك العصور من السحرة ، ولبست معظم الـكتابات ثوباً دينياً خالصاً [١] .

ومن المؤكد أن أكثر الـكتاب فى العصر القديم كانوا فنانين يجيدون الرسم ، والنقش ، والحفر ، كما كانوا يتمتعون بخيال واسع ، مكنهم من تطوير الـكتابة ، كأداة للتعبير ، إلى جانب كونها وسيلة للتسجيل ، لقد كان الرمز فى بدايته محدود المعنى أو المدلول ، ولـكنه بعـــد حين أصبح متعدد المعنى ، وهو تطور لوظيفة الـكتابة ، أو لقيمة الرمز فى إطار الحقيقة والمجاز ، فصورة قرص الشمس كانت فى البداية تعنى الشمس ، ولـكنها بعد حين أصبحت تدل على النور ، والبريق ، والنهار ، وصورة العين كانت تدل على النظر ، ولـكنها بعد حين دلت على السهر وعلى العلم ، أى أن العلامة الصورية قد حملت عدة مدلولات ذات أصوات مختلفة ، وهى مرحلة كانت ضرورية لإعادة النظر فى توحيد مدلول الرمز أو العلامة ، ليرتبط بقيمة صوتية واحدة ، وبذلك تصبح الـكتابة حرفية بدلا من كونها صورية معنوية ، ولعل الـكتابة العربية قد احتفظت بأثر من آثار هذه المرحلة التى ارتبط خلالها الرمز الـكتابى بالصورة المادية ، وذلك فى رسم رمز (ع) ، فهو صورة حقيقية للعين الباصرة ، وهو أيضاً يحمل اسمها . والعجيب أن هذه الصورة ، تقريباً ، هى صورة العين فى كل الخطوط القديمة ، وربما كان ذلك حتى عصر الـكتابة الهيروغليفية ، أقدم الـكتابات الإنسانية على الإطلاق.

---

(١) مجلة عالم الفـكر ـ المجلد الثانى ـ العدد الثالث ـ دكتور عبد الحميد زايد ـ ص ٧٨٥

ويعتبر انفصال الكتابة عن الدلالة اللغوية أخطر تطور [illegible] ن ، حرره من الخضوع لافتنان الأفراد ، وخلع عليه قيمة موضوعية ثابتة ، حين ارتبط الرمز بالصوت ، مهما كانت دلالته رفيعة أو وضيعة ، وانفصل عن الصورة والمعنى .

غير أن هذه الرموز التى أصبحت تمثيلا للأصوات المنطوقة قد خضعت فى استعمال الكتاب لنوع من التنظيم الذى فرض نفسه بفعل التطور عبر القرون ، فقوم يرون أن الكتابة لابد أن تسجل كل الأصوات المنطوقة ، وآخرون يرون أن الكتابة رمز ، وطبيعة الرمز الاختصار ، والاعتماد على الذكاء . وهكذا نشأ نظامان فى الكتابة الإنسانية :

١ — النظام المصرى السامى الفينيقى العربى ، الذى يكتفى بتسجيل الصوامت دون الحركات

٢ — النظام الإغريقى ألذى اقتبس النظام السابق ، وأضاف إليه الحركات ، وبذلك تكون اللغة الإنسانية قد اتخذت طريقين فى علاقتها بالكتابة .

ولقد يتجلى هذان النظامان حين نرى كلمة واحدة مكتوبة على كلتا الطريقتين ، فى مثل اللفظة : (كتب) بالنظام السامى الأول ، و Kataba بالنظام الإغريقى الثانى .

فالطريقة الأولى تكتفى بثلاثة رموز هى رموز الصوامت ، وتترك رموز الحركات لتقدير القارىء ، على ما يقتضيه السياق ، وأما الطريقة الثانية فهى

لا تدع شيئا لتقدير القارىء ، بل تضع تحت عينيه كل العناصر النطقية ، من صوامت وحركات ، وما عليه إلا أن ينطق ما يجد أمام ناظريه .

ولقد يبدو من السذاجة أن نفضل أحد النظامين على الآخر ، فكل منهما منهاج سار على دربه جماعات وشعوب كثيرة فى مراحل التاريخ المختلفة، وربما فيما قبل التاريخ ، ومن الخطأ أن نصدر من موقعنا الزمنى حكما على نظام اكتملت عناصره عبر الأجيال ، وأصبح قادرا على أداء القيمة اللغوية المنوطة به دون إخلال .

غير أن من الضرورى أن نشير إلى أن لكل منهما محاسنه وعيوبه ، التى تظهر لأول وهلة ، فإذا كان النظام الإغريقى يقدم الحدث اللغوى بعناصره المختلفة شبة كامل ، فإنه لا يترك للذهن الإنسانى فرصة لمحاولة التدخل فى اختيار الصيغة المناسبة للسياق كما هى الحال فى النظام السامى ، وهو عيب غير جوهرى فى نظرنا .

وإذا كان النظام السامى قد وفى هذا الاعتبار باقتصاره على الصوامت ، وهو طابع يحقق اقتصاداً كبيرا فى استخدام الرموز فإنه قد تعرض لحالات من الاختلال والتحريف نتيجة هذا الاختصار الذى يبدو أحيانا مخلا، ولاسيما إذا كان القارىء ذا قدر محدود من الذكاء وحسن التقدير .

والعيب المشترك بين النظامين يمكن أن نثبته فى ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : أن هناك فرقا كبيرا بين الحدث اللغوى المنطوق ، وصورته المكتوبة ، فلا شك أننا ننطق من الأصوات أضعاف الرموز الكتابية ، فكأن رموز الكتابة على أية حال ـ مجرد إشارة موجزة جدا

إلى الأصل المنطوق فعلا ، وهذا الحديث يشير فى بعض تطبيقاته إلى الخاصة الفونيمية للكتابة اللغوية .

فالرمز الكتابى هو دلالة مرسومة على مجموعة من الأصوات المنتمية إلى فونيم واحد ، أو وحدة صوتية واحدة ، ومن أمثلة ذلك أن رمز (ن) هو رسم يشير إلى قيمة صوتية تتخذ أشكالا متعددة فى اللسان العربى ، بحسب السياقات التى تتضمن صوت (النون) ، فقد تكون النون شفوية إذا وقعت بعدها مباشرة (باء) فى مثل : عنبر ، فتنطق (عمبر) ، وترسم (عنبر) .

وقد تكون النون شفوية أسنانية إذا وقعت بعدها مباشرة (فاء) مثل (أنف) ، وتنطق النون بوضع الشفة عند الثنايا العليا ، مع ذلك لا يتغير رمزها الكتابى ، وهكذا لو تتبعنا حالات النون مع ما يليها مباشرة من الأصوات كالجيم ، والكاف ، والقاف ، ومع ذلك فإن رمزها الكتابى لا يتغير ، ومع ملاحظة أن النون المجردة هى نون أسنانية لثوية ، وكذلك الحال فى صوت الجيم الذى يرسم بصورة واحدة ، وينطق بصور متعددة .

ومن هذه الصور ما يسمى بالجيم الفصحى التى يختلف علم الأصوات فى تحديد ماهيتها ، وهل هى الجيم القاهرية ، أم هى الجيم المركبة (المعطشة) ، أم أنها كانت تنطق بصورة قريبة من هذين ، فيكون دورها هو تحديد الصورة التقريبية التى ربما كان العرب قديما ينطقونها ؟ — كل ذلك من باب الافتراض ، وإن دل الرمز الواحد على هذه الأشكال جميعا .

وهناك رمز كتابى يدل على صوت السين (س) ، ورمز آخر يدل على

صوت الصاد (ص) ، ولكن بعض الصيغ يقتضى رسم صوت الصاد برمز السين فى مثل (مسيطر) التى تنطق (مصيطر) ، وقد لجأ الرسم القرآنى إلى استخدام الصاد أحياناً فى هذه الكلمة ، وفى كلمة (بسطة) التى قد تكتب (بصطة) .

ولا ريب أن انطباق الرمز الكتابى على الرمز الصوتى هو أمل لكل لغوى ، ولكن محاولات اللغويين لا يمكن أن تحققه إلا فى حدود الدراسة العلمية ، فى إطار ما يسمى بالكتابة الفونولوجية .

يقول دوسوسور فى هذا الصدد : « يريد اللغوى أن يجد بين يديه قبل كل شىء وسيلة لتمثيل الأصوات المنطوقة التى تنفى كل غموض ، والواقع أن هناك نظما كتابية لا تحصى قد اقترحت ، فماذا تكون مبادىء كتابة فونولوجية حقة ؟

إنها يجب أن تستهدف تمثيل كل عنصر فى السلسلة المنطوقة برمز مستقل ، ولكن أحداً لم يلتزم دائما بهذا الهدف ، فمثلا نجد أن فقهاء اللغة الانجليز ، المهتمين بالتصنيف أكثر من التحليل ، يستخدمون لبعض الأصوات رموزا مركبة من حرفين أو ثلاثة أحرف ، وفضلا عن ذلك فإن التفرقة بين الأصوات الانفجارية ، وبين الأصوات الاحتباسية يجب أن تتم بصورة دقيقة ، وهو ما أكدناه دائما .

فهل هناك فرصة لنستعمل أبجدية فونولوجية فى مكان الكتابة العرفية؟ إن هذا السؤال الهام سرعان ما يتحول إلى هباء ، ذلك أننا نرى أن الكتابة الفونولوجية يجب أن تبقى فى خدمة اللغويين وحدهم ، إذ كيف نطبق نظاما موحدا للكتابة على الانجليز ، والألمان ، والفرنسيين ... إلخ ... ؟

وبرغم هذا فإن أية أبجدية تصلح للتطبيق على جميع اللغات توشك أن تصير مكتظة برموز الضبط ، فإذا تجاوزنا فى حديثنا الشكل المحزن الذى

قد تبدو به صفحة فى نص من هذا القبيل ـ فإن من الواضح أن الحرص على التحديد سوف يجعل هذه الكتابة تطمس ما تريد إيضاحه ، وبذلك تضلل القارىء .

وهذه العيوب لن يقابلها على الناحية الأخرى ميزات كافية ، ولذلك نرى أن الدقة الفونولوجية غير مرغوب فيها خارج نطاق العلم .

وهناك أيضا مسألة القراءة ، فنحن نقرأ بطريقتين : فالكلمة الجديدة أو المجهولة يتهجاها القارىء حرفا بعد حرف ، ولكن الكلمة المستعملة والمألوفة تحتويها عيناه من أول وهلة ، بصرف النظر عن الحروف التى تؤلفها ، ذلك أن صورة هذه الكلمة تكتسب لدينا قيمة كتابية فكرية Idéographique وهنا يمكن للإملاء التقليدى أن يؤمن للكلمة حقوقها .

إن كل ما نتمناه هو أن نرى الكتابة المستعملة وقد تخلصت من عيوبها الكبيرة ، وإذا كان من المفيد فى مجال تعليم اللغات أن نستخدم أبجدية فونولوجية ، فليس من الممكن مطلقا تعميم استعمالها[1] .

وحديث دوسوسور واضح كل الوضوح ، فهو يرفض كل الرفض أن يحاول اللغويون إحلال نظام كتابى محل نظام آخر ، على سبيل الإصلاح ، وإن لم يستبعد إدخال بعض الإصلاحات الجزئية على النظم العرفية للتخلص من عيوبها الكبيرة .

وهذا الحديث من دوسوسور يصلح أيضاً لنذيل به الجانبين الآخرين اللذين يسجلان نقص النظام الكتابى العرفى سواء كان مصريا ساميا أم إغريقياً أوربيا .

---

(١) دوسوسور : Cours de Linguistique générale ـ ص ٦٠،٧٥

الجانب الثانى : أن اللغة فى حركة مستمرة ، وأن الصور النطقية التى كان السلف ينطقونها تتطور دائما فى اتجاه معين يعرفه اللغويون ، ولما كانت الصورة الكتابية ثابتة مستقرة على حين تتغير دائما الصورة النطقية — فإن المسافة تتسع بينهما دائما بمرور الزمن ، وبخاصة فى اللغات التى لاتتمسك كثيراً بماضيها ، كاللغات الأوربية ، أما اللغة العربية فقد نجد أثر الزمن ضعيفاً فى هذا الجانب نتيجة وجود القرآن الكريم ، ومن أمثلة التطور فى العربية تحول المقطع ay إلى حركة ممالة طويلة فى مثل : (بَيْت) التى صارت تنطق : (بيت) ، بالكسرة الممالة الطويلة (beet) ، وتحول المقطع aw إلى ضمة ممالة طويلة فى مثل : (قَوْم) التى تنطق (qoom) . فالنطق قد تغير بمرور الزمن ، ولكن الصورة الكتابية هى هى ، رغم اختلاف النطق عنها بصورة جوهرية .

والمهم أن الكتابة ليست هنا سوى رمز تذكارى لما كان عليه السلف فى نطقهم . ولكنه لايعبر عن النطق الواقعى إلا بواسطة السياق أو القرينة التى تعين على تحديد الصورة المقصودة من الرسم الكتابى ، ومهمة القرينة هى تفسير المراد من الرمز الكتابى .

ولو أننا انتقلنا إلى الرسم المصحفى فى القرآن ، فسوف نجد أن الرسم لايمثل بذاته القيمة النطقية أحياناً ، فكلمات مثل : (الصلوة ، والزكوة ، والمشكوة) لايمكن أداؤها من واقع الكتابة أداء صحيحاً ، بل لابد من تلقى النطق الصحيح من فم المقرىء ، وهو ما أوصى به العلماء دائما : (لاتأخذ العلم من صحفى ، ولا القرآن من مصحفى) .

ولذلك يرفض دوسوسور شهادة الكتابة على الواقع اللغوى ، ويرى

أن الكتابة العرفية كثيراً ماتقود إلى الخطأ والضلال ، وأنه لا يعصم من هذا الضلال إلا أن تكون الكتابة مفسرة ، محددا المراد منها بوساطة ماقدمه المعاصرون لها من شروح وأوصاف .

ولنقرأ الآن ما كتبه دوسوسور فى هذا الصدد ، قال: « من الخطأ إذن أن نعتقد — بعد أن تبينا الطابع المضلل للكتابة — أن يكون أول شىء نفعله هو أن نصلح الإملاء ، إن الفائدة الحقيقية التى يسديها إلينـا علم الفونولوجى هى أنه يسمح لنا باتخاذ بعض المواقف فى مواجهة هذه الصيغة المكتوبة التى ينبغى أن نمر بها لنصل إلى اللغة ، فشهادة الكتابة لا قيمة لهـا إلا أن تكون مفسرة ، أى : أننا أمام كل حالة يجب أن ننصب النظام الفونولوجى للغة المدروسة ، أعنى : قائمة الأصوات التى تستعملها . والحق أن كل لسان يعتمد على عدد محدود من الفونيمات المتنوعة ، وهذا النظام هو الواقع الوحيد الذى يهم اللغوى ، وليست الرموز الكتابية فى هذا النظام سوى صورة ينبغى تحديد ملامحها ، وتختلف صعوبة هذا التحديد باختلاف اللغات ، واختلاف الظروف .

فإذا كان الأمر يتعلق بلسان ينتمى إلى الماضى فإننا نقتصر فيه على معطيات غير مباشرة ، فما هى حينئذ المصادر التى نستخدمها لإقرار هذا النظام الفونولوجى ؟ .

أولا : هناك الأدلة الخارجية ، وهى قبل كل شىء شهادة المعاصرين الذين وصفوا الأصوات ، كما وصفوا نطق عصورهم . بيد أن هذا المصدر للمعلومات ضعف الثبوت ، لأن هؤلاء المؤلفين لم يكن لديهم أى منهج فونولوجى ، فجاءت أوصافهم بمصطلحات اتفاقية ، دون دقة علمية ،

ولذلك فإن شهادتهم تحتاج أيضاً إلى تفسير . . . .

ثانياً : وهناك أيضاً الأدلة الداخلية المستقاة من قياسية التطورات الصوتية ، فإذا كان مطلوباً تحديد قيمة حرف معين (مكتوب) فمن الضرورى أن نعرف كيف كان الصوت الذى يمثله ينطق فى عصر مضى ، وقيمته الحالية [كما نجد فى العربية الفرق بين نطق الضاد أو الطاء ـ القديم ، ونطقهما الحديث] .

وقد تستقى أيضاً هذه الأدلة الداخلية من تنوع رسم الكلمة عبر العصور ، [كالخلاف بين الإملاء القديم فى المصحف ، والإملاء الحديث] ، كذلك تعتبر نصوص الشعر وثائق ثمينة فى معرفة النطق ، فتبعا للنظام الذى يقوم عليه نسيج الشعر ، من عدد المقاطع ، أو الكمية ، أو تطابق الأصوات فى الجناس والسجع والقافية — هذه الآثار تقدم لنا معلومات عن هذه النقاط المختلفة . . . الخ . . . الخ . . .[1]

مامعنى هذا كله ؟ . . .

معناه أن دوسوسور يرى أن الكتابة لا يمكن أن تستقل بأداء الدلالة الكاملة للقيم الصوتية أو النطقية التى كانت للغة ما ، بل لابد من اللجوء إلى القرائن الأخرى لتحديد المقصود بالرمز المكتوب ، وإزالة ما يشوبه من غموض .

الجانب الثالث : أن تطور اللغة من عصر إلى عصر قد ترتب عليه ترسب صور كتابية تحتوى عناصر مكتوبة لاتنطق ، أو هى تنطق على

(١) المرجع السابق ص ٥٦ وما بعدها .

خلاف مرسومها ، وفى العربية من هذا القبيل شىء كثير ، فسقوط الألف من رسم اسم الإشارة (هذا) هو مما ورثته الكتابة الحديثة عن الكتابة القديمة ، وإثبات الألف الفارقة بين واو الجمع المتصلة بالفعل فى مثل (كتبوا) وعدم وجودها فى مثل (يرجو) ، هو أيضاً من المواريث الكتابية ، والفرق بين همزة الوصل والقطع فى الكتابة هو فرق موروث ، وإن كان له مايسوغه ، إلا فى رسم عبارة : (بسم الله) ، وهى فاشية على جميع الأقلام ، ومأخوذة من كتابة القرآن .

ويعتبر الرسم المصحفى فى هـذا الجانب نموذجاً للظواهر الكتابية الموروثة ، التى يجب التزامها التزاما خاصا بالمصحف ، صونا له من التغيير ، أو التحريف ، وهو هدف جدير بالحرص والاحترام .

ومن أمثلته :

الرسم المصحفى	الرسم الحديث	الرسم المصحفى	الرسم الحديث
الصلوة	الصلاة	الأمين	الأميين
الزكوة	الزكاة	الحوارين	الحواريين
الحيوة	الحياة	الغاون	الغاوون
العلمؤا	العلماء	يبنؤم	يابن أم
الضعفؤا	الضعفاء	لسحران	لساحران

وقد تكون الظواهر غير القياسية فى الكتابة ناشئة منذ الرسم المصحفى ، ولكن الإملاء الحديث قد التزمها ، كما مضى فى أمثلة اسم الاشارة : (هـذا - هذه — هؤلاء — أولئك) وكما فى رسم أداة الاستدراك (لكن) ، وكل ذلك ينطق بألف ، ولكنه لايرسم بها ، ومن هذا

القبيل كلمة (داود) ترسم بواو واحدة ، وتنطق بواوين .

ولقد يختلف تعامل الكتابة مع الكلمة باختلاف علاقتها بما بعدها ، فالأفعال المعتلة بالألف مثل (رمى — سعى — يسعى — يخشى) والكلمات مثل (ذكرى — صغرى — كبرى) ترسم جميعها بالياء ، وإن كانت تنطق ألفا ، فإذا اتصلت هذه الصيغ بضمير مضاف أو مفعول به مثلا — رسمت بالألف هكذا : (رماه — يخشاه — ذكراه — صغراه — كبراه ... إلخ ..) . ولذلك كله قواعد يعرفها أهل الإملاء . وكثيراً ما حاول المجمع اللغوى العربى تبسيط قواعد الرسم ، والتقريب بينها وبين النطق ، ولكن ذلك لا يمنع من الإبقاء على بعض الصور الكتابية لمجرد الاتباع .

وليس هذا الاختلاف فى كتابة بعض الكلمات فى رسمنا الحديث عنه لدى أجيال السلف — بغريب ، ولا هو مقتصر على اللغة العربية ، فقد تكون العربية أقل من الفرنسية فى هذا ، ومن الإنجليزية أيضاً .

وحسبنا أن ننقل هنا حديث اللغوى أوتوجسبرسن فى كتابة **Essential: of Eng. Grammar** قال : « إن الطريقة التقليدية لكتابة اللغة الإنجليزية أبعد ما تكون عن الاتساق والثبات ، فمعرفتنا بأصوات الكلمة لا تساعد على تهجيها ، والعكس صحيح ، إذ لا نستطيع نطق الكلمة إذا عرفنا هجاءها . ويضرب لذلك الأمثلة التالية :

(٢)	(١)
low	Though
true	Through
now	Plough
off	Cough
cuff	Enough

تشترك كلمات المجموعة الأولى فى الحروف الأربعة الأخيرة من كل منها، ولكن هذه الحروف تنطق فى كل منها بطريقة مختلفة تماما ، فالحرفان الأخيران (gh) فى الكلمات الثلاثة الأولى ـ صامتان ، أما فى الكلمتين الأخيرتين فينطقان كما ينطق الحرف (F) . أما الحركتان (Ou) فإنهما تنطقان فى كل كلمة بطريقة مختلفة ، تشبه طريقة نطقهما فى الكلمة المقابلة فى المجموعة الثانية ... ويرجع جسبرسن أسباب هذه الفوضى الصوتية والإملائية إلى عوامل تاريخية ، كما يرجعه إلى تغير الأشكال الصوتية المستمر للكلمات ، ويعنى بذلك بقاء الأشكال المكتوبة للكلمات المنقرضة صوتيا ، بعد موتها بزمان طويل»[1] .

وإذن فالعربية ليست بدعا بين اللغات الحية ، حين يختلف رسم بعض كلماتها القديم عن رسمها الحديث ، فذلك بالعكس شأن اللغات ذات التاريخ والأصالة .

* * *

فإذا أضفنا إلى هذه الجوانب الثلاثة عجز الكتابة المطلق عن تسجيل مجموعة من الظواهر النطقية العامة ، كالنبر ، والتنغيم فى حالات الاستفهام ، والنفى ، والإنكار ، والتعجب ، والتحسر ، وهى وظائف ذات دلالة مباشرة فى الحديث اللغوى . أدركنا إلى أى حد تمثل الكتابة اللسان بكل خصائصه ، وهو فى تقديرنا تمثيل ضئيل ، يختلف قلة وكثرة بين اللغة المعاصرة واللغة

---

(١) نقلا عن نسخة خاصة من بحث للدكتور داود السيد حلمى عن المعجم الإنجليزى .

التاريخية التى تتمثل فى مؤلفات القدماء فقط .

يقول أنطوان مييه : « إن معظم الاختلافات فى النطق التى تتميز بها الجهات المختلفة ، والطبقات الاجتماعية المتباينة ، لا تظهر فى الكتابة . . . والكتابة لا تملك ما يملكه المتكلمون من مناسبة ، وحركات ، ونغمة فى الصوت توضح الكلام الملفوظ . . . ونحن نكوّن فكرة خاطئة عن لغة ملفوظة عندما نحكم عليها بصيغتها المكتوبة فقط . . . فاللغة المكتوبة كثيراً ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة[1] . . . إلخ . » .

إلى هذا الحد بلغ تصور اللغويين للمسافة التى تفصل الكتابة عن موضوعها ، وهو ما يمكن تلخيصه فى أن اللغة وجوداً داخلياً فى الفكر ذا طبيعة رحبة ومرنة .

فإذا انتقلت هذه اللغة الفكرية إلى مستوى اللغة الصوتية المنطوقة تحققت بصورة مضغوطة، لعجز الأصوات والكلمات والتراكيب عن استيعاب كل ما يدور فى لغة الفكر الداخلية وأدائه بصورة دقيقة ، فإذا انتقلت اللغة المنطوقة إلى مستوى اللغة المكتوبة كان ذلك أشبه شىء بالاختزال ، إذ أن الرموز الكتابية عاجزة فى كل حال عن أداء كل العناصر النطقية كما سبق أن ذكرنا ، فهى مجرد رمز إلى كيان مختصر أيضاً ، أو هى كما سبق ذكره : رموز الرموز :

وهذا بالنسبة إلى اللغة المعاصرة ، التى نستطيع إدراك محتواها بالخبرة

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة — مترجم عن الأستاذين مانسون ومييه — ترجمة الدكتور محمد مندور ٤٥٤ .

وبالعيان ، فما بالنا بالنصوص المكتوبة منذ قرون ، ولم نشهد أصحابها ، ولا خبرنا طريقتهم فى الكلام ؟ !

كل ذلك يكشف لنا حقيقة مقررة إذن ، هى أن الدراسة التاريخية للغة لا يمكن فى أغلب الأحوال أن تصل إلى نتائج أو أحكام قاطعة ، لأنها لا تملك سوى عينة ، لا تمثل أكثر من عشرة فى المائة من الواقع اللغوى الذى تعبر عنه ، وتنتمى إليه .

وقد يدعم هذا القدر وجود دراسات وصفية للغة التاريخية ، فى الأصوات ، أو الأداء ، أو المفردات ، أو التراكيب ، كما هى الحال فى لغة القرآن ، وتلك حالة خاصة جدا ، لا تقاس عليها أية دراسة تاريخية فى أية لغة من لغات الإنسان .

النظريات المختلفة فى أصل اللغة

لقد تناول العلماء هذه القضية حين تساءلوا عن ماهية اللغة : أمواضعة هى أم إلهام ؟ ويعنون بالمواضعة : أنها اصطلاح بين الناطقين بها ، ويعنون بالإلهام ما يقصد من عبارة : الوحى والتنزيل ، وقد جاءت فى ذلك عدة نظريات لتفسير نشأة اللغة عند الإنسان ، نعرضها هنا باختصار :

النظرية الأولى :

ويذكر ابن جنى أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى وتوقيف . ثم يقول : إلا أن أبا على (يقصد أستاذه أبا على الفارسى) قال لى يوما : هى من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : « وعلم آدم الأسماء كلها »[1] ، فكأن ابن جنى متردد بين اعتبارها عرفا ومواضعة ، واعتبارها وحيا وتوقيفاً ، ولكنه إلى الرأى الأول أميل ، لولا أن أستاذه قال بالرأى الآخر .

وليس القول بأنها (توقيف) أو وحى من عند الله هو رأى أبى على الفارسى وحده ،وإنما وجدناه عند من هو أقدم منه ، وهو أبو عثمان الجاحظ، حيث قال بأن الله سبحانه أنطق نبيه إسماعيل بالعربية ، دون سابق تمهيد أو تعليم ، ونص كلامه : « وقد جعل الله إسماعيل ، وهو ابن أعجمَيْن ،عربياً، لأن الله لما فتق لَهَاتَه بالعربية المبنية على غير التلقين و الترتيب ، وفطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ،

(١) الخصائص ١/٤٠ — ٤٨ .

ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، وصار أحق بهذا النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب »[1] .

فاللغة العربية هنا هى وحى من عند الله ، لتكون معجزة ، ودليلا على نبوة إسماعيل ، وهذا التصوير الميتافيزيقى العجيب . من رجل كالجاحظ ، هو الذى يعكس لنا تفكير القدماء فى نشأة اللغة أصلا ،حيث كانوا يعتقدون أن ذلك التكوين الغريب المذهل (اللغة) لا يمكن أن يكون نتيجة صنع الإنسان ، فمن المؤكد أن الإنسان آنذاك لم يكن جديراً - فى نظرهم - بأن يخلع عليه هذا الشرف ، وذلك لنقص فكرتهم عن كفاح الإنسان الذى عبر القرون ، مئاتها ، بل آلافها ، إذ كان التاريخ من بدايته عندهم لا يتعدى بضعة آلاف من السنين ، على حين تؤكد بحوث علم الإنسان ، وبحوث الجيولوجيا أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض لا يقل عمرها عن مليونين ونصف مليون من السنين .

هذا القول بأن (اللغة) وحى إلهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء - هو أول نظرية حاولت تفسير المشكلة ، وهى نظرية قديمة يرجع القول بها إلى الفيلسوف اليونانى : هيراقليط (توفى عام ٤٨٠ ق . م .)، وقال بها أيضا العالم المسلم الحسين بن فارس فى كتابة (الصاحبى) وهو من

---

(١) « مختارات فصول الجاحظ » مخطوطة مصورة فى خزانة الأمير موسيو كريمر النمساوى كتبت عام ١٨٧٧ ، دار الكتب رقم ٢٤٠٦٩ .

أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى ، كما قال بها فى العصور الحديثة الأب فرانسوا لامى (المتوفى عام ١٧١١م) فى كتابه : (فن الكلام)[١] .

النظرية الثانية :

وهى التى حاولت تفسير نشأة اللغة : بأنها مواضعة واتفاق بين الناطقين بها ، بحيث كان ارتجال الألفاظ أساساً فى بناء اللغة .وقد صور ابن جنى أيضا رأى أصحاب هذا الاتجاه فى قوله : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره . . .فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه وقالوا : إنسان . . إنسان . . فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد . . عين . . رأس . . قدم . . أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معنيها . . ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذى اسمه (إنسان) فليجعل مكانه : مرد ، والذى اسمه (رأس) فليجعل مكانه : سر ، وعلى هذا بقية الكلام . . . وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء ، كالنجار والصائغ ، ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء[٢]

مثل هذا التخيل لا يمكن أن ينهض تفسيرا لتلك الظاهرة الإنسانية العامة ، شديدة التعقيد ، على حين يحمل هذا الخيال فى طياته عناصر البساطة والسذاجة .

---

(١) نشأة اللغة عند الإنسان والطفل — للدكتور على عبد الواحد وافى — ٢٥ الطبعة الثانية .

(٢) الخصائص ١/٤٤ — ٤٥ وكلمتا (مرد وسر) هما فى الفارسية بمعنى (إنسان ورأس).

النظرية الثالثة :

وهى تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زوّد بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى . وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك ، حسى أو معنوى ، بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعى عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة ، مثل : (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء) كلما قامت به حالة انفعالية كالغضب ، والخوف ، والحزن ، والسرور ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ، ووظائفها ، وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات ، وتشابهت طرق التعبير عن الجماعات الإنسانية الأولى ، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة ، فأخذت فأخذت تنقرض شيئاً فشيئا[1] .

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات لجائية منعزلة عن الكلام أو التكلم الذى يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سابقة للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول ، أو حين يأبى الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات (الغرزية) يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها فى كلام البشر مثل أصوات اللين المهموسة ، والشهقات التى تنشأ مع دخول الهواء إلى الرئتين . ويشار إلى هذه النظرية بالتعبير : « pooh — pooh »[2] .

والنظرية الرابعة :

المتواردة على المشكلة هى القائلة بأن النشأة الأولى للغة لا تعدو أن تكون تقليداً للأصوات الطبيعية التى سمعها الإنسان الأول ،

(١) نشأة اللغة ٢٨ — ٢٩ .

(٢) دلالة الألفاظ — للدكتور إبراهيم أنيس — ص ٢٣ .

واتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلا اتخذ رمزا يعبر أو يدل على نفس الحيوان ، ويرمز إلى هذه النظرية بالتعبير (Bow-Wew) .

وقد سخر بعض النقاد من هذه النظرية حيث وصفوها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ،وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغرزية ، غير أن وراء هذه الأصوات — كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس — سوراً حصيناً عنده فى الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة .

وأنت حتى الآن ، إذا أردت التعبير عن أن المدرس صفع التلميذ (قلما) تقول : (طك أو طق) محاكيا بذلك صوت الكف وهو يصطدم بصفحة الوجه ، وقد تسمى الهرة : (نَوْ نَوْ) ، والكلب (هَوْ هَوْ) .

هذا النوع من الكلمات يطلقون عليه فى الدراسات اللغوية Onomatopoeia وهى الكلمات التى يلحظ فيها وثاقة الصلة بين الأصوات ومدلولها .

ومن الممكن اعتبار هذا الجانب من الكلمات بداية معقولة لنشأة اللغة ، لولا أن عدده قليل فى اللغات المختلفة ، بحيث لايكاد ينهض بتفسير هذه الظاهرة المعقدة .

وهناك نظرية ترى أن اللغة نشأت فى صورة رد فعل من الإنسان تجاه الأحداث الطبيعية المحيطة به ، وأخرى ترى أن اللغة نشأت بصورة جماعية ... إلخ[1].

نظرية جسبرسن :

أما أحدث الآراء فى تصور نشأة اللغة فهو ماذهب إليه فريق من اللغويين المحدثين ، وعلى رأسهم (جسبرسن) حين أسسوا نظريتهم على أسس ثلاثة :

(١) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال .

٢ — دراسة اللغة فى الأمم البدائية .

٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى .

فأما الأساس الأول فقد اهتم به العلماء ، وتابعوا نمو الطفل منذ يصبح جنيناً فى بطن أمه ، ووجدوا أن المراحل التى يمر بها فى هذه الفترة هى ذاتها المراحل التى مر بها الإنسان قبل أن تكتمل إنسانيته ، فقاسوا مراحل نمو لغة الطفل على مراحل نمو جسده ، وكان فى قياسهم هذا بعض الغلو ، لأن الظروف التى يعيشها الطفل الآن لا يمكن أن تقاس بما عاناه الإنسان من ظروف فى مراحله الأولى[1] .

إن الطفل فى تعلمه للغة لايتعدى عملية : التقليد للأصوات التى تصدر عن أبويه ، فهو يبدأ أولا بتقليد الأصوات تقليد عارياً عن الدلالة ، وبذلك يكتسب مرانا على بعض المقاطع التى يجد فى ترديدها لذة وسعادة ، وهى فى الوقت نفسه سهلة على جهازه النطق . وهو فى مزاولته هـذه العملية يكتسب عادة جديدة هى الربط بين الأصوات التى ينطقها ، وبعض المدلولات التى يتاح له إدراكها .

ولعل الطفل فى هذه المرحلة قد تميز تماما عن الإنسان الأول ، الذى لم يجد أمامه نمطا يقلده أو نموذجا يحتذيه .

ومع ذلك فإن الطفل — كما يقول الدكتور أنيس — يعتبر معينا فى

(١) السابق ٢٨ وما بعدها .

دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرت دراستنا على السنة الأولى من عمره، حين يناغى وينطق بأصوات مبهمة لاتهدف إلا إلى اللذة والمتعة .

وكلنا يشهد هذه المرحلة فى أطفال المنزل ، وهم يلعبون فى المهد فيستعملون جهاز نطقهم فى إنتاج بعض المقاطع الغريبة ، ويبدأ نطقهم منذ الساعات الأولى لولادتهم ، بأصوات يصعب تصويرها . وإن كانت قريبة من صوتى النون والغين ، ولعل هذا هو الذى جعل العربية تسمى هذه المرحلة(المناغاة) ، وليس من قبيل المصادفة أن تأتى (نغا) و (لغا) بمعنى الكلام ، فالنغوة : الكلمة ، والنغية : مايعجبك من صوت أو كلام ، وإنا لنميل إلى اعتبار هذه المادة أصلا تاريخيا لمادة (لغا) وكأن (لغة) أصلها (نغة) فى هذا التقدير .

ثم يتطور نمو الطفل اللغوى إلى النطق بأصوات متوالية متشابهة ، وهى غالبا صوت (الباء) : با با با با با . . وبعد قليل ينطق : ما ما ما ما ما . . هكذا يحدث فى جميع أطفال العالم ، وهو الذى جعل لهذين الصوتين دلالة لغوية مشتركة تقريبا بين جميع اللغات ، حيث يوجد صوت الباء فى الكلمة التى تعنى (الأب) ، وصوت الميم فى الكلمة التى تعنى (الأم) .

وقد تفرغت بحوث كثيرة لهذا النوع من الدراسة ، محاولة الكشف عن طبيعة المراحل الأولى فى نشأة اللغة الإنسانية ، ولكنها لم تبلغ حتى الآن ماهدفت إليه .

وقد اتجه اللغوى جسبرسن إلى تقسيم النمو اللغوى لدى الطفل إلى ثلاث مراحل :

١ — مرحلة الصياح . ٢ — مرحلة البأبأة .

٣ — مرحلة الكلام التى تنقسم إلى فترتين :

(أ) فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل .

(ب) فترة اللغة المشتركة ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع ، وتأثره به آخذا فى الازدياد شيئا فشيئا[1] .

والأساس الثانى : هو دراسة لغات الأمم البدائية ، ويرى الباحثون فى هذا الجانب أن لغات هذه الأمم تمثل مرحلة قديمة فى نمـــو اللغات وتطورها ، وهى لهذا تلقى ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان فى العصور السحيقة . ومقارنتها بلغات الأمم المتمدينة ترينا الطريق التى سلكتها اللغة فى تطورها .

غير أن مما لاشك فيه أن آلافا من السنين قد مرت على الإنسان قبل أن يبلغ هذا المستوى البدائى من اللغة[2] أى : أننا فى هذه المرحلة لم نبلغ ما كنا نأمله من إدراك صورة لبداية النشاط اللغوى لدى الإنسان الأول .

وربما كان الأساس الثالث هو أفضل هذه الأسس جميعا .وهو الدارسة التاريخية للتطور اللغوى ، وقد وجـه المحدثون كل جهودهم لهـذه الدراسة التاريخية ، ولـكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أى : أنهم بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات فى العصور الماضية ، من النصوص اللغوية ، والمستندات التاريخية ، وهم فى هذا البحث يعقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد للتطور اللغوى ، فمثلا يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها فى عصر شكسبير ، ثم فى عصر تشوسر ، ثم بالألمانية القديمة ،

---

(١) اللغة والمجتمع للدكتور محمود السعران ــ ص ٤١ ــ الطبعة الثانية .
(٢) دلالة الألفاظ السابق .

ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التى رويت عن اللغــــة السنسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارناتهم خلال العصور التاريخية التى رويت عنها نصوص لغوية . فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ماقبل التاريخ[1] .

ومن العلماء الذين برزوا فى هذا الميدان (جسبرسن) فى كتابه (اللغة وطبيعتها) Language, its nature و (مييه) الذى قدم لنا كتابه القيم : المنهج المقارن فى علم اللغة التاريخى Methode Comparatif en Linguistique historique .

ومن الواضح أن محاولات العلماء لم تبلغ هدفها حتى الآن ، حتى لنكاد نقول : إن البحث فى هـــذه المشكلة هو ضرب من ضروب المحاولات الميتافيزيقية التى لن يصل الإنسان فيها إلى شىء حقيقى ، وإن كان من الممكن أن نتخيل ـ كما فعل أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ـ صورة خيالية لنشأة اللغة .

وقد أبدع لنا الدكتور أنيس هذه الصورة الخيالية فى كتابه القيم عن (دلالة الألفاظ) فتصور الكلمات الإنسانية الناشئة : كثيرة المبنى ، قليلة المعنى ، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون ، ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب بألسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أى : أن اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع ، لايهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة .

---

(١) السابق .

ومن الغباء أن ننساق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلى من الكلام كان التفاهم وإيصال المعانى إلى السامع ، فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار عناية هؤلاء الفلاسفة، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعاطفة ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلفت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغنى غناء متواصلا ، لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى فى أثناء صيده ، وفى حربه ، وفى كل مايقوم به ، غناء لا كغنائنا ، يهدف إلى الطرب. أو يتضمن أصولا وقواعد، وإنما هو تصويت منسجم ، تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة ، وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل فى التعبير عن كل مايدور بخلد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامى كمثل التطور فى الكتابة ، حين بدأت تصويرية، قد يرمز فيها المرء بالصورة الواحدة إلى عبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيرا إلى الكتابة الهجائية ، التى يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، وهكذا الكلام ، بدأ فى صورة كتلية ، ثم تحللت الكتلة إلى عناصر، وهى التى نسميها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى ألفاظ ذات دلالات ومعان فنستطيع أن ندركه بسهولة ، حين نتذكر عمل الطفل ، وربطه بين مايسمع وبين مايشاهد من أحـــداث ، مما يؤدى فى آخر الأمر إلى فهمه لمدلولات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعيما امتاز بالقوة الجسمانية والجرأة ـ ينطق أمام ذويه بأصوات لايهدف من ورائها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انتصار على وحش مفترس ـ ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون مايسمعون ، ويكررون ترديده كلما تكرر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الألفاظ بمثابة علَمَ عليه ، ولايلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة .

ولدينا فى العصور الحديثة كثير من الأمثلة التى تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذى معنى كلى . فمن (الإله) نشأ (التأله)،ومن (الشيطان) جاء (التشيطن) . ومن (إبليس) نشأت (الأبلسة) ، وأصبح للأعلام : حاتم ، ونيرون ، دلالات كلية تستعمل فى لغات كثيرة .

فإذا فسرت الأسماء فى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام ــ ساير هذا التفسير أحدث ماينادى به اللغويون فى عصرنا الحاضر .

ونحب هنا تعليقاً على العبارة الأخيرة أن نقرر أن وضع (الأسماء) اللغوية هو أول الوسائل لتحقيق وجود المسميات ، فقبل تسمية الشىء يكون فى نطاق المجهول ، فإذا ماعرفنا حقيقته بادرنا بإطلاق اسم عليه ، ليتميز به من دون المسميات الأخرى جميعاً . فكأن انعدام العلاقة اللغوية بين الأشياء والإنسان يعنى أن هذه الأشياء بالنسبة إليه عدم فى عدم ، أى : أن العلاقة اللغوية هى صيغة الوجود بالنسبة إلى كل موجود فى نظر الإنسان .

ومع ذلك فإن ماقاله الدكتور أنيس لايعدو أن يكون صورة متخيلة ، لاتقوم على براهين قاطعة من التاريخ أو الحفريات أو غيرها من وسائل

المعرفة الإنسانية . وماأشبه هذا الذى يتصوره الدكتورأنيس بما قاله جوزيف فندريس من قبل فى مثل هذا المعرض ، فقد قرر أن اللغة كانت عند السلف البعيد الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير — انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى،أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن خوف أو رغبة فى الغذاء . بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت ، بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها قابلةلأن يكررها آخرون ، ولعل الإنسان قد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، فاستعمله للاتصال ببنى جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما ، أو لمنعهم منه. ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت فى الواقع وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى مُكِّنَ منها الإنسان .

وما إن استيقظ فى ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب . وكان تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطة مع تقدم المخ ، وكان تثبيت اللغة فى داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع ، وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية نفس المظاهرات الصوتية أو الغنائية .

وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى ، ثم قليلا قليلا ، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكوّن أخيرا هذا الجهاز المعقد الذى لا يجارى فى ثرائه ، ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار(١) .

---

(١) اللغة — ج فندريس — ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والدكتور محمد القصاص — ص ٣٧ — ٣٩ .

والفرق بين رأى الدكتور أنيس ورأى فندريس ، هـو أن الأول قد تصور العملية فى نطاق فردى ، وتجريدى ، على حين ربط الثانى عناصرها ربطا دقيقا ، حين تصور أن الذى تحكم فى اللغة إنما هو : تطور مخ الإنسان ، وتطور الجهاز النطقى ، وتطور الحياة الاجتماعية . وهو فرض أقرب إلى الصواب والتقبل ، غير أنه كسابقه لايعدو أن يكون تصوراً شخصيا ، لايقوم على دعمه وإثباته سوى الشعور الداخلى لدى المرء بأنه معقول ، دون أن تؤكد ذلك دلائل خارجية ، من تاريخ الإنسان وكشوفه القديمة .

ولسوف تظل بحوث العلم فى محاولاتها ، من أجل الكشف عن سر ذلك الاختراع العجيب فى حياة الإنسان ، الاختراع الذى استطاع به أن يسيطر على أزمة الحياة ، ومقاليد الكون ، وأن يؤسس تلك الحضارات الشامخة المتتابعة ، التى تكاد تخترق أستار المجهول فى بناء الكون العظيم ...

* * *

إن هناك لغويين كثيرين يرون أنه ليس من المفيد البحث فى نشأة اللغة ، باعتبارها حدثا من أحداث ماقبل التاريخ ، وإذا كان الإنسان لم يجمع فى يده حتى الآن أطراف التاريخ ، فأولى به أن يفرغ جهده فيما ينفعه ، ويجد له من الدلائل مايفسره ، فأما محاولة الضرب فى المجهول فلن تصل إلى شىء سوى التخمين ، وهو ماينبغى أن تتنزه عنه البحوث اللغوية التى تتشبث بالموضوعية ، وتتجه إلى وصف الظواهر الواقعية فى أغلب الأحيان[1].

ولقد يرى أصحاب هذه النظرة أن قضية اللغة ونشأتها فيما قبل التاريخ ،

---

(١) انظر فى هذا : دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح — ص ٢٢ ، ٢٣ .

هى قضية تهم علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، أو علم الاجتماع ، أو الجيولوجيا ، أكثر مما تهم اللغويين .

ومع ذلك نجد من المفيد لبيان أهمية اللغة ، وقدم مشكلاتها ، أن يتساءل اللغوى عن نشأتها ، مهما تكن عسيرة على التصور ، فهذا هو المدخل الطبيعى لدراسة الظاهرة المجهولة الأصل ، ولإثارة خيال الدارسين حولها ، وهو أمر لايخلو من فائدة ، كما أنه فى نظرنا ضرورة منهجية لا ينبغى تجاهلها .

اللغة كسب ثقافى

يمكننا أن نقرر – بعد الذى ذكرنا عن نشأة اللغة، وتخيلات العلماء واللغويين، وافتراضاتهم التى لم تصل إلى قول قاطع يكشف عن حقيقة هذه النشأة – أن اللغة ليست إلهاما أو وحيا، وهى كذلك ليست غريزة أو وراثة، وإنما هى كسب ثقافى يمتصه الفرد من البيئة التى نشأ فيها.

ومن المؤكد أننا لو أخذنا طفلا حديث الولادة بعيداً عن بيئته، وأودعناه بيئة أخرى ذات لغة مخالفة للغة أبويه – لشب الطفل يتحدث بلغة البيئة الجديدة دون أن يظهر على لسانه أو فى نطقه ما يدل على أصله اللغوى.

فليست اللغة رابطة جنسية أو نوعية، وإنما هى أداة انتماء إنسانية يتعلمها المرء ليتبادل مع الآخرين ما يشاء من علاقات مادية أو روحية.

ويتصل تعلم اللغة بما يتردد على ألسنة اللغويين حين يتحدثون عن (السليقة اللغوية)، ويعنون بها أن يبلغ المرء فى إتقان اللغة حداً لا يحس معه بتقاليدها، أو قواعدها، حين يتحدث بها. فنحن نتحدث باللغة العامية المصرية دون أن نحس بخصائصها أو تقاليدها، حتى إذا أردنا أن نتحدث لغة أخرى تغيرت الحال، وبدأنا نشعر بما ينبغى أن يكون عليه حديثنا ليبلغ مستوى الصواب اللغوى، سواء فى نطق الأصوات، أو فى اختيار المفردات، أو فى تركيب الجمل، أو فى استعمال الأدوات. أو فى تحقيق مواقع الضغط على بعض المقاطع دون بعض، أو فى إحداث تنغيم معين يختلف باختلاف المواقف الكلامية.

وهذا هو الفرق بين لغة السليقة، التى تتحقق فيها كل هذه الشروط

دون وعى إلا بالمعنى المناسب للموقف ، وبين اللغة المتعلمة كوسيلة ثقافية ، لابد من استحضار عناصر أدائها فى الذهن عند استعمالها .

ولقد يبلغ الفرد فى إجادته للغة معينة حداً يستطيع به أن يقلد أصحابها تقليداً تاماً،ثم يصبح هذا التقليد،من بعد ، طبعاً يتقى معه الشعور بخصائصها، وهنا يمكن أن يقال : إنه يتحدث تلك اللغة بالسليقة ، وهو ما نعنيه حين نصف رجلا بأنه يتحدث الانجليزية أو الفرنسية كأحد أبنائها .

ومعنى هذا أيضا أن الفرد قد تتعدد لديه السلائق اللغوية ، حين يجيد لغة أخرى غير لغة بيئته ، وهو مستوى لايتاح إلا بالمران والدربة الطويلة ، ومعاشرة أصحاب اللغة فى بلادهم ، ومعايشتهم، كما أنه يستلزم أن تكون لدى المرء حاسة لغوية دقيقة ، تلتقط الفروق الثقافية ، وتسجلها ، وتتمرن عليها .

وكلنا يدرك مدى الصعوبة التى تواجه الأجنبى حين يفد إلى بلادنا ، فيحاول أن يتعلم اللغة أو اللهجة المصرية ، وكيف أننا مهما بلغ من إتقان فى تقليد أصواتنا، وطريقة نطقنا ـ نكتشف بسهولة أنه غريب عن لهجتنا،سواء أكان ذلك بسبب نطقه لبعض الأصوات ، كالحاء ، حين يجعلها خاء ، أو هاء ، فى كلمة (حبيبى : خبيبى ، هبيبى) ، وكالعين التى يجعلها همزة ، وكالأصوات المفخمة التى تختفى فى لسانه ، ليحل محلها نظائرها المرققة ، أم كان بسبب تغييره لمواقع النبر على غير المألوف فى لساننا ولهجتنا .

ولقد يحاول بعض الأبناء والبنات فى أوساط معينة تقليد الأجانب فى طريقة نطقهم ، فيبدون نشازاً فى أعيننا ، شواذ فى خروجهم على سليقتهم اللغوية ، ومثل هذا السلوك ينبغى أن يقاوم بكل وسيلة اجتماعية وتربوية. ولسوف نعود إلى تحليل وظيفة اللغة كسليقة عند الحديث عن علاقتها بالفكر.

ومن المناسب أن نعرض بعض الملاحظات حول تقسيم جسبرسن لمراحل نمو لغة الطفل : فالمرحلة الأولى ، وهى مرحلة الصياح ، تعد فى الواقع البداية الحقيقية للغة بالنسبة إلى الطفل الوليد ، وليس الصياح فى مستهل حياته صياحا بالمعنى المفهوم ، وإنما هو أصوات تصدر عن الوليد نتيجة ضغط الهواء الداخل إلى الرئتين لأول مرة ، فى محاولة لإيجاد توازن بين درجتى الضغط داخل الصدر وخارجه ، ويحتك الهواء أثناء دخوله بجدار الحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، وحينئذ تبدأ الحنجرة عملها مع خروج الهواء فتتكون الصرخة الأولى ، التى نفسرها نحن بأن الطفل يبكى ، وهو فى الحقيقة يمارس أول ألوان نشاطه الحيوى بشهقات وزفرات تدل على حياته .

ولو أن الطفل نزل صامتا لفعلنا كل ممكن ، بل كل مستحيل ، فى سبيل استخراج هذه الصرخات منه عقيب ولادته . بل إن الأطباء ليوصون الأم دائماً ألا تبالغ فى رعاية الطفل بمحاولة إسكاته كلما صرخ ، لأن لهذا الصراخ ـ فضلا عن كونه تعبيراً غرزيا يلجأ إليه الطفل كلما شعر بألم ، أو أحس بحاجة ـ فائدة هى تقوية الرئتين بتشغيلهما على نحو نشيط ، وتشغيل الحنجرة بتنشيط الأوتار الصوتية ، ومن ثم تنشط المراكز العصبية الموجودة فى هذا الجزء الحساس الدقيق ، وذلك يفيد الوليد فائدة كبيرة ، ولذا يفضل أن يكون اهتمام الأم فى هذه المرحلة بتقصى أسباب الصراخ ، ثم محاولة التخفيف من حدتها ما أمكن ، دون أن يكون إسكات الوليد هدفا أساسياً فى كل حال .

والطفل فى هذه المرحلة من الصياح لا ينطق أصواتا مميزة ، وإنما يقتصر على ترديد ما يشبه الحركة المعروفة لدينا بالفتحة ، مع شىء من الأنفية أحيانا ،

وقليل من الاحتكاك بأقصى الفم أحياناً أخرى حتى تختلط بما يشبه الغين ، ومن هنا سميت (مرحلة المناغاة) . فكلمة (المناغاة) هي في الحقيقة نسيج صوتي فيما نرى ، مكون من الأصوات الثلاثة التي ترد في صياح الوليد ، وهي التي تتمثل في اختلاط الفتحة لديه بشيء من الأنفية ، يقربها من صوت النون ، وبقليل من الاحتكاك يدنيها من الغين ، وليس في الفعل (ناغى) سوى هذه الأصوات الثلاثة ، محملة بدلالتها ، وإمكاناتها الاشتقاقية ، ولعله في تقديرنا أصل الفعل (لاغى يلاغى) ، والمعنى في كليهما : أصدر أصواتاً ، للمناغاة أو للملاغاة ، واللام والنون يتبادلان المواقع في العربية .

ومع تقدم سن الطفل يتقدم نموه اللغوي إلى المرحلة التالية ، وهي المرحلة التي سماها جسبرسن (مرحلة البأبأة) . وإنما أطلق عليها هذه التسمية لسبب بدهي وبسيط ، هو أنه قد لوحظ أن أول صوت يلعب به الطفل في بدء نضجه هو الباء . كان ذلك بالنسبة إلى جميع الأطفال بلا استثناء . ولقد يحدث أن يأتي الطفل بأصوات أخرى مع الباء ، مثل التاء أو الميم أو الحاء أو الخاء ، أو الكاف . ولكن المهم أنه ينطق بالباء أولا ، فإذا لاحظ من حوله أنه أتى بهذا الصوت المحبب بادروا إلى تشجيعه ، وأخذوا يرددون له هذا الصوت ترديداً مستمرا [1] .

ومن فضل الله على الإنسان أن أسلمه في هذه الظروف إلى معلم فذ ، ذي ثرثرة مستحبة ، هي الشرط الأول في نمو الطفل اللغوي والعقلي بوجه عام ، وذلك المعلم هو : الأم . ولولا إصرارها على ترديد الأصوات التي ينطقها الطفل في هذه المرحلة ، ومحاولة إقحامها في كل موقف ، والتغني بها في كل لحظة ، لما أحرز الطفل تقدمه اللغوي بسهولة .

---

(١) عالج هذا الموضوع على نحو متخصص الدكتور مصطفى فهمي في كتابه القيم (أمراض الكلام) ص ٢٢ وما بعدها .

والمهم أنها تتلقف هذه المقاطع الصغيرة من فم الطفل ، فتحاول أن تخلع عليها بعض الدلالات البسيطة . وتحاول أيضاً أن تثبتها فى ملاحظة الطفل ، كلما رددها ، وتلقّب بها ، بل تحاول أيضاً أن تنطق له بعض المقاطع الأخرى التى ربما تكون قد تأخرت لديه ، وذلك يعنى أن الطفل قد بدأ يستخدم جانبا من إمكانات جهازه الصوتى ، على أن للطفل فى هذه المرحلة التى تبدأ غالباً من الشهر السادس بعض الأصوات الانفعالية ، التى يعبر بها عن رضاه ، أو ألمه ، أو حاجته ، وهو يربط بين الصوت وما يلاحظ من اهتمام من حوله بتحقيق رغباته الفرزية ، فيظل يكرر هذه الأصوات فى نفس المناسبة ، وكلما أحس بضرورة نطقها لتحقيق رغبة ، أو إشباع حاجة .

واقد يحدث أن يصدر الطفل فى هذه المرحلة بعض الأصوات التى تعبر عن سعادته ، حين يسمع أمه تغنى له مثلا : (ياحبيبى ننا نام ، وادبح لك جوزين حمام) وتظل تنغم له هذه الجملة اللطيفة ، مع شىء من الإيقاع الرتيب، فإذا به يصدر بعض الأصوات الطويلة التى يجسد بها سعادته بغناء أمه ، كأنما يشاركها أنشودتها ، ثم يغرق فى سبات هادىء لذيذ .

من المقاطع التى تتكون لدى الطفل فى هذه المرحلة تتخذ لغته الصغيرة فى المرحلة التالية (مرحلة الكلام) أدواتها الصوتية المعبرة . فهو يجهد حينئذ نطق مقاطع معينة ، وهو يلصق بهذه المقاطع شحنات من المعانى ، التى لا يظن الشخص العادى أنها لازمة لها ، ومع ذلك يفهمها أهل البيت .

فالمقطعان (ماما) يعنيان الأم ، فإذا ما اختصر الحركة الطويلة (الألف) وشدد الميم : (مّما) فإن ذلك يعنى أنه يريد طعاما . وكذلك مقطعا (نينا) يعنيان الجدة ، فإذا ماقصر الحركة ، وشدد النون: (ننا) فإنه يعنى النوم ، وإذا ماغير الحركة فيهما من الكسرة إلى الضمة الطويلة (نونو) كان ذلك لفظاً صفة

الصغر لكل الأشياء ، وبخاصة عند الأكل حيث توجهه الأم (كل نونو) ، أو عند رؤية طفل أصغر منه (نونو) .

وفى لغة الطفل الصغير قد يعنى تتابع مقطعين من هذه المقاطع ما نعبر نحن عنه فى لغتنا الكبيرة فى جمل كثيرة ، فمثلا إذا قال : « ماما . . مما » كان ذلك معناه : أنه ينادى أمه لتحضر له الطعام . وإذا قال : « ماما ننا » فربما كان يريد أن يقول : (ماما ... احمليني بين ذراعيك ، وضعيني فى السرير ، وربتى على جسدى حتى أنام ، ولا تتركيني وحدى وإلا بكيت ولم أنم) وهذه الدلالات الكثيرة المختزنة فى هاتين الكلمتين إنما يحددها ماتعودته الأم من سلوك الطفل ، وهو فى الواقع ماتعوده الطفل من سلوك أمه معه فى مثل هذه الحال ، لأن بعض الأطفال قد لا يعنى من هذه العبارة سوى أن تحتضنه أمه بين ذراعيها فيستسلم للنوم اللذيذ .

هذه المرحلة التى أطلق عليها جسبرسن (مرحلة اللغة الصغيرة) هى أهم المراحل فى نمو الطفل اللغوى ، لأنه يتهيأ آنذاك لتقليد من حوله فى كلماتهم ، وإشاراتهم ، وتصرفاتهم ، ولقد يأتى من حركات هذا التقليد بما يضحك له الكبار ويستظرفونه منه ، ومع ذلك قد يكون هذا الاستظراف من علامات الخطر على نمو الطفل اللغوى . وذلك فى حالة ما إذا دأب الكبار على تأكيد نقص الطفل اللغوى ، فيشجعونه على مواصلة ظرفه ، ويتجه هو بفعل هذا التشجيع إلى تثبيت نواحى نقصه ، فيشب وتشب معه هذه النقائص الصوتية ، أو بعبارة أصح : الأمراض الكلامية ، التى لم تكن فى فى مهدئها سوى انحرافات بسيطة ، كبرت مع الزمن ، ومع غفلة الكبار ، أو جهلهم .

والسلوك الطبيعى الواجب فى هذه المرحلة ألا يقلد الكبير الطفل فى

أداء مقاطعه ، بل يحاول أن ينطق أمامه نطقا سليما ، غاية السلامة ، لتتأكد في سمعه وفي وعيه النماذج الصحيحة ، ويطمح هو بدوره إلى محاكاتها ، فيتقدم مع كل محاولة للمحاكاة خطوة في طريق نموه اللغوي السليم ، وتطوره نحو اللغة المشتركة .

ومن الصعوبات التي يواجهها الطفل في هذه المرحلة أنه ينطق بعض الأصوات نطقا خاطئاً ، وهو خطأ ناشيء عن إدراكه الكلي لمجموعات الأصوات المتشابهة ، فهو يتصور الثاء والسين والشين والصاد بكيفية واحدة، فينطقها جميعاً صوتاً أسنانيا (ثاء) ، وهو يخلط بين اللام والراء ، فيوحدهما في صورة اللام ، وهو لا يستطيع أن يؤدي صوتا مفخما ، بل يحاول أن ينطق المرقق دائماً ، فالضاد دال ، والطاء تاء ، والصاد ثاء (هي في الأصل سين) ، والظاء ذال ، وهكذا .

ومن غير المستساغ إطلاقاً أن يغفل الأبوان عن محاولة تصويب نطق الطفل في هذه المرحلة المبكرة ، لاسيا في المواقف الانفعالية التي تشد الطفل إلى محاكاة الكبار ، ليصبح مثلهم كبيراً ، أو ليرضيهم ويظفر بالحلوى أو القرش ، وهكذا ، ولقد يسهل عملية التصويب أن يدرك الأبوان ، ولو بصفة عامة بعض الأفكار عن آلية النطق ، فيسلكان في توجيه طفلهما مسلكا مفهوما ، وممكناً ، دون تهويل ، أو تضخيم للمشكلة .

* * *

وعودة إلى حديثنا عن علاقة هذه الدراسة لنمو اللغة عند الطفل بما نحن بصدده من دراسة نشأة اللغة عند الإنسان ، لنقول : إن أهم هذه المراحل فائدة بالنسبة إلى بحثنا هو ما يتصل بالمرحلتين الأوليين ، مرحلة

الصياح ، ومرحلة البأبأة ؛ فلاشك أن الإنسان البدائى قد مر بهما فى أطوار نموه اللغوى . أما بعد ذلك فإن الطفل يجد لديه قدرة يحاكيها دائما ، على حين لم يجدها الإنسان فى محاولته الأولى للتعبير عن نفسه ، ولم يتح له ذلك إلا بعد أجيال وأجيال ، نضج فيها مخه ، واستوى سلطانه على قواه وملكاته ، وتهيأت له الظروف الاجتماعية ، بالمعنى الأعم ، حتى استطاع أن يصوغ انفعالاته فى مقاطع أو كلمات ، على ما فهمناه من سياق دراستنا لهذا الموضوع .

أهمية العناية العلاجية بلغة الطفل

لقد يكون ضروريا أن نشير هنا مرة أخرى إلى أهمية العناية بلغة الطفل، لا من حيث تكثير مفرداتها أو تعبيراتها ، فذلك أمر سوف يتاح للطفل السوى من بيئته الأولى ، وبالتدريج ، ولكن من حيث طريقته فى نطق الكلمات، وأصواتها المختلفة . فلا شك أن من الأصوات ما يسهل على الطفل نطقه عن طريق المحاكاة كما سبق ، ومنها ما يصعب عليه محاكاته . نظراً إلى التباسه فى ذهنه بمواصفات صوت آخر ، أو إلى ضعف جهازه النطقى ، أو عدم نضجه .

فالطفل حين ينطق السين ثاء (أو سينا أسنانية) إنما يستسهل عملية قياس السين على الثاء ، ربما لأن جرسهما فى أذنه متماثل ، وربما لأنه لا يميل إلى محاولة التنويع فى حركاته النطقية ، وربما أيضاً لعيب من العيوب اللسانية أو الأسنانية كقصر اللسان ، أو بروز الأسنان الأمامية العليا خارج الشفتين .

وكذلك الطفل الذى ينطق الراء لاما ، أو ياء ، قد يكون خطؤه راجعا إلى قصر فى لسانه ، نتيجة اقتراب الغشاء الموجود تحت اللسان فى قاع الفم — من مقدمه ، بحيث يبدو اللسان مشدودا عند محاولة إخراجه من الشفتين ، وهذا عيب خِلقى ، وقد يكون خطؤه ناشئاً عن سوء التقليد والتوجيه .

وقد صادفت عيوبا نطقية لدى بعض الكبار نشأت معهم منذ كانوا أطفالا ، وكانت فى الحقيقة عيوبا جوهرية يخجل لها أصحابها ، حتى أحدثت فيهم إلى جانب كونها أمراضاً كلامية — عقداً نفسية تدفعهم غالباً إلى الهروب من مواجهة الناس ، ولا شىء يضر نفس المريض من هذا النوع قدر السخرية من عيبه النطقى ، والتندر بعجزه عن مجاراة الآخرين .

عرفت طالباً كان ينطق الراء نونا بلا سبب واضح ، وعرفت آخر ينطق السين والشين والصاد جانبية ، من مخرج اللام .

وعرفت طالبة كانت تنطق القاف عينا ، والخاء حاء ، والراء ياء ، والغين عينا ، والشين سينا ، أى : أن حروف هجائها لم تكن أكثر من أربعة وعشرين حرفا .

وقد وجدت أن كلا منهم قد لزمه هذا الانحراف النطقى منذ نعومة أظافره ، وساعد على تثبيت الانحراف تشجيع الأبوين وسائر الكبار لهم ، واستظرافهم لنطقهم ، حتى كان من التسلية الممتعة أن يلعب كل منهم بما يثير ضحك الكبار وسعادتهم ، أو يستدر قروشهم لشراء اللعب المختلفة أو الحلوى .

وهكذا يسهم الإهمال والاستهانة فى تضخيم حجم المشكلة التى يمكن تلافيها فى بدايتها بقليل من العناية والاهتمام .

ولقد ترتب على وجود هذه العيوب النطقية محاولة الطالبة الهروب من الحديث بصوت مرتفع ، بما فى ذلك القراءة أمام زميلاتها ، وكانت النتيجة سنوات من الرسوب والإخفاق ، إلى جانب توهم استحالة علاج هذه العيوب المخجلة ، واستحالة الزواج آخر الأمر ، أو صعوبته .

وحكى لى الطالب المومى إليه أنه كثيراً ما كان يبكى كلما عرض عليه مدرسه أن يقرأ أمام زملائه أى درس ، أو يسمع أى نص محفوظ ، فقد كان انعدام الراء فى نطقه ، وحلول النون محلها مدعاة للضحك القاتل حين ينطق كلمة الشريعة : الشنيعة ، والتحرير : التحنين ، والرغيف : النغيف .. إلخ ..

ومع ذلك فإن مفتاح علاج هذه النقائص هو فى تحقيق درجة الاقتناع النفسى بإمكان العلاج ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة تشخيص منشأ الانحراف ،

سواء أكان خلقيا ، كقصر اللسان أو كبر حجمه ، أم اعتياديا ، كالتقليد الذى يترتب عليه خمول فى عضلات اللسان فى بعض المواضع .

وعلى كل حال فإن إرادة المريض للشفاء هى الأساس الذى يحقق أعظم النتائج ، ولا سيما إذا كان العلاج يتطلب تدريبا شاقا للسان على مقاطع معينة ، يراد تعويده على أدائها ، بما يلزم هذا التدريب من رفع الصوت ، وتكرار النطق ، حتى لو كان معيباً .

ولكيلا نستطرد فى هذا الجانب العلاجى نعود إلى ملاحظة لغة الطفل ، وضرورة العناية بها ، فلا يخلى بينه وبين الانحراف مهما كان طريفا ، كما لا يثقل عليه بما يفوق طاقته على الأداء ، ولكن التوسط هو المطلوب ، وبخاصة إذا روعى تلقين الطفل بعض النصوص الحلوة ، كآيات من القرآن يرددها أمامه الكبار ، ويرددها هو أمامهم ، وكأغنيات جميلة المعنى ، عن الأم ، أو عن الطيور ، أو عن الوطن ، مع تدريبه على نطق المقاطع أو الأصوات التى لا يأتى بها على الصورة المرغوبة ومع استبدال الصوت الصحيح ، أو القريب منه بالصوت المعيب ، فالذى ينطق الراء لاما ، تنطق أمامه الراء ، أو تقرب إلى الياء ، للتشجيع على التغيير .

ولقد يفيد فى هذه المرحلة أن يسمع الطفل أغنيات ونصوصا من جهاز تسجيل ، خصوصا وأن كثيرا من أطفالنا محرومون الآن من رعاية أمهاتهم لهم ، بسبب الخروج ساعات طويلة للعمل ، وقد كانت الأم (ست البيت) معلما ثرثاراً ناجحا ، ونعمة ليتها دامت لتقويم ألسنة الجيل الناشىء ، وصوغ شخصيته القومية .

على أن أخطر الجوانب فى هذه المرحلة أن يتولى توجيه الطفل معلم أو معلمة ، على غير المستوى المطلوب من جودة النطق ، ودقة الملاحظة ، من

ذلك النوع الذى يتم سلقه فى معاهد المعلمين والمعلمات ، دون أن يتعلموا تجويد النطق ، وهو جانب من الخطورة بمكان .

وإذا كان شبابنا قد تعودوا إهمال بعض الأصوات الفصحى فى نطقهم الدارج فإن ذلك مما يجب تحاشيه فى توجيه أطفالنا إلى النطق السليم ، حتى تسترد اللغة على ألسنة أبنائها كل مقوماتها ، دون تفريط أو افتعال ، وبخاصة إذا لاحظنا زيادة الطلب على الفتيان والفتيات للعمل بوسائل الإعلام المختلفة ، وأخطرها الإذاعة والتلفزيون .

هذه كلمة لابد منها فى معرض التعريف باللغة على ألسنة الأطفال ، ونرجو أن نفرغ لهذا الجانب علاجا خاصا فى القريب .

اللغة والفكر

لقد سبق أن أشرنا فى مناقشة نشأة اللغة إلى أنها كانت فى مبدئها ظاهرة انفعالية ، وأن أمرها قد تطور بتطور نضج الإنسان ، وسيطرة عقله على انفعالاته ، وبذلك استطاع أن يحكم هذه الأداة الانفعالية بعقله ، أى : أنه وضعها فى خدمة تفكيره ، بعد أن كانت مجرد ترجمان لعواطفه وانفعالاته .

ومع تقدم الحضارة الإنسانية أصبحت اللغة هى الأداة الحضارية التى يسيطر بها الإنسان على سائر القوى المختلفة فى الكون ، ويتعامل بها معها . وبذلك أصبح كل شىء ، فى الحياة ذا علاقة باللغة ، وله فيها رمز وتسمية ، بحيث لا يمكن للانسان أن يمارس علاقاته بالأشياء دون استحضار رموزها اللغوية .

ومن الممكن التعبير عن هذا المعنى بأن الاسم هو الوجود اللغوى الذهنى للمسمى ، على حين يمثل المسمى نفسه جانب الوجود المادى ، فكأن لكل موجود حالتين : حالة الوجود المادى فى الطبيعة ، وحالة الوجود الإنسانى فى اللغة .

وقد استطاع الإنسان بذكائه أن يضع لعلاقاته وتصوراته عن كل شىء وقع عليه بصره أو حسه رمزاً يحدده ، ويصفه ، على الأقل من وجهة نظره ، وذلك ليمكنه أن يتخذ منه موقفا معينا عند الاقتضاء ، وبحيث يستطيع أن يستحضره فى ذهنه إذا ما أراد .

من هنا كانت حركة التفكير فى الإنسان ذات ارتباط وثيق باللغة ، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا إذا صاغ عناصر فكره فى قوالب لغوية ، وترجمها إلى رموز لغوية .

ويبدأ هذا التلازم بين الفكر واللغة منذ يعى الإنسان حقيقة وجوده ، ويجد نفسه قادرا على ترجمة علاقاته بعناصر الحياة إلى كلمات ذات دلالة .

ومن ثم وجدنا كثيرين من المفكرين يرون أن أعظم تطور يتحقق فى حياة الإنسان حين يعبر عن ذاته بالضمير (أنا) ، ويحدث ذلك خلال السنة الثانية من عمر الطفل . يقول الأستاذ بول شوشار Paul chauchard فى كتابه عن (اللغة والفكر): عندما يبدأ الطفل فى الثانية والنصف من عمره يعبر عن نفسه بوساطة الضمير (أنا) ، فإنه يصبح حينئذ واعيا تماماً ، إذيكون قد تخطى نهائيا المستوىالنفسى الحيوانى ، وذلك ثمرة جهودهالدائبة للسيطرة على اللغة ، تلك الوسيلة الثقافية ، فالمستوى الإنسانى للوعى المفكر مرتبط إذن باللغة ، وإنما كان ذلك لأن الفكر لغة داخلية ، فهو لذلك قابل للتوصيل ، ولأن الجانب النفسى ، وهو إدراك أحوال الوعى أو الشعور ، قد بدأ يتكون[1] .

فهاهو ذا شوشار فى دراسته السيكلوجية الممتازة يعتبر أن تعبير الطفل عن نفسه بالضمير (أنا) إنما يمثل مرحلة حاسمة فى حياته ، تسجل انتقالهنهائيا من المستوى النفسى الحيوانى إلى المستوى النفسى الإنسانى .

والواقع أننا ندرك من خلال هذا التعبير ما ينطوى عليه من دلالة على تمام نضج الطفل ، حيث يكون فى هذه المرحلة قد أدرك ذاته ، إدراكا صحيحا متميزا ، وحيث يكون قد وعى حقيقة علاقاته بالآخرين ، علاقاته بمدلول الضمير (أنت) ومدلول الضمير (هو) ، وكل ما يتصل بصور التغاير فى الذوات ، وكل ذلك نابع من إدراكه للأنا المتكلمة ، المستكنة فى ذاته .

( ) Paul chaucherd, Le langage la pensée, p, 67

ولو افترضنا طفلا ينشأ دون أن يدرك هذه التفرقة وحدودها النفسية واللغوية ، لما تمثلنا غير حيوان يرتع مع نظائره ، يبحث عن إشباع نداء الغريزة ، من طعام وشراب ومأوى ونوم ، وهى حالة يوجد عليها دائما المتخلفون عقليا ، إذ تمثل جميع الموجودات حولهم صورا غائمة ، لاتفسر بغير الحركة ، ولا تتصل بوجودهم إلا بقدر ماتستثير غرائزهم بأصدائها المحببة أو المخيفة ، وهى أصداء موقوتة ، وسريعة التلاشى .

ومن إحساس الطفل بمفهوم الضمير (أنا) ينطلق فكره لينسج كل أشكال العلاقات العاطفية ، والمادية ، والذهنية ، ليشيد منها صرح حياته المتباينة الألوان والمستويات ، وتظل حركات هذا الفكر دائرة فى إطار من الكلمات ، التى تيسر له عملية التصور والتخيل ، لأن الفكر ليس سوى لغة داخلية ، تحتاج دائما إلى أن يتم توصيلها إلى الآخرين ممن لديهم نفس اللغة ، ولن يتم هذا التوصيل إلا بوساطة اللغة الخارجية ، المتمثلة فى الرموز الصوتية .

ومن الصعب تصور انفصال حركة الفكر عن كلمات اللغة ، بل إن ذلك من أصعب عمليات التجريد الفلسفى ، ولكن التحليل العلمى مضطر دائما أن يعبر عن كل جانب من جوانب النشاط الإنسانى تعبيراً مستقلا ، على الرغم من أن الواقع لايستطيع الفصل بين الفكر واللغة ، أو بين اللغة الداخلية والصورة الخارجية .

فعملية الاتصال الإنسانى أشبه بالعملة النقدية ، ذات وجهين هما اللذان يمنحانها قيمتها ، وقوتها الاقتصادية ، وفقدان أحد الوجهين معناه ضياع هذه القيمة .

وكذلك لا يمكن تقويم اللغة الداخلية التي هي الفكر إلا إذا شهدناها في صورة نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة الاصطلاحية ، أعني : في صورة اللغة ، كما لا يمكن فهم أية مجموعة من الرموز اللغوية دون أن تحتوي على رصيد من نشاط الفكر الإنساني ، لأنها حينئذ تكون مجرد نثار من الأصوات والصرخات ، عديمة الدلالة ، فاقدة العلاقة بحياة الإنسان ، وهي أشبه بنهيق الحمير ، ونباح الكلاب ، لا يحمل كلاهما سوى ما يكمن خلفه في نفس الحيوان من طاقة انفعالية غرزية .

فإذا انتقلنا إلى تصور تجربة حية في علاقة الفكر باللغة كان لنا أن نذكر موقف أحدنا وهو يتعلم لغة أجنبية ، فيصادفه موقف يتطلب منه أن يعبر بجملة كاملة مثل : (أريد قلما) ، فإذا كان المخاطب فرنسيا مثلا فإني أتهيأ لمخاطبته باستحضار المطلوب في ذهني ، ثم أصبه في قالب عربي ، ثم أجري عملية ترجمة لمفردات الجملة ، وأركبها على النسق الفرنسي ، ثم أستجمع قواي وأنطق في مواجهته عبارة **Je veux un crayon** ، ومن المحال أن يتم صوغ هذه الجملة مباشرة ، داخل الفكر بكلماتها الفرنسية ، لأن حركة الفكر لا تتم في هذه المرحلة بغير العربية ، فصور الأشياء والأحداث هي صور عربية تماما ، مختزنة في سليقة الفرد ، وهي تقفز إلى ذهنه كأدوات ضرورية ، كطاقة كهربية لازمة لإدارة محرك الفكر ، ثم تتم عملية ترجمة هذه الصور العربية إلى الفرنسية أو الإنجليزية في المرحلة الثانية ، التي يتم توصيلها إلى المخاطب برموز لغوية .

ومن الممكن أن نشهد هذه الظاهرة بصورة عكسية في أولئك المواطنين العرب الذين يقضون سنوات عديدة في بلد كانجلترا ، ثم يعودون إلى

الوطن ، فإذا ما تحدثوا بالعربية تعثروا فى تصوير أفكارهم ، لصعوبة الحصول على قالب عربى لهذه الأفكار ، فتجد الواحد منهم يقول لك عندما يتعلثم ، مطلقا لسانه بالإنجليزية .. I am sory, I want to Say that ، إلى غير ذلك من التعبيرات التى يتحرك بها فكره ، قبل أن ينطلق بها لسانه ، وما ذلك إلا لطول الإلف ، وشدة الامتزاج بطريقة التعبير والتفكير بالإنجليزية ، ثم لا يلبث بضعة أشهر حتى يسترد قدرته على التفكير بالعربية ، ويعود سيرته الأولى عربى الفكر واللسان .

ولقد تعد اللغة ، برغم أنها وسيلة الفكر — قيداً على حركته ، وذلك عندما يلمح بعض العلاقات الذهنية أو الخارجية التى نجهلها ، لأنها لم تتحدد من قبل فى صورة رمزية لغوية ، غير أن الفكر سرعان ما يعود إلى مالديه من الصور المختزنة ، يقرن النظير إلى النظير ، ويماثل الشىء بشبهه ، ثم يواصل نشاطه بوساطة التمثيل اللغوى ، أو الاصطلاح ، أو الافتراض ، أو غير ذلك من الوسائل اللغوية ، وهى جميعا معينات على استمرار فكر الإنسان مطرد الحركة ، وبذلك تستمر أيضا عملية نمو اللغات وتطورها .

ولو أننا رجعنا إلى ماسبق نقله عن دوسوسور ، عن (مكان اللسان فى أحداث اللغة) لرأينا أن الفكرة تفجر فى المخ صورة صوتية مقابلة لها ، وهو ما يفسر بالارتباط بين الظاهرة النفسية ، والحركة العضوية ، وقد عبر ماريوباى عن هذا الارتباط بقوله : « عملية الكلام — إذن — تتكون من جانبين ، عضوى ونفسى ، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسى أو العقلى الذى سبق الاتفاق عليه فى عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها ، ولكن سرعان ما تنتقل إلى العملية العضوية عن طريق

إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقى لإنتاج الصوت المطلوب . وفى الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقى الذى يصدر أصواتا متتابعة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية إلى أذن السامع ، وأذن السامع بدورها توصل الرمز الصوتى الذى استقبلته إلى العقل الذى يعطى هذه الرموز قيمتها ، ويترجم الرسالة ـ على ضوء ما اختزن فية سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ، سواء اتفق الفهم تماما مع ما فى ذهن المتكلم أم لا »[1]

وتنبغى الإشارة هنا إلى أن هذا التصوير للعلاقة بين العقل والجهاز النطقى ، وكيفية تلقى أو إصدار الرموز فى ترجمة مضمون الرسالة ، على ضوء ما اختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ـ هذا التصوير هو ذاته الفكرة التى يقوم عليها (الكمبيوتر) الذى يختزن فى ذاكرته كل العلاقات الممكنة ، ثم هو يختار منها ما يناسب الفكرة التى يتلقاها ، عند إرادة الترجمة إلى لغة أخرى ، تماما كما يختار العقل الإنسانى من بين الصور المختزنة فيه ما يناسب الفكرة المبلغة إليه عن طريق الأذن .

ولا شك أن العملية على المستوى الآلى تتسم بالتعقيد الشديد ، الذى ينهض بعبء العمل لتحقيقه فريق من المتخصصين العاكفين على إنجاز الترجمة الآلية فى مختلف بنوك المعلومات .

وليس إنجاز هذه العملية على المستوى الإنسانى بأقل تعقيدا ، ولكن كثيراً من الأعمال تتم بصورة تلقائية ، لا دخل للحساب ، أو الإعداد فيها . وهو أمر يكشف عن أن العقل الإنسانى ، وهو صنعة الله ، أعظم بكثير من

---

(١) أسس علم اللغة / ٤١ .

أى عقل آلى ، هو من صنعة الإنسان ، لأن العقل الآلى يقتصر دائما على تحقيق العلاقات المحسوبة بين المعطيات المختزنة فيه ، على حين ينفرد العقل الإنسانى بالنشاط الإبداعى لأمور قد لا تكون عناصرها مختزنة فيه ، ثم يحاول إعطاءها رموزها اللغوية ، على غير مثال سبق ، وهو مالا تطيقه إمكانات العقول الآلية ، وتبارك الله أحسن الخالقين[1] .

---

(١) للمؤلف كتاب مشترك فى الإحصاء اللغوى باستخدام الكمبيوتر طبع جامعة الكويت ١٩٧٥ . وله أيضاً مشاركة فى وضع نظام للترجمة الآلية للمرة الأولى فى العربية ، وفى إطار التعاون مع مركز التنمية الصناعية — بالجامعة العربية .

فروع الدراسات اللغوية

ولا بد قبل الدخول إلى المشكلات المنهجية أن نأخذ فكرة عن علم اللغة ، وما يضم من فروع أحدثها تطور الدراسات اللغوية فى العصر الحديث ، وقد سبقت إشارة إلى هذه الفروع ، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد إيضاح .

فعلم اللغة يتناول ابتداء — البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية . ومادار حولها من فروض ، وتخمينات ، وأقاصيص ، وذلك الفرع من الدراسة يسمى: (أصل اللغة : Origine du Lagnage) ، وكذلك البحوث المتعلقة بحياة اللغة ، ونموها ، وتطورها ، وانقسامها إلى لهجات ، وهجراتها ، وشيخوختها ، وانقراضها أو موتها ، وذلكم هو مبحث (حياة اللغة Vie du Langage) وقد يتفرع عن هـــذا الجانب (علم اللهجات La Dialectologie) . كما يتصل به علم الاشتقاق التاريخى Etymologie ، وهو يبحث عن أصول الكلمات فى مختلف لغات الفصيلة الواحدة ، فى إطار الدراسات المقارنة ، وكل ذلك من علم اللغة التاريخى .

أما اللغة فى ذاتها فهى عبارة عن أصوات ذات دلالة — على ما سبق ، فالأصوات يتولاها بالدراسة علم خاص هو : علم الأصوات ، وهو يشمل مستويين من الدراسة :

المستوى الأول : (علم الأصوات العام La Phonétique) .

والمستوى الثانى : علم الأصوات فى سياقها ، أو علم الأصوات التشكيلى La phonologie) .

أما دلالات هذه الأصوات فيتولاها بالدراسة علم خاص بها هو (علم الدلالة La Sémantique) ، ولقد يتفرع عن هذا العلم عدة جوانب من علم اللغة ، كالبحث فى المفردات ومعانيها ، وهو (علم المفردات أو المعاجم - La Lexicologie) أو البحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها ، وتغير أبنيتها تبعاً لتغيير معناها ، وهو (علم بناء الكلمة أو علم الصرف La Morphologie) .

والمراد بالمورفولوجيا هنا هو علم الصرف بالمعنى العام ، لا مجرد التصريف ، أو البحث فى أقسام الكلمات ، وعلاقات كل قسم بغيره من الأقسام ، والقواعد التى تخضع لها أجزاء الجملة ، وأثر كل جزء منها فى غيره ، وطرق ربط أجزاء الجملة ، وربط الجمل بعضها ببعض ، وهو . (علم التراكيب : La Syntaxe) ويتصل بهذا العلم ما يعرف فى العربية (بعلم النحو La grammaire) .

ويتفرع أيضا عن علم الدلالة البحث فى فنون الأساليب (شعرية ونثرية وخطابية وروائية) ، وهو (علم الأسلوب La Stylistique) ، وكل ذلك من علم اللغة الوصفى .

وقد أضاف البحث الحديث عدة فروع أخرى لعلم اللغة ، كالبحث الخاص بعلاقة الظواهر اللغوية بالظواهر الاجتماعية ، وهو موضوع (علم الاجتماع اللغوى : La Sociologie linguistique) ، وكالبحث الخاص بعلاقة

الظواهر اللغوية بأحوال النفس ، وهو موضوع (علم النفس اللغوى La psychologie linguistique) .

وهناك البحث فى علاقة الظاهرة اللغوية بالمكان ، وهو علم اللغة الجغرافى : La Linguis. géographique ، وهو يمثل الآن قسما رئيسيا من علم اللغة .

وكل هذه البحوث قد تنضوى تحت اسم La phylologie ، توسعا ، ولكن الاسم الذى يدل عليها مباشرة هو La linguistique، أو علم اللغة .

دراسة فى علمى الأصوات

أولا : موضوع الأصوات العام :

هذا الإيجاز السريع لفروع الدراسات اللغوية يفيدنا فى الإلمام بحدودها المترامية ، إلماما متواضعا . ولـكن كل فرع منها يحتاج إلى شىء من الوضوح يساعد على تصور مجاله .

وأهم ما تبدأ به الدراسات اللغوية الحديثة بعد الإلمام بمجالها ، أن تدرس المستوى الصوتى للغة ، فهذا المستوى الصوتى هو الأساس الذى يقوم عليه بناء مفرداتها وصيغها وتراكيبها ، بل وأدبها كله ، شعرا ونثرا . لذلك كان لابد لدارس اللغة من دراسة أصواتها .

وقد وجدنا أن (علم الأصوات) يتناول مستويين فى محاولاته :

المستوى الأول هو علم الأصوات المجردة أو الفوناتيك .

وهذا الجانب من الدراسة الصوتية يبدأ بدراسة التـكوين التشريحى للجهاز النطقى ، ابتداء من الحجاب الحاجز : أسفل الرئتين ، إلى الشفتين ، فهو يدرس هذه الأجزاء دراسة تشريحية ، ثم بعد ذلك يدرس وظيفتها المباشرة فى إنتاج الأصوات ، سواء بدفع الهواء ، أو بحبسه ، أو بالسماح له بأن يمر محتكا فى موضع الصوت ، كما يدرس وظيفتها غير المباشرة ، من حيث كانت بعض التجاويف فى الرأس وفى الصدر بمثابة (غرف رنين) ، أشبه بقصعة العود أو الـكمان ، تجمع الصدى ، وتشكل الصوت . وأى تغير

أو عطب فى غرف الرنين الإنسانية ، كالزكام ، أو الرشح ، أو اللحمية مثلا ، يؤثر تأثيراً مباشراً على طابع الصوت .

ويتناول هذا الجانب أيضا دراسة الصوت ومكوناته أو عناصره الأساسية ، من حيث عدد الذبذبات وطبيعتها . وتكونها فى هيئة موجات هوائية ، وهو بذلك يستخدم (علم الطبيعة الصوتية Acconstique) ، كما يستخدم عدة أجهزة للتسجيل والقياس الالكترونى ، وفى مقدمتها جهاز Sona graph

ويدرس هذا الجانب أيضا صفات الصوت المثالية ، من جهر وهمس ، وانفجارية واحتكاكية ، وانطلاقية ، وانتقالية ، وذلك على مستوى استعمال الإنسان للغة ، أية كانت اللغة .

ثانياً : موضوع الأصوات التشكيلى :

أما الجانب الثانى فإنه يدرس الصوت فى سياقه ، ولذلك يطلق عليه (علم الأصوات التشكيلى) ، أو الفونولوجيا ، الذى يدرس النظم الصوتية للغة معينة ، وكما ينطقها أصحابها فى ممارستهم اليومية .

ولا شك أن الصوت فى سياقه يختلف عن الصوت المجرد ، من حيث كمية الجهد اللازمة لإنتاجه ، ومن حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه ، واللاحقة به ، ولهذا التأثر قوانين عامة ، فى جميع اللغات ، بحيث نجد أن صوتا كالنون مثلا فى العربية قد ينطق على سبع صور ، بحسب الصوت التالى له ، وكل هذه الصور أعضاء لفونيم واحد هو (النون) وكلمة (فونيم) معناها (الوحدة الصوتية) ، التى تأخذ عدة صور باختلاف المواقع المؤثرة فيها . ولسوف نقدم فيما بعد دراسة مفصلة لفكرة (الفونيم) ، والمدارس التى حاولت تفسيرها على أسس مختلفة .

(المقطع العربى) :

كذلك يدرس هـذا العلم البناء المقطعى للغة ، وهو بناء يختلف من لغة إلى لغة أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك أن المقطع ، وهو تقسيم طبيعى ، فوق البسيط ، للحدث اللغوى ، لايمكن أن يتـكون فى اللغة العربية من أصوات صوامت فحسب ، كما لا يمكن أن تبدأ الـكلمة العربية بصامتين ، ولا بحركة ، ولإيضاح ذلك نستعرض أشكال المقطع العربى الأساسية ، والثانوية . وقد عرفت العربية ثلاثة أشكال أساسية هى على التوالى :

١ — مقطع قصير ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة ، مثل الـكاف وحركتها فى كتب - Ka .

٢ - مقطع طويل مفتوح ، ويتكون من صامت +حركة طويلة ، مثل : الـكاف والألف فى كاتب Kaa .

٣ — مقطع طويل مقفل ، ويتـكون من صامت + حركة قصيرة + صامت مثل : الأداة كَمْ Kam .

هذه المقاطع الثلاثة هى التى يتـكون منها الـكلام العربى المتصل ، ولابد لـكل كلام عربى أن ينتهى فى التحليل الأولى للصيغ إلى هذه المقاطع ، كلها أو بعضها .

وهناك صورتان مقطعيتان تردان فى النطق ، فى حالة الوقف غالباً ، وهمـا :

٤ — مقطع مديد مقفل بصامت ، ويتـكون من :

صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل النطق بالفعل (كان Kaan)

٥ — مقطع مديد مقفل بصامتين، ويتكون من :

صامت + حركة قصيرة + صامتين، مثل النطق بكلمة(قَدْر — qadr) .

وهذان المقطعان يعرضان فى العربية فى حالة الوقف غالباً، كما إذا وقفنا على كلمة : (مسلمين) وهى مكونة من ثلاثة مقاطع أرقامها هى (٣ و١ و٤) . وكما إذا وقفنا على كلمة (القدْر) ، وهى مكونة من مقطعين (٣ و ٥) . وإنما اشترطنا حالة الوقف ، لأن وصل الكلمة بما بعدها يختفى معه هذان الشكلان المقطعيان قطعاً ، وقد يأتى المقطع الرابع وسط الكلمة استثناء فى مثل الكلمات : (ولا الضالِّين) (والحاج محمد) الخ .

ونستطيع أن نخرج من هذا التحديد بمجموعة الخصائص البنيوية التى يجب أن تتوفر للمقطع العربى :

١ — يجب أن يبدأ بصامت .

٢ — يجب أن يثنى بحركة .

٣ — تختلف المقاطع بعد ذلك فى العنصر الثالث ، الذى لا وجود له فى المقطع الأول ، وهو حركة فى الثانى ، وصامت فى الثالث .

ومقتضى ذلك أن الكلمة العربية لا تحتمل فى أولها صامتين ، وإن كانت تحتملهما فى وسطها ، فى مثل : يكتب yaktub — حيث تتجاور الكاف والتاء ، وبحيث إن الكاف نهاية المقطع الأول ، والتاء بداية المقطع الثانى .

والعربية إذن لا تقبل تجاور ثلاثة صوامت ، بله أربعة ، فإذا اجتمعت ثلاثة وسط الكلام وجب تحريك أحدها ليرتد النسيج النطقى إلى الأصل المقبول ، وهو ما يسميه النحاة « التحريك للتخلص من التقاء الساكنين » أو هو بتعبيرنا : التحريك للتخلص من تجاور ثلاثة صوامت .

هذا الشكل البنيوى فى النطق يفرض على الناطق مبدأ التحريك ، وبقى عليه أن يختار الحركة الصحيحة فى موقعها ، إن كانت حركة لمبنى أو لمعرب .

وكل هذه المحاذير اللازم تجنبها فى المقطع العربى مقبولة كلها فى اللغات الأوربية .

فالإنجليزية مثلا تنطق الكلمة مبدوءة بصوامت دون حركة تفصل بينها مثل (street) ، ففيها السين والتاء (st) تعقبهما الراء المتحركة بحركة (ee) ، وهذا التكوين البنيوى للكلمة لا يمكن أن يأتى فى العربية . وكذلك يأتى داخل الكلمة ثلاثة صوامت بل أربعة مثل abstraction,construction ، وقد تعوّد اللسان الإنجليزى أن ينطق بها دون صعوبة .

كذلك لا يمكن أن تبدأ الكلمة فى العربية بحركة شأن الكلمة الإنجليزية important فإذا كان لابد من البدء بحركة فى أول الكلمة اجتلبت قبلها همزة ، ليكون البدء بمتحرك أعنى : (صامت + حركة) مثل : كتب — Kataba يكتب yaktubu فإن صوغ الفعل الأمر من المضارع يقتضى إسقاط ياء المضارعة (ya) فيبقى لصيغة الأمر بنية (كْتُب Ktub) ولما كان من العسير النطق بالصامتين (الكاف والتاء) فى بداية الكلمة فإن من الطبيعى الإتيان بحركة قبل الكاف على هذه الصورة (uKtub) ، ولكن محذورا آخر سوف يحدث ، وهو وجود حركة فى بداية المقطع الأول من الكلمة ، فكانت همزة الوصل هى الصوت المساعد للنطق بالمجموعة الممنوعة فى بناء اللغة العربية ، وقد توصلت إلى هذا الحل الفطرة العربية السليمة التى نطقت الفعل (أُكتب) uktub ؟ ولذلك (سميت همزة الوصل) ، أى : التى يتوصل بها وبحركتها إلى النطق بصامتين تبدأ بهما الكلمة .

فإذا ورد الفعل أحيانا فى سياق لا يتطلب هـذه الهمزة سقطت مع حركتها ، وذلك مثل : قَالَ كْتُبْ (qaala ktud) وإن لزم رسم ألف الوصل إملائيا .

ولسنا نريد أن نسرف فى التعليق أكثر من هذا ، ولـكن القارىء يستطيع أن يتصور ما لم يرد فى هذا الحديث قياسا على ما أشرنا إليه .

النبر والتنغيم :

ومن البحوث التى يتناولها علم الأصوات التشكيلى (الفونولوجى) ظاهرة النبر أو الضغط stress أو accent وهى ظاهرة أو خاصة صوتية تميز الناطق بلغة أو لهجة معينة عن غيره من الناطقين بلغة أخرى ، أو لهجة مخالفة .

وقد نلحظ ذلك بين لغتين ، فى نطق كلمة accent فى الإنجليزية ، حيث يكون الضغط على المقطع الأول sc/cent على حين يضغط الناطق الفرنسى على المقطع الثانى فى نفس الـكلمة . كما نلحظ هذا الضغط لدى الناطق لـكلمة (مدرسة) إذا كان من القاهرة ، فنجده واقعا على قطع الراء (ra) من mad tra sat على حين يضغط الناطق من بنى سويف مثلا على المقطع الأول من نفس الـكلمة .

وقد أكدت البحوث الحديثة أهمية هذه الظاهرة فى دراسة ظواهر اللغة العربية القديمة ، كما أنها من أهم مايعنى به الدارسون للهجات المعاصرة .

كذلك يتناول علم الأصوات التشكيلى ظواهر التنغيم ، وطول الصوت وقصره فى بعض السياقات ، سواء أكان طوله صفة أساسية له أم صفة عارضة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تزخر بها المؤلفات المتخصصة .

صوغ الكلمات بين العربية وغيرها :

وينتقل علم اللغة بعد ذلك إلى دراسة بناء الكلمة ، والقوانين التى تتحكم فى هذا البناء ، من لغة إلى أخرى ، فيدرس أنواع الاشتقاق ، وطرق الصياغة ، ووضع السوابق واللواحق فى كل حالة من هذه الحالات ، والتغيرات الصرفية الناشئة عن تجاور الأصوات ، وقضايا الإعلال والإبدال .

فإذا انتهى من هذا المستوى البنيوى انتقل إلى دراسة المعنى الذى يتضمنه . فيما أطلق عليه (علم الدلالة) أو (علم السيمانتيك) ، وهو موضوع تخصصت له دراسات عميقة وجادة ، فى اللغات الأوربية ، كما بدأ يأخذ مكانه فى الدراسات العربية المعاصرة .

على أن لنا ملاحظة عامة عن الطريقة التى يتم بها صوغ الكلمات فى العربية الفصحى ، ينبغى أن يلم بها القارىء ، وهى طريقة يتم على أساسها تحديد المعنى الأصلى للكلمة ، وما يشتق منها ، فللغة ، أية لغة ، طريقتان أساسيتان فى صوغ الكلمات :

١ — طريقة الإلصاق .　　　　٢ — طريقة التحول الداخلى .

والطريقة الأولى متبعة فى اللغة الفرنسية ، حيث يكون للكلمة (ثابت radicale-) يدل على المعنى الأصلى ، ثم تأتى السوابق واللواحق لتعطينا الصور المختلفة للكلمة ، لتدل على المعانى المختلفة ، مثال ذلك : الثابت(sabl) تضاف إليه اللاحقة (e) فيصبح (sable) بمعنى رمل ، وتضاف إليه اللاحقة (er) فيصبح (sabler) ليفيد معنى الفعل ، وتضاف إليه اللاحقة (erie) فيصبح (sablerie) ليدل على المكان ، وهذه كلها لواحق .

وتضاف إلى فعله السابقة (en) ، فيصبح (en sabler) ، ثم تضاف إلى هذا الفعل السابقة (des) ، فيصبح (desensabler) ويأتى من هذا الفعل عن طريق تغيير اللاحقة كلمة (desensablement) وهكذا .

وبناء على هذا التغير فى السوابق واللواحق يتغير المعنى ، غير أن الثابت (sabl) لم يتغير مطلقا ، كما رأينا .

أما الطريقة الثانية فهى المتبعة فى العربية ، وذلك أن مادة الكلمة فيها تتكون من مجموعة من الصوامت ، ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، ثم يرد على هذه الصوامت مصوتات أو حركات متغيرة ، وهى التى تؤدى لنا الصور المختلفة ، ذات المعانى المختلفة أيضاً .

ومثال ذلك المادة (ك ت ب _ Ktb) وهى توفر لنا الأساس الذى نبنى منه الكلمات بوساطة إقحام الحركات داخل أجزائها ، أى بين الصوامت ، فإذا وضعنا مصوت الفتحة (a) بعد الصامت الأول والثانى هكذا (كتب Katab) تكون لنا الفعل الماضى . وإذا غيرنا هذا الصوت إلى ضمة مثلا (u) هكذا (كُتُب Kutub) أفادنا هذا التكوين معنى آخر غير فعلى هو جمع (كتاب) .

وإذا جعلنا مكان الضمتين ضمة وكسرة (u – i) أفادنا هذا التكوين معنى آخر هو معنى الفعل المبنى للمفعول ، فى مقابل المبنى للفاعل هكذا (كُتِبَ — Kutib) .

وكل هذه الاختلافات جارية فى نوع المصوتات ، أو طابعها . فإذا كان الاختلاف فى كميتها حدثت صيغ كثيرة أخرى ، ومثال ذلك أن نضيف

كسرة قصيرة وفتحة طويلة (i-aa) هكذا : (كتاب – Kitaab) لتفيد الصيغة الحاصلة معنى ذلك التأليف المكون من صفحات مقروءة ، وإذا عكسنا ترتيب هذين الصوتين هكذا (aa-i) في مثل كاتب (Kaatib) أفادتنا الصيغة معنى مختلفا هو الشخص المتصف بالكتابة ، وهكذا .

وقد يزيد فى الصيغة وجود أحد الصوامت الأصول ، كتضعيف التاء من كلمة (كُتَّاب – Kuttaab) جمعا لكلمة (كاتب) ، ومع ذلك يظل الأصل ثابتا غير منتقص .

ليس معنى هذا أن العربية جهلت طريقة الإلصاق ، فقد يأتى من هذا الأصل نفسه كلمات : (مكتوب ، ومكتوبة ، ومستكتب ، واكتتاب) ، وفيها سوابق ، ولواحق ، وحشو فى وسط المادة . وفى العربية عدد غير قليل من هذه اللواصق ، بالإضافة إلى اعتمادها على طريقه التحول فى المصوتات ، وهى الطريقة التى أفادتها وفرة فى الصيغ ، وثروة فى الكلمات ، وكثرة فى الصور المشتقة من أصل واحد ، وهو أمر لم تعرفه لغة أخرى غير العربية ، وبخاصة فى جمع التكسير .

فإذا جئنا إلى المعنى المتولد من هذه الصور وجدناه محدداً تحديداً قاموسيا فى المعاجم ، ولكن المجتمع والتطور التاريخى للغة ، كما يحدث تأثيره فى الكلمة ، يحدث تأثيره فى معناها ، فيضيف إليها ، وينقص فيها .

ومن امثله الزيادة فى المعنى كلمة : (وطن) فإن معناها الاجتماعى المشع بالنسبة إلى غريب عن بلده يزيد كثيرا عن معناها القاموسى . وكلمة (فقيه) تعنى فى الأصل أعلى قمة يبلغها العالم فى مادته ، وبخاصة فى ميدان التشريع ، ولكنها الآن قد ابتذلت خاصتها البيانية ، فأصبحت تدل على ذلك المتسكع فى المقابر ، وهكذا انحطت دلالتها ، وهى فى طريقها إلى الانقراض ، بانقراض

هذه الطبقة من المتسكعين . ولهذا العلم (علم الدلالة) تطبيقات وأصول فى العربية ، وفى العاميات المعاصرة .

* * *

على أن من الضرورى أن نقدم هنا بحثاً مفصلا عن أهم موضوعات علم الفونولوجيا ، نقدمه أولا كنموذج لبحوث هذا العلم ، يكشف عن ثرائه ، وثانياً لأن أى كتاب من الكتب التى تناولت بحوث علم اللغة لم يستوعب الحديث فيه على نحو كاف وشاف . هذا الموضوع هو (نظرية الفونيم) ، وسوف نحاول ألا ندع فكرة مهمة دون أن نذكرها ملخصة أو مفسرة ، تبعا لإدراكنا لأهمية هذا أو ذاك .

نظرية الفونيم

هناك مصطلحات يجب فهمها قبل معالجة الأفكار الأساسية في هذا الموضوع، وأول المصطلحات كلمة (Phone) وتعني حين تستخدم في علم اللغة (الصوت المفرد) ، أي : الصوت اللغوي البسيط الذي يمكن تسجيله بالآلات الحساسة في المعمل[1] ، وقد يستخدم في نفس المعنى كلمة (Son) ، ولكن الأولى هي المشهورة : ثم يتولد عن هذا المصطلح مصطلح آخر هو (Phonème) ، ويقصد به (الوحدة الصوتية) على مستوى التشكيل أو التنظيم الأدائي ، ولقد تقوم هذه الوحدة على صوت واحد (Phone) ، وقد يدخل تحتها مجموعة من الأصوات أو الأعضاء ، التي يطلق عليها أيضا : (Allophone) ومعناه: صوت آخر ، إشارة إلى وجود هذا الصوت الآخر إلى جانب غيره داخل الفونيم .

فالفونيم إذن مصطلح فونولوجي ، تدور حوله بحوث كثيرة ، وربما كان من أعقد ما واجه العلماء من مصطلحات ، عندما أرادوا تحديد مفهومه، على الرغم من أن ترجمته إلى العربية واضحة ، وتأتي الصعوبة عندما يراد تفسير الأساس الذي تقوم عليه هذه الوحدة الصوتية : أهو أساس عضوي؟. أم نطقي ؟.. أم سمعي ؟ .. أم وظيفي ؟.. أم نفسي؟ .. أم أنه خليط من بعض تلك ؟ أو منها جميعا ؟ ..

كل ذلك قال به العلماء حين اختلفوا فيما بينهم ، ودفع اختلافهم علماء آخرين إلى إنكار فكرة الفونيم ، بل وإنكار أن يكون صحيحا القول

---

(١) أسس علم اللغة / ٤٧ .

بوجود مستوى للدراسة الفونولوجية إلى جانب المستوى الفوناتيكى ، وقد نشير إلى هؤلاء الرافضين فيما بعد .

ولقد يكون من الصواب أن نمسك بالخيط من أوله حين نراجع معنى هذا المصطلح (Phonème) فى معجم اللغة الفرنسية ، لنجده مستخدماً فى علم الأصوات التقليدى بمعنى : « عنصر صوتى فى اللغة المنطوقة ، يقوم على أساس عضوى [هو تكوينه بواسطة أعضاء النطق] ، وعلى أساس سمعى [وهو الصفة الموضوعية أو الشخصيه للسمع] . » ، ويصنف علم الأصوات الفونيمات إلى حركات وصوامت ، وأنصاف حركات [أو أنصاف صوامت] ، أما فى علم الأصوات التشكيلى (الفونولوجيا) ، فإن هذا العنصر نفسه معتبر وحدةً متميزة للتعبير الصوتى »[1] .

وتدل إشارة المعجم على أن هذا المصطلح قد بدأ يتداول فى النحو الفرنسى منذ عام ١٨٧٣ م ، وهذه هى نفس المرحلة التى ظهر فيها اللغوى السويسرى فرديناند دوسوسور ، فلا يبعد أن يكون هذا المصطلح من استخدام هذا العالم الجليل ، والذى يعتبر حديثه عن (الفونيم) من أقدم مابين أيدينا من بحوث علم اللغة العام .

تحديد دوسوسور للفونيم

يبدأ دوسوسور[2] معالجة مشكلة (الفونيم) بالتفرقة بين جانبين من جوانب النشاط ، يبدوان أثناء الكلام ، هما :

---

(1) Dictionnaire de la Langue Française ,par p. Robert par.
(2) Cours de Ling. générale, p. 36-66.

أولا : الجانب العضوى .

ثانياً : الجانب السمعى (الاكوستيكى) .

ويقول : « إن كثيراً من علماء الأصوات يعكفون على دراسة حدث التصويت ، أعنى إنتاج الأصوات بواسطة الأعضاء (الحلق والفم .. إلخ) ، ويغفلون عن الجانب السمعى ، وهذا المنهج غير صحيح ... لأن التأثير الواقع على الأذن هو الأساس الطبيعى لكل نظرية ... هذا العنصر السمعى يوجد بصورة لاشعورية عندما نبدأ فى النظر إلى الوحدات الفونولوجية ، ذلك أننا بواسطة الأذن نعرف ماذا يكون صوت (b) أو (t) ، مثلا . و لو أننا استطعنا أن نسجل فيلما سينمائيا لجميع حركات الفم والحلق ، فى أثناء نطق سلسلة من الأصوات فربما كان من المستحيل أن نكشف عن الانقسامات فى هذا التتابع من الحركات المنطوقة ، فلا نعرف متى يبدأ صوت معين ، ولا أين ينتهى الآخر ؟ »

ومعنى ذلك أن الصوت فى دراسة دوسوسور لا يتحدد بالوصف العضوى فقط ، لأنه — كما لاحظ — لا يمكن إدراك البداية العضوية للصوت ، أو نهايتها ، من حيث كانت الحركات العضوية أثناء النطق متراسلة ، متواصلة ، يؤدى بعضها إلى بعض دون توقف ، إلا فى نهاية الكلام ، وتزداد هذه الحالة غموضاً بالنسبة إلى الأجنبى عن اللغة .

أما الاعتماد على التأثير السمعى فهو الذى يمكننا من معرفة الوحدات الصوتية ، والتمييز بين بعضها وبعض ، « ذلك أننا فى سلسلة الكلام المسموع يمكننا أن ندرك مباشرة : إن كان صوت معين مازال ممثلا لصفاته أم لا ، فما دام لدينا إحساس ببعض التوافق ، فإن هذا الصوت واحد » .

ولكى نفهم كلام دوسوسور ، نأخذ مثالا من العربية يوضحه، فالكلمة (شَعَرَ) مكونة من حيث الكتابة من ثلاثة رموز، ولكنها من حيث النطق ستة أصوات ، أولها هو صوت (الشين) ، وهو يتميز باحتكاك فى المنطقة الأمامية من الفم ، فادام هذا الاحتكاك مستمراً فإن صوت الشين يظل فى حالة تولد سمعى ، حتى إذا انتهى الاحتكاك فإننا نحكم بأن الشين قد انتهت، ليبدأ من بعدها إصدار صوت الفتحة ،وهكذا فى الصوت الثالث (العين)، وهو عبارة عن احتكاك فى منطقة الحلق مع تذبذب فى الأوتار الصوتية ، يليه صوت الفتحة ، ثم الصوت الخامس (الراء) ثم الفتحة .

فإذا غمض علينا إدراك الحدود العضوية للصوت ، فإن الحدود السمعية يسهل التعرف عليها ، حتى مع عدم معرفتنا للغة التى نسمعها .

ويمضى دوسوسور فى وصفه التحليلى لفكرة الصوت ، وكيفية التعرف على حدوده ، فيذكر لنا أن الأصوات المتتابعة مقيسة بالزمن ، ولكنه ليس زمنا موسيقيا محدد الكمية ، متساوى الوحدات ، بل هو زمن توافقى متميز بوحدة التأثير ، وهنا نقطة البداية الطبيعية لدراسة علم الفونولوجيا .

وهو يسجل أن نظم الكتابة التى عرفتها الإنسانية تختلف فى تسجيل هذه الأزمان التوافقية ، فالأبجدية الإغريقية تخص كل صوت برمز مستقل ، وقد ورث ذلك عنهم اللاتينيون ، ولكن هذا الأساس قد اضطرب فى الكتابات الأوربية الحديثة ، حيث يستخدم رمزان كتابيان ، مثل (Ch) للتعبير عن صوت واحد هو ($\check{S}$) أو الشين، كما يعبر كل من الرمز (C و S) عن صوت السين ، وكما يعبر رمز واحد (X) عن صوت مزدوج هو (KS).

أما الأبجدية السامية فهى تسجل الصوامت وحدها ، دون الحركات[١]، وأما القبارصة فقد انتهوا إلى استخدام رموز ذات دلالة مركبة مثل : Pa, ti, Ko وهم يصفون هذه التكوينات بأنها مقطعية ، وهو وصف غير دقيق ، لأن المقطع يتشكل بصور أخرى مثل : tro , Pak ... إلخ .

ثم ينتهى دوسوسور إلى القول بأن تحديد الأصوات لابد أن يعتمد على الأساسين : العضوى والسمعى : « فتحديد الأصوت فى السلسلة المنطوقة لابد إذن أن يعتمد على التأثير السمعى ، ولكن وصفها لابد أن يعتمد على الحدث النطقى ، لأن الوحدات السمعية فى سلسلتها الخاصة غير قابلة للتحليل ، فيجب أن نلجأ إلى سلسلة حركات التصويت ، وسنلاحظ حينئذ أن الصوت الواحد يقابله حدث واحد خاص به :

فصوت b (زمن سمعى) = صوت b' (زمن نطقى) .

والوحدات الأولى التى نحصل عليها عند تقسيم السلسلة المنطوقة سوف تتكون مركبة من [b' , b] ، وهى التى نطلق عليها : فونيم Phonème .

وبذلك يصل إلى تعريف الفونيم على أنه : « مجموع التأثيرات السمعية ، والحركات النطقية للوحدات المسموعة ، والوحدات المنطوقة ، كل منهما يشرط الآخر » .

ومن الواضح أن تعريف الفونيم على هذا النحو — هو تقريبا — نفس التعريف الذى أخذ به معجم روبير Robert - الذى أسلفناه فى مقدمة البحث ، مما يؤكد احتمال أن دوسوسور هو صاحب هذا المصطلح أساسا ، حين استخدمه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر للدلالة على هذا المفهوم .

ودوسوسور يعنى بتعريفه للفونيم أنه مفهوم مركب ، لابد فى تصوره

---

(١) سبقت دراسة هذه الخاصة فى (مكان الكتابة فى أحداث اللغة) ص ٥٢ .

من اعتبار الجانب السمعى والجانب العضوى ، فكل منهما شرط فى حدوث الآخر ، ولكل وحدة صوتية ، (فونيم) زمن تستغرقه ، لايمكن تصورها بدونه ، فإذا نطقنا مثلا مقطعا فى صورة (ta) فهو مجموع من زمنين متواليين أو هـــو :

امتداد زمنى معين (t) + امتداد آخر هو (a) .

فإذا أردنا فصل هذه الوحدة الصوتية عن الزمن ، فإننا نضعها فى حالة تجريد ،فنتحدث مثلا عن الصوت (t) أوعن النوع (T) مجردا ـ in abstracto.

ولكى نصل إلى حصر الوحدات الصوتية التى تقوم عليها لغة معينة يجب أن نحلل عدداً كافياً من السلاسل المنطوقة فيها ، ليمكن تصنيفها ، ومن أجل هذا ينبغى أن نتجاهل بعض الفروق التى لا تهم من الناحية السمعية ، لنصل فى النهاية إلى قائمة الأنواع ، أو الوحدات الصوتية ، أو الفونيمات .

تحديد تروبتسكوى[1] للفونيم

وقد استطاع هـذا اللغوى أن يقدم بعد دوسوسور دراسة مستفيضة لمشكلة تحديد الفونيم، سواء من وجهة نظره، أم من وجهة نظر كل المدارس التى عرض آراءها، شارحاً، وناقداً، بحيث أغنانا عن الرجوع إلى كثير من المراجع باللغات المختلفة.

وقد وضع تروبتسكوى للفونيم تعريفاً مختصراً، يعتبر تلخيصا لعملية تحليلية قدمها بين يدى التعريف، قال: « الفونيم هو أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس ».

وليس من الممكن فهم هذا التعريف إلا بعرض لمحة عن التحليل الذى قدم له، ذلك أن تروبتسكوى يرى أن كل صوت مكون من مجموعة من العناصر، هى بمجموعها غير قابلة للتجزئة أو التحليل، قال: « من الناحية الصوتية كل (باء) تتمثل فى سلسلة من الحركات النطقية: أولا: تقترب الشفتان، إحداهما من الأخرى، بحيث تغلقان إغلاقا تاما المجال الفموى

---

(١) نيقولاس سيرجيفيتش تروبتسكوى N. S. Troubetzkoy – لغوى مشهور، من أصل روسى، ولد فى موسكو فى ٦ أبريل ١٨٩٠، وكان أبوه أميرا، وأستاذاً للفلسفة بجامعة موسكو، وتولى منصب مدير لجامعتها، وقد حصل نيقولاس على درجة الدكتوراه عام ١٩١٦. وعمل فى نفس الجامعة. ثم تنقل بعد ذلك فى عدة جامعات داخل الاتحاد السوفييتى وخارجه. حتى استقر به المقام عام ١٩٢٢ فى فيينا أستاذاً لكرسى اللغات السلافية. وقد كتب بحوثا كثيرة عن اللغات المختلفة ونظمها الصوتية والفونولوجية. حتى إن الحلقة اللغوية فى براج (عام ١٩٣٨) ذكرت أنه درس حوالى مائتى نظام فونولوجى. وكانت الثمرة الناضجة التى خلفها هى كتابة (مبادىء الفونولوجيا Principes—dePhnologie — الذى توفى قبل أن يكمله فى ٢٥ يونيو ١٨٣٨. أنظر مقدمة الكتاب وقد ترجمه من الألمانية إلى الفرنسية جاك كانتينو طبعة ١٩٤٩.

الأمامى . وفى نفس الوقت : يبدأ الوتران الصوتيان فى التذبذب ، فى حين يخترق الهواء الصاعد من الرئتين الفراغ الفموى ، ويتجمع خلف عقبة الشفتين . وأخيرا . تزول هذه العقبة تحت ضغط الهواء المندفع .

وكل من هذه الحركات مرتبط بأثر سمعى محدد ، بحيث إن أية جزئية من هذه الجزئيات السمعية (Atomes accoustiques) — لا يمكن اعتبارها وحدة فونولوجية ، لأنها تبدو دائما كلاً ، لا يمكن افتراقها فيما بينها مطلقا ؛ فالاحتباس الشفوى ، يليه دائما الانفجار ، الذى يولده دائما الاحتباس ، والجهر ذو الطابع الشفوى الذى يرن بين الاحتباس والانفجار ، لا يمكن أن يظهر دون الاحتباس الشفوى والانفجار .

فالباء كلها إذن ـ تعتبر وحدة فونولوجية ، غير قابلة للتحليل من حيث الزمن ، ومن الممكن أن نقول نفس الشىء عن الوحدات الفونولوجية الأخرى .

هذه الوحدات الفونولوجية التى لا يمكن تحليلها من وجهة نظر اللغة المدروسة إلى وحدات فونولوجية متوالية أصغر — هى التى نطلق عليها (فونيمات)[1].

وبذلك يمكن فهم التعريف المتقدم القائل بأن الفونيم هو « أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس » .

وقد استطرد تروبتسكوى فى تفسير وجهة نظره هذه ـ بأن من الواجب ألا نبسط الأشياء ، فنصور لأنفسنا الفونيمات وكأنها قطع من الأحجار ، تتكون منها الكلمات المختلفة ، لأنه يرى أن كل كلمة تعتبر كلا صوتيا ، بمثابة شبح Silhouette ، والسامعون يتعرفون عليها كما يتعرفون على الشبح ،

(1) Principes de phonologie, p. 37 et sq.

أشبه شىء بتعرف الإنسان على رجل يسير فى الطريق سبق أن رآه ، فهو يتذكر مجموع شبحه ، ولكن التعرف على الشبح يفترض أنه يتميز عن الأشباح الأخرى ، وليس ذلك ممكنا إلا بأن تتميز هذه الأخرى فيما بينها ببعض العلامات . والفونيمات هى إذن العلامات المميزة لأشباح الكلمات ، فينبغى أن يكون فى كل كلمة من الفونيمات بقدر مايلزم لتمييزها عن جميع الكلمات الأخرى ، وهذه الفونيمات المتتابعة خاصة بهذه الكلمة وحدها ، وإن كان كل حرف بمفرده فى هذا التتابع يبدو أيضا علامة مميزة فى كلمات أخرى .

والفرق بين وجود (الكلمة) عند تروبتسكوى ، وبين وجود (الفونيم) هو أن كل كلمة من حيث هى (شبح) تحتوى دائما شيئاً أكبر من مجموع حروفها أو فونيماتها ، هذا الشىء هو (الوحدة) التى تضم هذا التتابع من الفونيمات ، وتمنح الكلمة فرديتها ، بيد أن هذه الوحدة ليست مستقرة فى جسد الكلمة ، ولذلك يمكن تحليل جسد الكلمة إلى فونيمات ، كما يمكن تحليل أى لحن مكون من مجموعة نغمات السلم الموسيقى إلى (النوت) التى يتألف منها السلم ، مع أن اللحن يحتوى زيادة على النوت ـ شيئا يمنحه شبحه الموسيقى الخاص .

وعلى الرغم من أن تروبتسكوى قد أفاض فى تحليل فكرته عن الفونيم ، فقد انتهى فى خاتمة حديثه إلى أن الأساس الذى يقوم عليه تعريف الفونيم ينبغى أن يكون(وظيفته) فى تمييز كلمة عن أخرى ، وقد وضع لهذا التمييز قواعد يمكن تطبيق بعضها على اللغة العربية :

القاعدة الأولى :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، ويظهران فى نفس الإطار الصوتى ، وإذا كان من الممكن أن يحل أحدهما محل الآخر ، دون أن ينتج عن هذا

التبادل اختلاف فى المعنى العقلى للكلمة ـ حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين اختياريتين لفونيم واحد .

ومن تطبيق هذه القاعدة على العربية أن نجد لفونيم (الجيم) صوراً نطقية يمكن أن يحل أحدها محل الآخر دون أى تغيير فى المعنى ، ومعنى ذلك أن هذه الصور الصوتية تنتمى لفونيم واحد هو فونيم (الجيم) .

ولو أننا نظرنا إلى النطق القرآنى للسين فى كلة (مسيطر) ، لوجدناه أحيانا يأتى بالسين مرققة على وجهها ، ويأتى بها أحيانا مفخمة ، فى شكل الصاد ، وهى أصلا سين ، فالصوتان إذن هما صورتان لفونيم واحد ، ما دام التغيير لم يترتب عليه اختلاف فى المعنى العقلى للكلمة .

القاعدة الثانية :

إذا كان الصوتان يظهران تماما فى نفس الموقع الصوتى ، ولا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر دون تعديل معنى الكلمة ، أو دون أن تصير الكلمة إلى الغموض — حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين واقعيتين لفونيمين مختلفين .

ولو أننا طبقنا هذه القاعدة على العربية ، فسنجد أن ارتباط تغير المعنى بتغيير الفونيم هو الفيصل فى تحديد أشباح الكلمات ، فالكلمتان سار وصار — لكل منهما معنى معين ، يختلف عن الأخرى ، لأن كلا منهما تتميز بفونيم خاص هو علامتها ، فالسين والصاد هنا فونيمان ، وكذلك الحال فى الأصوات الأولى من الكلمات :

(باب ـ تاب ـ ثاب ـ جاب ـ خاب ـ ذاب ـ راب ـ ساب ـ شاب ـ صاب ـ طاب ـ عاب ـ غاب) ، فإن هذه الأصوات تعتبر فونيمات مستقلة لأن مجرد اختلافها مع الاتفاق فى بقية أحرف الكلمة ـ يعنى اختلاف المعنى.

القاعـدة الثالثة :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، متقاربين فيما بينهما من الناحية السمعية، أو النطقية ، ولا يبرزان مطلقا فى نفس الإطار الصوتى — فإنهما يعتبران صورتين تركيبيتين لنفس الفونيم[1].

وقد أطلق الدكتور تمام حسان على هذه الفكرة مصطلح التخارج بين أعضاء الفونيم ، فالنونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع ، لأن لفونيم النون صورا كثيرة تظهر كل منها فى موقع معين ، فالنون الساكنة قبل صوت أسنانى (كالثاء) تنطق أسنانية ، والنون الساكنة قبل صوت لهوى (كالقاف) — تنطق لهوية ، وهكذا تتعدد صور النون باختلاف الأصوات التالية لها ، وبحيث لا يمكن فى بيئة معينة أن تحل صورة أسنانية محل صورة لهوية ، وينقل الدكتور تمام عن دانيل جونز قوله : « إن الفونيم فى لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة فى خصائصها ، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها فى نفس البيئة الصوتية ، التى يستعمل فيها الآخر أبدا »[2].

ولكن من الواضح أن تروبتسكوى ، رغم إصراره على تعريف الفونيم تبعاً لوظيفته — قد اعتمد على تحديد الجانب العضوى والسمعى فى وصفه ، وكأنه بذلك يسجل اعترافا بما ذهب إليه قبله اللغوى الرائد فرديناند دوسوسور .

---

(١) السابق ص ٤٧ ومابعدها .

(٢) مناهج البحث فى اللغة — ص ١٢٦ .

ولسوف نرى أن هذا الاتجاه قد ساد مدارس علم اللغة التى قدر لآرائها أن تنتشر وتقنع أجيال الباحثين فى هذا الموضوع .

على أنه قد اتضح من تطبيق القواعد السابقة أن (الفونيم) يتميز بخصائص متوافقة تجعل منه وحدة فونولوجية مغايرة لما عداها من الفونيات، وبذلك يمكن القول بأن الفونيم « هو مجموع الخصائص الفونولوجية المتوافقة ، التى تحتويها صورة صوتية » [١] .

وهذه هى النتيجة التى انتهى إليها تروبتسكوى ، وهى توشك أن تجعل من الفونيم وحدة تجريدية ، تتحقق ببعض خصائصها فى الصورة الصوتية المختلفة ، وهو فعلا ما عبر عنه حين قال : « إن الأصوات المحسوسة التى تبرز فى اللغة ليست سوى رموز مادية للفونيات ... وليست هذه الأصوات هى الفونيات فى ذاتها »[٢] .

وليس بوسعنا أن نثير الآن مشكلة إطلاق مصطلح (فونيم) على الوحدة الصوتية متعددة الصور ، دون الوحدة الصوتية ذات الصورة الواحدة ، أو إطلاقه على كلتا الوحدتين ، فذلك موضوع سوف نعالجه من خلال مناقشتنا التالية لآراء دانيل جونز .

غير أن من الضرورى أن نشير إلى أن تروبتسكوى قد ارتضى تعريف بلومفيلد للفونيم ، وهو القائل بأنه : « أصغر وحدة متميزة » ، وارتضى

---

(1) Principes de Phono. P. 40

(٢) السابق .

أيضا تعريف بهلر للفونيم بأنه : « علامة صوتية فى جسد الكلمة » ، ورأى فى هذين التعريفين رجوعا إلى نفس المنطلق الذى حدد على أساسه تعريفه للفونيم ، وهو أن كل لغة تفترض وجود متغايرات فونولوجية متميزة ، والفونيم مصطلح يطلق على هذه المتغايرات التى لا تقبل الانقسام إلى وحدات فونولوجية متميزة ، أكثر صغرا[١] .

(١) السابق .

التحديد النفسي للفونيم

أدركنا من المناقشة السابقة كيف تقوم فكرة (الفونيم) على أساس عضوى ، أو سمعى ، أو وظيفى ، وهذه كلها أسس موضوعية يمكن لحها فى السلسلة الكلامية المنطوقة .

ويجب أن نقرر هنا أن (الفونيم) فكرة تتصل باللغة المنطوقة ، أى : بالكلام ، الذى يقدم دائما صوراً مختلفة الأداء للفونيم الواحد ، على حين أن الكتابة فى أى لغة لا تستعمل سوى رمز واحد لمجموعة صور الفونيم ، رمز يلخص كل الصور المنطوقة .

وقد ظهر من اللغويين من اعتبر الفونيم فكرة تقوم فى الذهن ، فهى أساسا ذات طابع عقلى تجريدى ، ودور المتكلم فى تحقيقها هو أنه يقوم باستحضارها فى عقله ، ويحاول أن ينطقها فى الكلام[١] بقدر ما تدرب على النطق فى بيئته ، أى : على أساس السليقة ، التى تفترض عدم شعور المتكلم بخصائص لغته عند ممارستها .

وقد وضع ج . بودوان G. Bondouin — تعريفا للفونيم بمصطلحات علم النفس ، لصوغ الفكرة السابقة . فقال : « إنه المعادل النفسى للصوت اللغوى » :

« L'é équivalent Psychique du son du Lanßage » (2)

---

(١) مناهج البحث فى اللغة / ١٢٨ .
(٢) تروبتسكوى السابق .

وتروبتسكوى فى هذا النقد يحاول إثبات أمرين :

أولهما : أن الصوت اللغوى لا يعامل كوحدة مستقلة ، وإنما هو عنصر فى بناء كلى هو حدث الكلام المستمر المسموع ، وذلك انطلاقا من فكرته القائلة بأن الفونيم يتحدد بوظيفته فى التركيب الصوتى المنطوق ، لا بذاته .

وثانيهما : أن العلاقة بين الصوت والفونيم ذات صبغة لغوية ، لا يتدخل فيها أى عامل آخر نفسى ، كما يرى أتباع المدرسة النفسية ، وأننا نستدل على خصائص الصوت الوظيفية بخصائص الفونيم ، لا العكس .

ويمضى المؤلف فى تتبع الأسس النفسية لتفسير الفونيم فينقضها فكرة فكرة ، يقول : « إن من الواجب أن نتجنب اللجوء إلى علم النفس لتعريف الفونيم ، لأنه فى الواقع فكرة لغوية ، وليس فكرة نفسية ، وكل لجوء إلى (الوعى اللغوى) يجب تنحيته عند تعريف الفونيم ، إذ أن (الوعى اللغوى) إما أن يكون استعمالا مجازيا للغة معينة ، وإما أن يكون فكرة غامضة تماما تحتاج إلى أن تعرف بدورها ، وربما استحال تعريفها » .

ولهذا السبب أيضاً رفض تعريف فان ويك Van Wijk ـ الذى نشره عام ١٩٣٦ ، والقائل بأن « فونيمات لغة ما تشكل طائفة من العناصر اللغوية التى توجد فى ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية » ، وهو القائل أيضاً : « إن الفونيمات هى أصغر الوحدات التى يشعر الوعى اللغوى بأنها غير قابلة للانقسام » ـ فربط مفهوم (الفونيم) بأفكار غامضة مثل (الذهن) ، و (الوعى اللغوى) و (الشعور) ـ لا يمكن أن يفيد فى شرحه ، لأن من المستحيل أن نتعمق فى مفهوم عبارة (ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية) ولا سيما إذا كان الأمر متعلقا بلغة ميتة ، كما أن الكشف عما (يشعر به الوعى اللغوى) مشروع شائك وصعب للغاية .

ويخلص تروبتسكوى إلى قوله : « إن الفونيم قبل كل شىء مفهوم وظيفى ويجب أن يعرف بالنسبة إلى وظيفته ، وتعريفه لا يمكن أن يتحقق بواسطة المفاهيم النفسية »[١] .

ولقد يوضع فى إطار هذا النقد رأى إدوارد سابير الذى يستعمل فى مقاله المعنون : (أنماط الأصوات فى اللغة) ـ الاصطلاحُ : «أصوات مثالية» ليقصد الفونيمات من وجهة النظر العقلية ، وهو يقول بأن « هذه الأصوات المثالية التى يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققا فى نظر المتكلم الفطرى من الأصوات الموضوعية نفسها » ، ويقول فى نفس المقالة : « إن السيكلوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة فى نطاق أبسط صامت وحركة »[٢] ، فكل ذلك ينبغى رفضه طبقا للمنهج اللغوى .

وبرغم هذا النقد المرير الذى وجهه تروبتسكوى إلى تفسير الفونيم على على أساس نفسى ، فقد وجدنا ماريو باى يتبنى هذا الأساس ، وهو يقول عن موضوع (علم الفونيمات) : إنه « الأصوات ، أو المجموعات الصوتية المتقاربة ، التى يدرك علاقتها شعور الجماعة التى تتكلم لغة معينة ، والاختبار الموضوعى للفونيمات هو (المغايرة) أو الاختلاف فى المعنى ، الذى يظهر أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر ، مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هى»[٣].

وهو بهذا يجمع بين معطيات التفسير النفسى ، ومعطيات القواعد التى حددها تروبتسكوى لتحديد الفونيم .

ويقول : « إن وظيفة هذا العلم وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من إحساس المتكلمين باللغة »[٤] .

---

(١) السابق/٤٣ (٢) مناهج البحث فى اللغة /١٢٩

(٣) أسس علم اللغة / ٥٠ (٤) السابق / ٤٨

ويعرف الفونيم بقوله : « إنه مجموعة ، أو تنوع ، أو ضرب يضم أصواتا وثيقة الصلة (فونات) ، ينظر إليها المتكلمون على أنها تمثل وحدة واحدة ، بغض النظر عن تنوعاتها الموضعية »[١] .

فالفيصل فى تمييز الفونيم تبعا لهذه التحديدات ، ليس هو الأساس العضوى ، أو الوظيفى ، أو النطقى ، ولكنه (شعور الجماعة) و (إحساس المتكلمين) . وهو ما سبق أن انتقده تروبتسكوى فى آراء بودوان وغيره .

---

(١) السابق / ٤٩ .

تحديد دانيل جونز للفونيم

وتعريف دانيل جونز للفونيم على أنه : « عائلة أو مجموعة من أصوات اللغة المتقاربة سماعا ونطقا ، والتى لا تظهر مطلقا فى نفس الإطار الصوتى » — يحمل ابتداء نقطة ضعف واضحة ، لأنه يقصر (الفونيم) على مجموعة الأصوات المتقاربة ، المحكومة بالسياق الصوتى ، وذلك كفونيم (g) مثلا ، فهو فى الفرنسية ينطق بصورتين تبعا للحركة التالية له ، فإذا جاءت بعده الرموز (a, o, u) فهو كالجيم القاهرية ، وإذا جاءت بعده الرموز : (e, i, y) نطق معطشا ، كالجيم الشامية .

وبذلك نفهم من تعريف دانيل جونز :

أولا : أن الفونيم لابد أن يكون عنوانا على مجموعة أصوات محكومة بالسياق .

ثانياً : أن هذا السياق كتابى أكثر منه نطقيا ، أو كما يقول تروبتكوى : « إن فكرة الفونيم لدى دانيل جونز ذات علاقة وثيقة بمشكلة الكتابة الصوتية » .

ثالثاً : أن الأصوات المفردة ليست فونيمات ، مادامت تنطق بصورة واحدة دائما .

ولقد اصطدم هذا التصور لديه بحقيقة أخرى هى أن الصوت قد يكون ذا صورة واحدة فى إدراك الأذن المجردة له ، ولكنه فى الواقع ، وكما برهن

على ذلك علم الأصوات التجريبى ، مجموعة أصوات ، إذ أن من المستحيل أن ننطق صوتاً معينا بنفس الطريقة ، وفى إطار صوتى مختلف .

وعلى ذلك يصبح كل صوت ، أو على الأصح : كل رمز ـ عنوانا على مجموعة من الصور المنطوقة ، وهكذا مضى دانيل جونز فى تطويره لنظريته عن الفونيم ، فأضاف إلى مصطلح (فونيم) ، و (فون) مصطلحا ثالثا هو : الصوت المزدوج (Phone Dia) ، وقد كان يفهم من هذا المصطلح : « عائلة من الأصوات يمكنها أن تتبادل الأماكن دون تعديل فى معنى الكلمة » وجعل مدلول الفونيم : « عائلة من الأصوات المزدوجة غير القابلة للتبادل » .

وقد سبق أن قلنا : إن لبعض الأصوات صوراً سياقية تتبادل فيما بينها ، كصورتى السين فى كلمة (بسطة ـ بصطة) ، فهذا عند دانيل جونز (ديافون) . ولكن صورة النون قبل القاف لا يمكن أن تتبادل موقعها مع النون الأسنانية ، فمجموع صور النون هو (الفونيم) عنده .

وقد لجأ دانيل جونز ، إلى نظرية الأصوات المجردة (Les sons abstraits) التى طورها البروفسور اليابانى جمبو (Jimbo) ، واللغوى الانجليزى بالمر ـ فى طوكيو ، ومقتضى الأخذ بهذه النظرية أنهم اعتمدوا على السمات المشتركة التى يسفر عنها أداء الأصوات عدة مرات ، رغم الاختلاف فى كل مرة ، وبذلك تنشأ الفونيمات على أساس من التجريد للعائلة الصوتية ، وبذلك يقع دانيل جونز فى خطأ هو أنه يعرف الفونيم بعلاقاته بالصور الصوتية ، وتلك هى الدائرة المفرغة التى أشار إليها تروبتسكوى من قبل ، حين ارتضى عكسها ، الذى يعرف الصورة الصوتية بعلاقتها بالفونيم .

تحديد فريمان توادبل

وآخر المحاولات التى فسرت (الفونيم) هى محاولة فريمان توادبل Freeman Twaddell ، فى بحثه القيم : « on Defining the Phoneme » وقد نظر إلى ما سبق من الآراء والنظريات ، فبدا له (الفونيم) وكأنه شبح مقدس ، أو لغز مطلسم ، أو أقنوم [1] (جوهر لا ينقسم) ، فهو يخشى أن يتحول مفهوم (الفونيم) إلى شىء مبتذل نتيجة كثرة الآراء والنظريات ، أو لعله خشى من معالجة الفونيمات كما تعالج الأشياء التى يملكها الأفراد المتكلمون ، فيبنون بها الكلمات والجمل ، وكأنها قوالب من حجارة ، على ما عبر تروبتسكوى ، ويحسن أن ننقل هنا حديثه [2] :

أراد توادبل ـ درءا لهذا الخطر ـ أن يؤكد بكل قوته الخاصة النسبية للفونيم ، (وأنه مصطلح يدل على التغاير) ، فوضع لهذا الهدف نظريته عن الفونيم ، وهى التى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

« إن التعبير [أى : الحدث الكلامى المحسوس] هو ظاهرة مادية [أى : صوت] ، مرتبط بمدلول محدد . والتركيب الصوتى الذى يتكرر فى تعبيرات مختلفة ، وله دائما نفس المعنى يسمى (صيغة ـ Forme) ، وأى صيغتين يختلف مدلولهما ـ هما من حيث المبدأ مختلفتان أيضا من الناحية الصوتية [باستثناء الجناس النادر نسبياً فى جميع اللغات] ، ودرجة التنوع

---

(١) الأقنوم فى عقيدة النصارى هو الجزء الذى لا يتجزأ ، ويطلقونه على الثالوث : الآب والابن وروح القدس ؛ كل منهم أقنوم ، وهذه الأقانيم الثلاثة تنتهى بعملية تخيل افتراضية الى إله واحد ، على حسب تعاليم الكنيسة . وتعالى الله عما يشركون أويصفون .

(٢) تروبتسكوى السابق .

الصوتى بين هاتين الصيغتين المتميزتين يمكن أن تختلف ، والحد الأدنى من الاختلاف الصوتى بين صيغتين غير متماثلتين يتطابق مع أجزاء التركيب الصوتى المدروس ، ومن مجموعة الصيغ التى يتميز بعضها عن بعض فى الحد الأدنى تتكون المجموعة المصنفة — Class ، هذه المجموعة تتميز بالتركيب الصوتى المشترك بين مجموعة أعضائها ، وإذا كان الحد الأدنى من الاختلاف ينصب تأثيره فى جميع أعضاء المجموعة على نفس الجزء [فى بدء الكلمة أو فى نهايتها مثلا] فإن معنى ذلك أن هذه المجموعة منظمة ، ومن الأمثلة على ذلك :

المجموعة الألمانية :

قشدة = Rahim وجاء = Kam وكسيح = lahm وأخذ = nahm

أو المجموعة العربية : حام ، دام ، رام ، سام ، شام ، صام ، عام . فالعلاقات بين أعضاء مجموعة كهذه هى الحد الأدنى من التعارضات الفونولوجية ، ويطلق فريمان تواديل على هذه التعارضات مصطلح : ميكروفونيم Microphoneme أو الفونيم المصغر ، ففى المجموعة الألمانية تعتبر الأصوات (n, l, k, R.) فونيمات مصغرة ، كما تعتبر الأصوات (ح ، د ، ر ، س ، ش ، ص ، ع) فى المجموعة العربية كذلك ، وهى جميعا تتأثر بوجود (am) فى المجموعة الألمانية ، على حين يتنوع تأثير الفونيمات المصغرة فى (ام) فى المجموعة العربية[١] .

والمقابل الصوتى للفونيم المصغر يحتوى كثيراً من السمات النطقية ، فلدينا مجموعتان شكليتان منسقتان على هذا النحو ، إذا ما كانت العلاقات بين فونيماتهما المصغرة متماثلة ، كما فى المجموعتين الإنجليزيتين :

Pill — Till — Kill — bill
nap - gnat— Knack - nab

---

(١) الأمثلة العربية محاولة منا لتقريب المفهوم موضوع التمثيل .

فهما متقابلتان - لأنه حتى ولو لم تكن الطبيعة الصوتية لفونيماتهما المصغرة من نفس النوع فى الحالتين [لأن P, t, k, - تنفسية فى البداية ، وغير تنفسية فى النهاية] - ومع ذلك فإن العلاقات بين هذه الفونيمات المصغرة التى تحتل نفس المكان فى مختلف المجموعات الشكلية المنسوقة على هذا النحو - تكوّن (ماكرو فونيم **Macrophoneme** - أو فونيما مكبرا) . وهو مايقابل مفهومنا عن الفونيم ، على ما لاحظه ج . فاشيك **J. Vachek**.

وواضح من تقابل المجموعتين الفرق بين الفونيم المصغر ، والمكبر - أن المصغر قليلا مايتعرض للتغيرات الصوتية مع اختلاف المواقع ، على حين أن المكبر يتميز بقدر كبير من قابلية التغير فى المواقع المختلفة ، وليس هذا سوى ما ذهب إليه تروبتسكوى فى تعريفه السابق ، فقد اعتمد على فكرة التعارض ، المرتبطة بالجانب الوظيفى للفونيم ، ولذلك يقول عن محاولة تواديل : « لقد انتهى تواديل بواسطة بعض الحيل المعقدة إلى النتيجة التى وصلنا إليها من طريق أقصر » . ويقول أيضا : « إن تعريفنا لا يحتوى شيئا يفترض أو يثير فكرة (أقنوم الفونيم) ، وكارل بهلر **Karl Buhler** - ينظر إلى الفونيم على أنه (علامة صوتية على وجه الكلمة) وهو تصور يتناسب مع اعتبار الكلمة شبحا ، ويتفق تماما مع تعريفنا للفونيم » .

« والفائدة التى يمكن أن تحققها التفرقة بين الميكروفونيم والماكروفونيم - يمكن أن تتحقق بواسطة نظريتنا عن إمكانية تحييد التعارضات الفونولوجية ، وعن الأرشيفونيم **Archiphonèmes.** أو الفونيمات الرئيسية ، كما يختفى خطر تذرير الفونولوجيا ، وهو الخطر المرتبطه بنظرية الميكروفونيم » .

ويقول تروبتسكوى بمنتهى الاعتداد : « فنحن نعتقد إذن أن النظرية المعقدة للفونيم - التى قدمها فريمان تواديل - لا يمكن أن تحل محل تعريف

الفونيم الذى قدمناه فيما سبق ، وخير ما فعله تواديل هو أنه ألغى بصورة حاسمة جميع الأحكام المسبقةالسيكلوجية ، والحيادية التى تـكونت حول مفهوم الفونيم (سواء عند بعض أنصار الفونولوجيا أو عند بعض خصومها) .

« ولاشك أن طريقته المجردة فى التعبير عن فـكره، والدور الفلسفى لهذا الفـكر ـ يفرضان على القارىء جهداً شاقا يعجز عنه كثير من المعاندين من خصوم الفونولوجيا ، مما يؤدى إلى حالات عدم فهم ، ولقد أدى فعلا » .

« كذلك فإن تأكيد تواديل على أن الفونيم ليس واقعا ماديا ، أو نفسيا ، وإنما هو وحدة مجردة خيالية ـ هذا التأكيد تلقاه ب كولندر B. Collinder ومريجى Merrigi ـ بالـكثير من السرور، من حيث هو رفض محض لمفهوم الفونيم » .

« والواقع أنه لم يفـكر إلا فيما كان فرديناند دوسوسور يعتبره جوهر كل قيمة لغوية ، وهو الوحدة التعارضية ، والنسبية ، والسلبية » .

« فإذا كان الفونيم منتمياً إلى اللغة ، وإذا كانت اللغة منظمة اجتماعية فإن الفونيم إذن قيمة ، وله من نوعية الوجود ما لـكل قيمة » .

هكذا نجد تروبتسكوى شديد الإيمان بقضيته ، وبرأيه فيها ، ناقداً لآراء من تناولها فلم يوافقه ، متصديا لخصوم الفونولوجيا، الذين اتخذوا من إغراق تواديل فى التجريد ذريعة إلى التشهير بالنظرية أساسا .

ولا يعدم تروبتسكوى أن يجد من العلماء من يقدم تعريفا للفونيم يسير فى نفس الخط المنهجى الذى قال به ، فهو يقدمه ويمجـــده ، كتعريف ا.و. دوجروت A. w. de groot القائل بأن : « الفونيم علامة رمزية

فونولوجية ، ذات وظيفة مستقلة ، والوظيفة الأساسية له عندما يتم التعرف عليه وتحديده — هى أن يجعل من الممكن التعرف على الكلمات وتحديدها ، أو تحديد أجزاء الكلمات التى لها قيمة الرمز ، فمن الممكن تعريف الفونيمات على أنها أصغر الأجزاء فى التيار المسموع ، والتى لها هذه الوظيفة» — وإن كان يعتبر اشتراط (التعرف على الفونيم) غير ذى موضوع ، لأن الذى يقبل التعرف هو الكلمات ، لا الفونيمات . فالتعرف ليس أولا ، ولكن التمييز الفونيمى هو الأول ، ثم يليه التعرف كنتيجة منطقيـــة للتمييز ، وهو خاصة سيكلوجية ، على حين أن التمييز خاصة لغوية تتناسب مع مذهبه فى تحديد المشكلة .

وبعد ، فقد أفضنا كثيرا فى عرض هذه المشكلة ، لنقدم من خلالها نموذجاً للبحث الجاد الذى يقدمه علم اللغة الحديث ، من خلال رؤية معاصرة ، ولا ريب أن لهذه الآراء المختلفة نتيجة علمية . هى تأكيد أن جوانب المعرفة الإنسانية متكاملة ، وأن سعيها الدائب إنما هو لإثبات الحقيقة أية كانت صورتها .

والصورة التى نميل إلى الأخذ بها هى أن فكرة الفونيم وسيلة إلى تصنيف الأصوات اللغوية فى مستواها السياق ، وهى أيضاً وسيلة إلى تحليل الصيغ اللغوية على أساس من الأصوات ووظائفها الدلالية ، وهو تحليل لا ينبغى أن يتجاهل اصطلاح أصحاب اللسان ، إلى جانب اعتماده على العناصر المضوية والنطقية فى تحديد الفونيم .

الجغرافيا اللغوية

أهمية علم الجغرافيا اللغوية :

لم يحظ علم الجغرافيا اللغوية بكثير من الأهمية إلا فى السنوات الأخيرة، نظراً إلى وجود ظروف موضوعية حتمت التوسع فى بحوثه . وأهم هذه الظروف هو تقدم وسائل الاتصال والالتقاء ، وقرب المسافات إلى أقصى حد ممكن ، وتحقق الكثير من أوجه التبادل الثقافى والتجارى ، بحيث أصبح أى اضطراب سياسى فى مكان ما لا يؤثر فقط على بلد واحد ، أو منطقة واحدة ، وإنما ينعكس فى مناطق بعيدة من العالم ، ويقول ماريو باى : « إنه ليس مقبولا أو مستساغا الآن أن يعتقد شخص مثقف أن اللغة الأسبانية هى اللغة المتكلمة فى البرازيل ، وأن يتحير أمام صحيفة معروضة فى محل لبيع الصحف ، أهى مكتوبة بالروسية أم البولندية »[1] ، وهو يرى أن الظروف المعاصرة تضطر الدارسين إلى معرفة اللغات الرئيسية فى العالم ، ومكانها على الخريطة ، ومن المتكلمون بها ؟ . وما عددهم ؟ وما قيمتهم من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية .

ولقد يكون من المفيد والضرورى أيضا أن نعرف أن البرازيليين يتكلمون البرتغالية ، وأن اللغة الصينية بلهجاتها المتعددة تملك أكثر من ستمائة مليون من المتكلمين ، وأن الألمانية والروسية يمكن أن تستخدما كلغات بديلة

---

(١) أسس علم اللغة/ ١٧٥

فى المجر ، وفى تشيكوسلوفاكيا ، وأن اللغة الرومانية متفرعة من اللاتينية، وأن اللاتينية متفرعة بدورها من الأسرة الهندية الأوربية[١] .

فهذه كلها معلومات عامة يلم بها المثقفون ، كما يلمون ببعض المعلومات أو الفروق الصوتية ذات الطابع العام .

ولكن الذى أصبح يواجه الإنسانية فى عصرنا هو ما لجأت إليه القوى الكبرى فى العالم من محاولة تغيير الطبيعة اللغوية للمناطق التى تفرض عليها نفوذها ، فأحيانا يراد الإفادة من اللغات الموجودة ، وأحيانا أخرى يراد إحلال غيرها محلها ، وربما كان أكثر الناس حاجة إلى تعلم اللغة الغريبة رجال المخابرات ، الذين يحتاجون إلى تتبع الأخبار فى مناطق نائية ، أو خطيرة فى العالم .

وقد يشارك هؤلاء فى نفس الاهتمام رجال البوليس الدولى ، وقوات الأمم المتحدة ، ورجال الدبلوماسية : « إن هؤلاء يجب أن يلقنوا بعض معلومات عن لغات مناطق أخرى ، ربما تعرضوا للانتقال المفاجىء إليها ، وأهم من هذا ضرورة إعداد دراسات مفصلة ، وعمل إحصاءات عن اللغات والأمية ، والمركز التعليمى لمناطق العالم المختلفة ، وكذلك إعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم أن يسايروا التطورات السريعة المتوقعة فى هذا الحقل ، وهذه المعلومات أكثر فنية مما قد يبدو للنظرة السطحية »[٢] .

---

(١) السابق .
(٢) السابق /١٨٦

الأطلس اللغوى ضرورة حضارية :

ومن هذا يظهر لنا أن الاهتمام بالجغرافيا اللغوية يتزايد من آن لآخر ، وأن من الواجب أن نأخذ فى اعتبارنا إجراء مسح لغوى شامل للهجاتنا العربية ، وما يستجد على أرضنا من تأثيرات وافدة ، سواء فى نطاق المفردات أو التراكيب ، وذلك لملاحقة التطورات المستمرة فى ميدان الدراسات اللغوية وفى ميدان نشر الوعى اللغوى على مساحات جديدة من الكرة الأرضية .

إن الرسالة الحضارية للغة العربية تتجاوز قطعا حدود الوطن العربى ، إلى حيث ينبغى أن تزحف العربية فى إفريقيا الباحثة عن لغة إفريقية متحضرة ، وليس سوى العربية يمكن أن يحقق هذا الهدف الاستراتيجى الهام ، لأن اللغة فى هذا المجال تستخدم كوسيلة تفاهم مشترك بين الشعوب التى عانت من الخضوع للاستعمار ، والإكراه على استخدام لغاته الأوربية ، على حين تجد الشعوب الإفريقية لغاتها المحلية متأثرة باللغة العربية ، قريبة الشبه بها ، ولكن للعربية مرونتها وتفوقها الحضارى والتاريخى عليها .

وإلى جانب أن العربية أداة للتفاهم المشترك ، فهى أيضا حاملة لرسالة الإسلام ، الذى ينبغى أن يزحف فى موجة تبشيرية جديدة ، لتنوير شعوب إفريقيا من الناحية الدينية والفكرية ، وهذا فى حد ذاته هدف عظيم ، لأنه يعنى محاصرة أعداء العروبة والإسلام فى مناطق تأثيرهم ، حيث تمرع الصهيونية والصليبية فى أرض إفريقيا دون منازع ، لتضلل شعوبها ، وتشوه صورة الصراع المعاصر بين العرب والصهيونية فى فلسطين .

الأطلس اللغوى ضرورة علمية :

هذا من الناحية الحضارية ، أما من الناحية العلمية الخالصة ، فإن وجود أطلس لغوى للهجات العربية سوف يكون أعظم خطوة . تسجل واقع هذه الأمة ، للتاريخ ، كما أنه سوف يزود الباحثين بأخصب مادة ليجروا بحوثهم انطلاقا مما يقدم من إحصاءات ، ولما يرسم من حدود ، ولما يقدم من معلومات لا تتسنى للباحث الفرد ، ولعله أن يسهم فى وضع مشكلة التقريب بين اللهجات موضع الحسم ، حين يفتح النوافذ على اتساعها بين اللهجات المختلفة ، فتتحول إلى لهجة موحدة مثقفة تتلاشى المسافة بينها وبين اللغة الفصحى الحديثة.

ويذكر بعض الباحثين أن عمل أطلس لغوى للغة العربية سيحدث ثورة فى كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية ، لأنه سيكمل دون شك الدراسات التى تعتمد على النصوص القديمة ، حين يكشف عن التطورات المتعلقة باللهجات ، وباللغات الشعبية العصرية ، وسيكون لهذا الأطلس الفضل فى اطلاعنا على تاريخ علم الأصوات ، والتغيرات التى أصابت اللغة العربية فى الأماكن المختلفة التى غزتها ، وعن مدى انتشارها وتأثرها بالمراكز الثقافية ، وتنوع مفرداتها ، إلى غير ذلك من الكشوف التى لا يمكن أن تتم إلا إذا جمعت هذه المواد ، إنه سيكون عملا ثقافيا من الطراز الأول وسيكون تحقيقه عنوان مجد وفخار فى تاريخ الثقافة العالمية[1] .

ومن أهم الأطالس التى تمت للهجات العربية أطلس المستشرق برجشتراسر عام **١٩٥١** ، وبه ما يقرب من ثمانين خريطة ، كما تم عمل أطلس لغوى

(١) علم اللغة : مذكرات الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ص ٢٦–٢٧ .

للجمهورية الجزائرية . أما أطالس اللغات الأخرى فكثيرة ، منها ما وضع لفرنسا ، ولإيطاليا ، ولهولندا ، ولرومانيا ، ولألمانيا والنمسا ، ولأمريكا الشمالية ، ولكورسيكا . . الخ . .[١] .

ولا ريب أن ذلك أمر ممكن الحدوث فى مجال اللغة العربية ، ولهجاتها الحديثة بصورة شاملة . بل إن هذه القضية لتفرض نفسها على جهود العلماء والباحثين فى مجال الدراسات اللغوية الحديثة ، فى هذه المرحلة الكفاحية من تاريخ أمتنا العربية ، فنحن أمة واحدة ، تربطنا روابط كثيرة ، منها العربية ، لغة الدين ، ولغة الحياة ، غير أن الاستعمار قد تربع فى وطننا العربى دهرا طويلا ، استطاع خلاله أن يقسمه إلى دويلات ، وأثر هذا التقسيم على اللهجات المحلية ، فتطورت اللهجات تطوراً كبيرا ، حتى أصبح بعضنا لا يفهم كلام بعض .

ولقد حضرت منذ سنوات إحدى المسرحيات التى قدمها المسرح الكويتى بالقاهرة[٢] فلم أستطع فهم مايقال باللغة الدراجة الكويتية ، إلا بشق النفس ، ولعلى كنت أسعد حالا من غيرى من المصريين الذين حضروا الحفل ، فكانوا يضحكون أحيانا مجاملين فقط ، لا منفعلين بالحدث المسرحى ، أو بالحوار الدائر بين أبطال المسرحية .

هذا التباين اللهجى بحاجة إلى أن يدرس دراسة علمية دقيقة ، تبرز سماته وتحدد أبعاده ، ثم تصف الطريقة التى يمكن بها تقريب الشقة بين هذه اللهجات المتباينة .

---

(١) السابق ٣١ .
(٢) كان ذلك قبل إعارة المؤلف لجامعة الكويت عام ١٩٦٩ .

والوسيلة الوحيدة إلى هذه الغاية هى عمل (الأطلس اللغوى) الشامل الذى يحدد الظواهر الأساسية فى الاختلاف اللهجى ، والتنوع اللغوى ، فى الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج . وليس عمل هذا الأطلس بالأمر اليسير ، إذ أنه يقتضى جيشا من الباحثين اللغويين الذين يقومون بمسح البيئة العربية فى سائر الأوطان ، مسحا شاملا ، عن طريق قوائم الأسئلة ، وتسجيل النماذج الأدبية والفلكلورية ، وقياس مدى انتشار الظواهر المختلفة ، ودرجة أصحابها من الحضارة ، والبداوة ، والثقافة العلمية والاجتماعية ، ومستوى المجموعات اللغوية المعيشى ، ووعيها التاريخى .

ولا شك أن هذه المهمة يمكن أن تشغل مئات من الباحثين سنوات عديدة ، إذا ما أتيحت لها الوسائل المادية ، من الأجهزة والتكاليف والمعونات الرسمية والشعبية ، ومن مستلزمات هذه العملية أن تنهض وسائل الإعلام بدورها الحاسم فى توعية الجماهير بقيمة هذا المسح الجغرافى اللغوى ، وأثره فى تأكيد أمل الوحدة ، ومشاعر القربى بينها على تنائى الأوطان .

ومن المؤلم حقا أن نجد بعض باحثينا يحاولون سنوات أن يدرسوا لهجة أو مجموعة لهجية فى قرانا ، فلا يستطيع أحدهم أن ينهض بذلك العمل العلمى إلا بشق النفس لضعف الإمكانات المادية ، وهو أمر يدل على أننا بحاجة أولا إلى التبصير بقيمة هذه الأبحاث الجادة ، ومناشدة المسؤولين عن الثورة الفكرية والشعبية فى بلادنا أن يولوا هذا الجانب عناية تليق بأملنا فى الوحدة المنشودة بين أرجاء الوطن العربى ، الوحدة التى تتحد فيها الألسنة ، وتختفى الفروق اللهجية الموغلة ، وتتقارب فى ظلها المشاعر والقلوب . وهو أمر نرجو أن نبلغه عما قريب .

على أننا نحذر هنا من خطأ يقع فيه بعض الباحثين فى دراستهم لبعض

اللهجات ، حين يعاملون بعض أجزاء اللهجة فى مناطق معينة على أنها لهجة بذاتها ، غافلين عن بقية المساحة التى تشغلها اللهجة فى واقع الأمر . إن معنى هذا أن يقع الباحث فى أخطاء نتيجة عدم الاستقرار الكامل ، أو نتيجة التعميم القائم على جزئيات لا تمثل المجال اللغوى جغرافيا .

كما ينبغى على الباحث اللغوى أن يتجرد من تأثير العوامل السياسية أو الشخصية على بحثه ، لأن تدخل هذا التأثير يفرض عليه نوعا من تملق الأوضاع الخاصة التى تضعف لديه طابع النزاهة فيما يصدر من أحكام ، ولذلك أمثلة لا مجال لذكرها هنا .

وإذا كان سوسور قد ذهب إلى التفرقة بين الوجود الفردى للغة فأطلق عليه (الكلام) ، وبين الوجود الجماعى لها فأطلق عليه (اللسان) ـ فإن من الواجب أن نفرق أيضا بين هذه الكلمات الثلاث، التى سوف تتردد كثيرا خلال دراستنا .

فنحن نقول مثلا : إن شعب مصر يتكلم العربية ، كما أن شعب انجلترا يتكلم الإنجليزية ، مشتركا فيها مع الشعب الأمريكى .

فما العلاقة الاجتماعية بين مفهوم كلمة (شعب) ومفهوم كلمة (لسان) أو لغة معينة ؟

وبعبارة أخرى : أيمكن أن نتصور انطباق الحدود السياسية لشعب معين على الحدود اللغوية لنفس الشعب ؟

بالطبع لا . . وأبسط ما يصدق هذا النفى أن نجد العربية مشتركة بين عدد كبير من الشعوب التى تقطن تلك الرقعة الواسعة ، من المحيط الأطلسى ، إلى الخليج العربى ، بل إلى عمق كبير من الصحراء الكبرى داخل إفريقيا ، وتلك مساحة تضم أكثر من عشرين دولة، لكل منها حدود سياسية مستقلة، ولها جميعا حدود لغوية واحدة .

ونجد أيضاً أن اللغة الإنجليزية مشتركة بين جماعة من الشعوب التى لا تنتمى إلى الشعب الإنجليزى ، ومنها الشعب الأمريكى الذى هو جملة أخلاط من

المهاجرين . من شتى أصقاع العالم ، كما يتحدثها الهنود ، وشعوب كثيرة فيما كان من المستعمرات البريطانية فى إفريقيا .

وعلى صعيد آخر نجد اللغة العبرية لغة مشتركة بين السكان فى جزء من فلسطين المحتلة ، على الرغم من تعدد جنسياتهم ، واختلاف انتمائهم .

فهذه أمثلة للغة حين تتجاهل الحدود السياسية ، لتجعل من دول ذات قومية واحدة ، أو من أخلاط ذوى قوميات متعددة ـ وحدة لغوية واحدة .

وفى مقابل ذلك نجد شعبا واحداً يتكلم لغات متعددة ، ومن أمثلة ذلك الشعب السويسرى ، الذى يتحدث فى جانبه المجاور لألمانيا بالألمانية ، ويتحدث فى جانبه المجاور لفرنسا بالفرنسية ، كما يتحدث الشعب الهندى اللغات الأردية والهندية والإنجليزية .

وقد نجد شعبا واحدا ، داخل حدود سياسية مستقلة يتحدث لغة واحدة وهو أمر واضح فى بعض البلدان الإفريقية ذات الطبيعة القبلية .

وهكذا لا نستطيع القول بانطباق الحدود السياسية على الحدود اللغوية فى كل حال ، على الرغم من أن اللغة عنصر رئيسى فى بناء شخصية أى شعب من شعوب الأرض ، وليس على ظهر الأرض قومية لا تتخذ من اللغة أساسا توحد به بين رعاياها ، وإذن فليس بوسعنا أن نطابق بين مفهوم (اللغة) المعينة ومفهوم (الشعب) ، وكل الذى نستطيعه هو أن نحاول فى ابتداء دراستنا للغة معينة أو لهجة ـ تحديد « الجماعة اللغوية » التى نقصد إلى دراسة لسانها ، بحيث يمكننا أن نطمئن إلى أن التحديد الجغرافى للجماعة اللغوية

متوافق مع التحديد اللغوى لوجودها ، وحينئذ نستطيع أن نقوم بدراستنا للغة هذه الجماعة ، دون أن نجد صعوبات ذات طبيعة غير لغوية تحول بيننا وبين هذه الدراسة ، وذلك مع ملاحظة أن (الجماعة اللغوية) تصدق كمصطلح على كل جماعة نقصد إلى دراسة لسانها ، سواء أكانت فى صورة أمة ، أم فى صورة قبيلة ، وسواء أكان موضوع الدراسة لغة كاملة ، أم مجرد لهجة من لهجاتها .

المنهج المتبع قديما وحديثا

عرفنا من قبل أن الدراسات اللغوية الحديثة تعنى أتم العناية بدراسة الكلام المنطوق ، سواء أكان لغة عامة يتحدث بها مجموع المواطنين فى أمة من الأمم ، كالعربية فى الوطن العربى ، أم كان لهجة ينطقها سكان قطر أو مدينة أو قرية معينة فى هذا الوطن ، كعامية القاهرة ، أم كان لغة خاصة ببعض الطوائف ، أو الحرف والصناعات ، كذلك الذى يدور بين النجارين ، أو النشالين .

ويحاول الباحثون فى علم اللغة أن يتابعوا هذه المستويات اللغوية ، فى وجودها ، وفى تطورها ، وذلك بدراستهم للأصوات ، وللمفردات ، وللمعانى ، ولطرق الاشتقاق ، وللتراكيب وطرق بنائها .

غير أن الظواهر اللغوية لا تطرد على نسق واحد فى المجال اللغوى ، بل قد تعترى الصورة الأصلية (المفترضة) بعض الانحرافات الفردية ، التى تتطور لتصبح أحيانا تقليداً اجتماعيا ، يفرض على اللغة وضعا جديدا ، فى نطاق الجماعة اللغوية التى تعيش فى صعيد مشترك .

ومن الواجب أن يقوم البحث اللغوى بدراسة هذا التطور دراسة تنظيمية وتحليلية ، تقيس مداه ؛ وتحدد تأثيره ، وتبين أهميته فى نمو اللهجة أو انحطاطها ، والخطوة الأولى لهذا الغرض هى محاولة تحديد أبعاد الظاهرة اللغوية ، تحديدا جغرافياً ، قبل إجراء أية دراسة من هذا القبيل ، فليست الظواهر اللغوية طليقة بلا حدود ، وإنما هى خاضعة دائما لمعامل الزمان

والمكان، وهذا العامل ذو تأثير كبير على وجود الظاهرة ، وعلى تطورها ، تماما كتأثير العامل الاجتماعى .

ولقد نجد فكرة الجغرافيا اللغوية لدى اللغويين العرب القدامى ، ولكنها كانت آنذاك غائمة ، وذلك حين يأخذون رواية اللغة عن الأعراب فى البوادى ، فينسبون ما يروونه إلى قائله ، وإلى قبيلته . وحين يضعون هذا المروى فى مقابل ما يروونه من نفس المستوى عن بدوى آخر ، من قبيلة أخرى ، وحين يميزون فى رواياتهم بين بعض القبائل التى يصفونها بالفصاحة ، وهى قبائل شمالى الجزيرة ووسطها وشرقيها ، فى مقابل قبائل الحدود والتخوم ، التى يرون أن لغاتها تأشبت (أى فسدت) ، بتأثير القبائل المجاورة ، فقبائل اليمن متأثرة بلغة الحبشة ، وقبائل لخم وجذام متأثرة بمصر وباللغة القبطية ، وقبائل الغساسنة أو المناذرة متأثرة بمجاوريها من الفرس والرومان .

وهكذا نجد أن فكرة وضع الحدود بين اللهجات وقبائلها ليست محدثة ، كما يظن بعض الدارسين ، وإنما هى قديمة ، قدم البحث اللغوى العربى ، غير أنها كانت - كما قلنا - غائمة ، لأنها لم تأخذ صورة علمية صارمة تهتم بمحاولة وضع منهج للباحثين اللغويين ، كما تهتم بمحاولة رسم خرائط مفصلة عن وجود الظواهر وانتشارها وهى ، خرائط تؤدى فى نهاية الأمر إلى تكوين الأطلس اللغوى ، الخاص بلهجة أو مجموعة لهجات ، أو بلغة ، أو مجموعة لغات .

هذه الفكرة الأخيرة هى هدف الدراسات اللغوية الحديثة ، وبخاصة حين ترى أن تقوم بدراسات مقارنة بين اللهجات المختلفة من لغة واحدة ،

أو بين اللغات المختلفة من فصيلة واحدة . وقد تعددت محاولات الباحثين والعلماء فى هذا المجال ، إلى أن جاء سوسور ليحدثنا عما أسماه بعلم اللغة الجغرافى، Linguistique Géographique[1] وهو العلم الذى يدرس العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها ، أى أنه يترك علم اللغة الداخلى ، ليدرس علم اللغة الخارجى .

وهو يقرر فى بدء دراسته لهذه المشكلة أنه إذا كانت الاختلافات اللغوية تخفى عن أعين الباحثين فى نطاق الزمان ؛ فإن هذه الاختلافات تقفز إلى عين المرء بحسب المكان ، مهما كان ضئيل الحظ من الثقافة ؛ بل إن البدائيين أنفسهم يدركون ذلك حين يتصلون بالآخرين ، من القبائل المجاورة التى تتحدث بلسان آخر ، وبفضل هذه المقارنة يدرك الشعب ، أى شعب ، مثله المختار فى اللغة .

ويستطرد سوسور فيقدم لنا دراسة عميقة عن (تنوع اللغات واختلافها)، وعن (تعقد الاختلافات الجغرافية) ، وهو فى هذا الفصل يدرس قضية تعايش لغات كثيرة فى مكان واحد ، وقضية اللغة الأدبية واللهجة المحلية ، ثم يدرس فى فصل مستقل عوامل الاختلاف الجغرافى ، وأثر الزمن فى هذا الاختلاف ، وتأثيره كذلك فى الرقعة الجغرافية ، ثم يمضى إلى أن يقرر أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ، بل إن هنالك تدخلا فى هذه الحدود ، وهو شأن اللغات أيضاً .

---

(١) سوسور Cours de Linguistique Générale، ص ٢١٦ .

وجاء من بعده تلميذه اللغوى الكبير أ . مييه[1] ليقدم لنا قواعد المنهج الذى ينبغى اتباعه عند اللجوء إلى هذا المستوى من البحث فى اللغة ، من وجهة النظر الفرنسية ، كما قدم لنا نماذج من التطبيق العلمى لمنهجه ، وبذلك استقرت قواعد المنهج المقارن فى هذا الجانب الهام من الدراسة تحت اسم (الجغرافيا اللغوية)
La géographie Linguistique

الأطلس الفرنسى :

ويجدر بنا أن نعرض حديثه فى شىء من الوضوح ، وإن كان الاقتباس طويلا بعض الشىء ، إلا أنه حديث علمى يعبر عن تجربة غنية نصف جهود اللغويين الأوربيين فى هذا المجال ، قال : « يهتم اللغويون ، منذ أن يشرعوا فى وضع أوجه اتفاق محددة وقياسية بين الأحداث الصوتية والصرفية التى تحتويها (لغة مشتركة) ، والتى تحتويها لغات أدنى منها رتبة - يهتمون بالبحث عن نماذج لغوية صرفة ، وموحدة ، بحيث يمكن للقواعد أن تنطبق عليها بدقة . وتنطوى اللغات الكبرى على عناصر شديدة الاختلاف ، ومن المقرر أن اللهجات ذاتها لا تعرف الوحدة .

لقد فكر اللغويون فى أن الكلام الشعبى الذى يلحظ فى قرية محدودة المساحة يمكن أن يقدم لنا هذه الوحدة العنصرية التى يحتاج إليها اللغوى ، فقاموا بدراسة كلام القرى .

وقد قاموا بعمل إحصاءات على مستويات من الكلام شديدة التنوع والاختلاف ، وبعض هذه الإحصاءات موجز وسطحى ، وبعضها الآخر مفصل وعميق ، وقد أدت الإحصاءات المحددة إلى معلومات هامة يمكن بها

---

(١) أنظر : أنطوان مييه **Methode comparatif en Lingu. historique**

التعرف على نموذج اللغة تعرفا دقيقا ، وهى ذات فائدة قصوى بالنسبة إلى علم اللغة العام .

بيد أن عالم المقارنات اللغوية ، الذى يريد أن يؤرخ لمجموعة لغوية معينة — لا تكفيه الإحصاءات الدائرة حول لهجات الخطاب ، وهى صعبة التناول ، ذلك أننا نجد فى مجال متوسط المساحة ، كالمجال الغالى الرومانى Gallo-Roman أكثر من ثلاثين ألف قرية ، تصلح لهجاتها موضوعا للوصف ، وبذلك تتجاوز المهمة بصورة واضحة مستوى القدرة على العمل ، والموارد المادية التى يتحكم فيها اللغوى » .

وما زال مييه حتى الآن يعالج موضوع اختيار المجال الذى تدرس فيه الظاهرة اللغوية ، وهو ما واجه الباحثين ، ومساعديهم بصعوبات كثيرة ، أهمها كثرة عدد القرى ، التى أربت على أكثر من ثلاثين ألف قرية .

وقد كان السبب فى هذه الكثرة أن البحث كان يريد أن يغطى مساحة كبيرة جداً من الأوطان الأوربية ، وهو أمر شبيه بما إذا أردنا هنا أن نجعل مجال بحثنا رقعة الوطن العربى كله ، من المحيط إلى الخليج .

وإذا كنا حتى الآن ما زلنا عاجزين عن مسح البيئة اللغوية فى مصر . بطريقة علمية منظمة ، وإذا كنا ومازلنا نجتزىء فى بحوثنا اللغوية بمجرد الأمثلة التى نقتبسها من الاستعمالات المألوفة والجارية ، دون أن نتعمق باطن الريف المصرى ، فكيف بنا لو أردنا أن ندخل فعلا إلى عملية المسح الشامل؟ وما حجم الإمكانات التى يرجى أن تتاح للمشرفين على هذا المسح ، سواء من المساعدين اللغويين ، أم من أجهزة التسجيل ؟ .

ولقد يلقى ضوءاً أكبر على صعوبات هذه العملية ما يقرره مييه بعد ذلك من غزارة المعلومات المجموعة : « فالذى نفترضه واقعا هو أن اللغوى سوف يكون عاجزاً عن التصرف فى ذلك الحشد من المعلومات اللغوية ، التى ربما احتوت تكراراً لا نهاية له . فرغم أن كل قرية لها خصائصها المقتصرة عليها ـ نجد أن الأحداث والنماذج اللغوية تتجمع فى المجالات الواسعة .

فهذا من ناحية كثرة المعلومات المجموعة . وأما من ناحية نوعية هذه المعلومات ، فإن هناك صعوبة أخرى ، هى أن المعلومات التى نتلقاها من مساعدين مختلفين ليست متماثلة تماما فيما بينها ، وإذا حدث أن الاستقصاء لم يكن منظما تبعا لقواعد موحدة بالنسبة إلى المنطقة المدروسة بأكملها ، فسنجد أن كل إحصاء يقدم بطريقة مختلفة ، وأن الأحداث اللغوية التى يحتويها أحد الإحصاءات لا تسهل مقارنتها بأحداث إحصاء آخر ، بل إنه مع فرض أن التحقيق قد تم منظما ، وأن الإحصاءات قد أجريت بطريقة موحدة ـ وهو أمر نادر ـ فإن المساعدين لا يستطيعون أن يلاحظوا الأحداث اللغوية ، ولا أن يسجلوها بطريقة واحدة . بل إنه مما لا يمكن تحاشيه أن نجد بعض الباحثين يزيدون فى منطقة ، ويقلون فى منطقة أخرى ، كما أن كثافة الملاحظين أمر لا يقارن باختلاف الباحثين .

وفى نهاية الأمر نجد أن اللهجات لا وحدة لها . بالقدر الذى يبدو لنا لأول وهلة ، فالأفراد المتكلمون فى إحدى القرى ، حتى لو كانت صغيرة ، تتنوع ألسنتهم غالبا ، تبعا للسن ، وللوضع الاجتماعى ، وللاهتمامات . الخ . وليس كل المتكلمين من أصحاب القرى ، وليسوا جميعاً متساوين فى الولاء للعرف المحلى .

فلو أن إحصاء ما لإحدى اللهجات المحلية راعى كل هذه الفروق الفردية، لأصبح معقداً يعسر استخراج شيء منه يصلح للمقارنة اللغوية. ولو أنه أغفلها فلن يعطينا فكرة صحيحة عن حالة اللهجة ، إذ أنه سوف يبسط الأمور تبسيطا متعسفا ، وسوف يقعّد ويخطط شيئاً لم يصفه .

وهكذا يصور مييه كل توقعات الصواب ، واحتمالات الخطأ فى أية عملية للمسح اللغوى يراد إجراؤها فى بيئة تتصف بالاتساع والتنوع ، بل والتضارب فى أكثر الأحيان ، وفى بيئة كالبيئة العربية لابد أن نتوقع الظاهرة ونقيضها ، سواء فى مستوى الأصوات ، أو فى مستوى الظواهر الصوتية ، كمواقع النبر ، وطريقة التنغيم ، وذلك لتراحب المجال الجغرافى واختلاف المؤثرات الخارجية فى اللهجات المحليـــة ، ففى الشمال الإفريقى يغلب التأثير الفرنسى ، وفى بعض البلدان كليبيا ، يبرز التأثير الإيطالى ، وفى بعضها الآخر يتجلى التأثير الانجليزى ، على حين تقف بلدان أخرى بمنأى من عوامل التأثير اللغوى نظرا لعزلتها . وهى مناطق كثيرة فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مقدمتها اليمن الشمالية فى جنوبى الجزيرة .

تنفيذ المنهج :

ويستطرد الأستاذ مييه فى عرض الشروط الواجب توفرها عندما يراد دراسة مجموعة من اللهجات على هذا النحو ، فيقول : فإذا أريد الشروع فى دراسة مجموعة من اللهجات الحديثة بالطريقة المقارنة فإن البحث يجب أن يكون منظما بحيث يمكن أن يستخدم فى يسر عند المقارنة .

فيجب أولا : أن تكون لدينا ملاحظات موزعة بشكل متساو على مجموع المجال موضوع الدراسة ، والمثل الأعلى فى هذا الباب أن نلاحظ جميع القرى .

غير أنه إذا كان مجال البحث عاديا ، حيث تتجمع لهجات متماثلة على صعيد ذى امتداد معين ، وحيث لا تختلف لهجة قرية من القرى عن لهجة جارتها اختلافا جوهريا — فإنه يكفينا أن نفحص عدة قرى نختارها بصورة اعتباطية ، وبحيث تكون لدينا شبكة من الملاحظات التى تغطى البلد بأكمله ، وتقدم لنا (عينات) من جميع النماذج . وكلما كانت الشبكة ضيقة المسافات ، أعنى : دقيقة ، قل احتمال أن تفوتنا جزئيات مهمة ، وكنا واثقين من وضع حدود مضبوطة لكل حدث من الأحداث اللغوية .

غير أن أهم شيء بالنسبة إلى المقارن اللغوى هـــو أن يبدأ بالعناصر والمعلومات التى تسمح له بأن يقوم بمجموع المجال اللغوى بطريقة متعادلة :

ويجب ثانيا : أن تكون المعلومات متماثلة ، بعضها مع بعض ، ومن أجل هذا الهدف يجب أن يكون التعليم الذى يقدم فى هذا الصدد منصبا على أحداث تنتمى إلى نظام واحد ، كأن يدور حول كلمات ذات صيغة واحدة ، أو صيغ متعددة لكلمة واحدة ، تنتمى إلى اللغة المشتركة فى المجال كله ، أو كلمات ذات معنى واحد ، وصيغ واحدة ، أو صيغ نحوية ذات قيمة واحدة . . الخ . .

ولكى نقوم بحق هذه الضرورة المزدوجة يجب أن نضع قائمة بالأسئلة التى توجه إلى جميع القرى ، والتى سوف يدور حولها البحث : فنذكر مثلا الطريقة التى تنطق بها الجمل المعينة فى كل قرية من قرى البحث اللغوى .

ولهذه الطريقة المعتمدة على قوائم الأسئلة عيوب خطيرة :

ذلك أن اللغة التى يصاغ بها السؤال ، والتى هى أساسا اللغة العامة فى

البلد توشك أن تؤثر على الفرد القروى ، فتحوله عن لهجته الخاصة — فلكى نحصل على إجابة واحدة يمكن أن نسأل فردا واحدا .

وبما أن اللهجة المحلية ليست واحدة فإن هذا الفرد عاجز قليلا أو كثيرا عن تمثيل مجموع خصائص اللهجة ، (أى أنه يعطينا نموذجه الخاص المنتمى إلى لهجة قريته) ، ولاريب أن هذه الطريقة غير محكمة ، وتقريبية ، غير أنها الطريقة الوحيدة الممكنة .

ومن الممكن أن نتصور طريقتين لعمل البحث اللغوى :

فاما أن نعد قائمة تقدم فى المجال اللغوى ليجيب عنها شخص تتمثل فيه الخصائص اللغوية بقدر الإمكان ، ليشير إلى الوجه الذى تنطق به الكلمة فى لهجته ، كما اعتاد هو أن ينطقها ، دون تأثر بغيره[١]، وإما أن نرسل باحثا[٢] يسأل فردا معينا حول نقطة يراد بحثها ، ثم يذكر بنفسه الإجابة ، وهذه هى الطريقة التى اتبعت لعمل الأطلس اللغوى الخاص باللهجات الغالية الرومانية Callo-Romains ، وهو الأطلس الذى قام به الأستاذم. اد مونت ، حين اصطحب معه قائمة بأسئلة أعدهـــا له الأستاذ م . جييرون ، فزار وحده جميع القرى التى كان ينبغى بحثها ، واختارا فردا واحدا ، من كل منها ، وذكر بنفسه الوجه الذى يؤدى به ذلك الفرد ما احتوته القائمة من جمل .

وفائدة هذه الطريقة الثانية أنها تستقدم شهوداً متماثلين بقدر دقيق فيما

---

(١) سوف يأتى أن هذه هى الطريقه التى اتبعت فى وضع الأطلس اللغوى الألمانى .
(٢) هذا هو النموذج الفرنسى فى إعداد الأطلس اللغوى .

بينهم ، وأنها لاتعنى بالانحرافات أو التشويهات التى تنتج عن شخصية الباحثين على اختلافها .

وهكذا وجدنا أن البحوث عن اللغات الغالية الرومانية قد تجددت بفضل الأطلس اللغوى الذى صنعه ادمونت وجيرون ، وأن الدراسات التى أثارها نشر هذا الأطلس تتضاعف ، وأن دراسات أخرى لاتكاد تنتهى حول المعلومات التى سجلها عن اللهجات فى تلك المنطقة الواسعة .

وقد لمس اللغويون منذ ذلك الحين ، فى كل وطن أن النتائج التى يحصلون عليها باتباع المنهج الجغرافى ، نتائج مفيدة وآسرة ، ذلك أن مشكلة اللهجة قد وجدت حلها ، حين أصبح فى الإمكان رسم الحدود بين اللهجات ، فكل لهجة تبدو فى صورة مجموع يحمل سمات خاصة تخالف بها اللهجات الأخرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع الباحثين أن يجدوا حدودا معينة بين اللهجات ، أما الآن فيكفى الباحث اللغوى أن يتصفح الخرائط ، ليتخيل الحقيقة المتمثلة فى أن لكل حدث لغوى حدوده الخاصة .

وإلى هنا ينتهى علاج الأستاذ أنطوان منية لخطوط المنهج الجغرافى ، المطبقة على اللهجات الفرنسية ، ولاريب أن الحديث على هذا النحو يكشف عن الصعوبات التى تكمن فى طريق البحث ، والجهود التى ينبغى رصدها ، أو بذلها لتحقيق تقدم فى دراسة من هذا القبيل. بيد أن الجهود مهما تضاعفت لا يمكن أن تكون أغلى من إنجاز أطلس للهجات العربية المتناثرة على صفحة هذا الوطن ، المترامية الأطراف ، ومن الممكن أن تتعاون فى مشروع هذا الأطلس المؤسسات الثقافية التابعة للجامعات الإقليمية، عندما يتحقق نوع من التنسيق فيما بينها ، فى إطار أجهزة الجامعة العربية .

ولاريب أن الحديث المفصل الذى نقلناه عن الأستاذ مييه يكشف بجلاء حقيقتين هامتين :

أولاهما : أن الرأى الذى نادى به سوسور ، من قبل ، وهو أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ـ لايقصد به أن هذه اللهجات لاتعرف الحدود مطلقا ، وإنما يراد به أن الحدود اللهجية لا تنطبق على الحدود الطبيعية دائما ، وهذا الانفصال مما يألفه اللغوى بين حدود الدولة السياسية أو الطبيعية وبين حدود لهجتها أو لغتها ، التى قد تزحف وراء الحدود .

وثانيتهما : أن الأطالس اللغوية قد ساعدت تماما على رسم الحدود اللغوية اللهجة ، وأن ذلك قد تم تطبيقه فى مجال اللغـات الغالية — الرومانية Gallo-Romans (على أساس رسم حدود الأحداث اللهجية ، إذ أن لـكل حدث مجال انتشاره الخاص به) .

الأطلس الألمانى[1] :

هذا عن المنهج الفرنسى فى تنفيذ الأطلس اللغوى ، فأما عن الأطلس الألمانى فقد قام على إنجازه اللغوى الألمانى فنـكر Wenker ، حيث اعتمد على وضع مجموعة من الجمل تصل إلى الأربعين ، وهى تمثل أهم ما يجرى على ألسنة الناس فى الحياة اليومية . وكان الهدف هو معرفة الطريقة التى ينطق بها الناس هذه الجمل ، فى اللهجات المختلفة ، مع مراعاة تضمنها لأهم الظواهر النطقية التى تتميز بها اللهجات .

ولذلك فقد تضمنت الاستمارة الخاصة بالاستبيان معلومات يجب إثباتها عن الراوى اللغوى ، والجهة التى ينتمى إليها ، وعن المسجل اللغوى الذى

(١) تناول هذا الموضوع بالبحث الأستاذ عبدالحميد الدواخلى فى مذكرة لغوية ، وعليه اعتمدنا

كان غالبا من بين المعلمين فى المدارس الإبتدائية ، ربما لضمان ألا يتدخل فى تسجيل الظواهر ، نظراً لضآلة ثقافته ، ولاتصاله اللصيق بالجماهير .

وقد أرسلت هذه القوائم إلى جميع نواحى ألمانيا ، التى بلغت أكثر من خمسين ألف ناحية .

وبعد جمع البيانات على النحو المطلوب أرسلت البطاقات إلى مركز رئيسى لتفريغها ، وتصفية الملاحظات اللهجية بها ، بالنسبة إلى كل كلمة ، سواء من حيث النطق ، أو الترادف ، وبوضع ذلك كله على خرائط تفصيلية للمواقع اللغوية المستفتاة . وبعد ذلك ترسم الخريطة العامة فى ضوء الخرائط الجزئية .

وقد إشترط فنكر فى الراوى اللغوى ، وهو الذى تسجل لهجته : أن يكون من صميم أهل البلد ، وألا يكون نزح عنها إلى نواح أخرى أحيانا ، حتى لا تتأثر لهجته بمؤثرات خارجية ، وأن يكون قليل الحظ من الثقافة ، وأن يكون صريحا مخلصا فى إجاباته ، وأن تكون مخارج حروفه سليمة .

وقد قسمت البطاقة إلى قسمين : أولهما : أثبتت فيه الجملة باللغة الفصحى ، وثانيهما : ترك لإثبات النطق اللهجى موضوع البحث .

وقد أخذ على هذه الطريقة فى الاستفتاء أنها تضع بين يدى الراوى اللغوى نموذجا باللغة الفصحى ، ربما يؤثر على أدائه وتمثيله الصحيح للخصائص اللهجية المطلوب إثباتها ، يضاف إلى ذلك أن المسجل اللغوى كان هو الذى يتولى تسجيل الإجابات ، دون الراوى .

كما أخذ على هذه الطريقة أيضاً أن اقتصار الاستفتاء على أربعين جملة ، أو بالأحرى على عدد محدود من الجمل قد لا يغطى كل الاحتمالات اللهجية ، فيأتى العمل ناقصا .

وإن كان مجال الاستفتاء قد شمل أكثر من خمسين ألفاً من القرى والمواقع ، وهو أمر يوحى لنا بضخامة العمل ، وشموله لكل رقعة فى الوطن الألمانى .

* * *

الفرق بين النموذجين :

من هذا العرض يتضح أن بين النموذجين ملامح مشتركة ، كما أن لكل منهما صفاته الخاصة :

وأهم ما يجمع بينهما وحدة الهدف ، فهما يدوران حول فكرة وضع الأطلس اللغوى ، عن طريق الاستفتاء ، ورصد الظواهر اللهجية فى ألسنة الناطقين بها ، بالقدر اللازم من الحياد العلمى .

ولكن أهم الفروق بينهما :

١ ـ أن النموذج الألمانى يعتمد على مجموعة محدودة من الأمثلة ، على حين يقدم النموذج الفرنسى مئات الأسئلة للاجابة عليها .

٢ ـ أن الجمل الألمانية هى تراكيب جاهزة يطلب من الراوى أن ينطقها بلهجة ، على حين أن الراوى فى النموذج الفرنسى هو الذى يقدم التركيب ، إجابة عن سؤال موجه إليه ، وفى ذلك من حرية التعبير ما يكشف عن المزيد من الظواهر الخفية ، أو غير المحسوبة .

٣ ـ يبدو أن الفريق الفرنسى من المسجلين اللغويين كان قد تلقى تدريبا كافيا ، من الناحيتين الصوتية والنحوية بوجه عام ، ولذلك كان تسجيلهم لما يتلقون عن الرواة ـ موضع ثقة واطمئنان .

وإذا كان الأساس الذى يقوم عليه عمل الأطلس اللغوى لغويا بالدرجة

الأولى ، فإن الوسيلة إلى تحقيقه هى الإحصاء الشامل للظواهر ، وأمثلتها ، ولهجاتها ، ورواتها ، لضمان توفر المعلومات الكاملة، أو القريبة إلى الكمال ، على أن وسائل العصر الحديث التى أتاحتها ثورة التكنولوجيا ، وفى مقدمتها العقل الالكترونى (الكمبيوتر) — تعتبر من أعظم المعينات فى إنجاز الإحصاءات اللغوية .

ولقد تم فى العامين الآخيرين بنجاح كبير إحصاء جذور مفردات اللغة العربية ، فى جامعة الكويت ، باستخدام الكمبيوتر ، وكان ذلك بإشارة من الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس ، تلقاها أستاذ الفيزياء النظرية بكلية العلوم ، الدكتور على حلمى موسى ، فأنجز إحصاء جذور معجم (الصحاح) ومعجم (لسان العرب) وكانت هذه التجربة الناجحة داعية إلى أن يتعاون مؤلف هذا الكتاب مع الدكتور حلمى فى إنجاز إحصاء دقيق وشامل للغة طبقا لمعجم (تاج العروس) أكبر المعاجم العربية ، وقد طبعت هذه الإحصاءات كلها فى جامعة الكويت .

ولا شك أن هذه الخطوة الإحصائية تمهيد لما يمكن أن يسمى بعلم اللغة الإحصائى ، الذى قد يتسع مجاله ليشمل اللهجات ، فيساعد بذلك فى تتبع الظواهر وانتشارها على ألسنة المتكلمين ، وهو الأساس المنهجى لعمل الأطلس اللغوى .

مصطلحات ومفاهيم

الفروق الفردية :

يفرق اللغويون عادة فى الدراسات الحديثة بين عدة مستويات متحققة فى البيئة اللغوية الواحدة ، وهى مستويات تتوفر البحوث العلمية على تحديد ظواهرها ، ورسم اتجاهاتها العامة ، كما تتعاون الجهود على جمع مفرداتها ، ووصف قواعدها .

ومن الحقائق التى أكدتها الدراسات الحديثة أن اللغة من حيث هى تعبير مشترك بين أفراد الشعب الواحد ـ هى واحدة ، ولكنها تتعدد ، لا بتعدد لهجاتها فحسب ، بل بتعدد الأفراد الناطقين بها ، فإن من المقرر أن اللغة الواحدة التى ينطقها شخصان تختلف ظواهرها ، وصفاتها الصوتية والتركيبية على لسان كل منهما ، كما تختلف بصماتهما ، اختلافا جوهريا ، حتى لو كانا توأما ، بل حتى لو كانا قد نالا قسطا واحدا من الثقافة ، وعاشا ظروفا واحدة ، فكل فرد منهما يضيف دائماً إلى اللغة قدراً ، ولو ضئيلا ، خاصا به ، يدركه العالم اللغوى ، برغم ما قد يبدو من الوحدة الظاهرية بين لسانيهما .

وتزداد هذه الفروق بين مستويات اللغات الفردية كلما ازدادت الفوارق الاجتماعية ، والثقافية ، والزمانية ، والمكانية ، ولذا مضى بعض العلماء اللغويين إلى القول بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد[1] .

ولسنا نرى أدنى قدر من المبالغة فى هذا القول ، فقد أصبح من المسلم

---

(1) اللغة : لفندريس ـ ٢٩٦ .

لدى علماء البحوث الجنائية أن لكل إنسان بصمة صوتية مميزة، تختلف تماما عن بصمة أى إنسان آخر، وقد استطاعت أجهزة التصوير والتحليل الطيفى أن تحدد صفات كل بصمة قدمت إليها، حتى بلغ ما سجلته إدارة المباحث الجنائية فى الولايات المتحدة أكثر من مائة مليون بصمة، محفوظة فى ملفات أصحابها، ويستعان بها دائماً فى تحديد هويات المجرمين، وبخاصة فى الجرائم التى تستخدم فيها وسائل الاتصال السلكى أو اللاسلكى، أو تسجل خلال ارتكابها أصوات مرتكبيها قبل الهروب. والعجيب أن هذه الطريقة أصبحت أدل على المجرمين من بصمات الأصابع التى يمكن التدخل فى التقاطها بتشويهها، بوسائل مختلفة يعرفها أرباب السوابق المحترفون.

وحدة إنسانية وسمات مشتركة :

على أننا نرى من الناحية الأخرى أن الأفراد المتكلمين باللغة، برغم اختلاف مستوياتهم فى نطاق اللغة الواحدة، وبرغم تباعد هذا المستوى بتباعد المكان والزمان، وبرغم تباين لغاتهم باختلاف انتمائهم إلى الأوطان وإلى الشعوب ـ كل هؤلاء تجمعهم لغة واحدة، أعنى: نظاما واحدا إنسانيا من الناحية الصوتية. فقواعد النظام الصوتى التى تتكون منها مفردات اللغات المختلفة تخضع لقوانين عامة فى إنتاج الأصوات، ومن أمثلة ذلك: أن الميم فى العربية مثلا ـ هى الميم فى الإنجليزية، وفى الفرنسية، وفى اليابانية، وفى الأردية، وفى الزنجية، وكذلك الباء، وسائر الأصوات الصامتة، وكذلك أيضا الحركات أو المصوتات التى استطاع عالم اللغة الانجليزى، دانيل جونز، أن يضع لها معايير لا تخرج عنها فى لغة من اللغات، أطلق عليها (الحركات المعيارية).

حقاً قد يختلف الزنجى مثلا عن العربى فى بعض الصفات الثانوية التى تلازم طريقة نطقه للأصوات ، وقد تزيد الأحرف الهجائية فى العربية عنها فى لغة أخرى ، أو تنقص ، ولكن هناك دائماً قدراً مشتركا من الصفات الأدائية ، ناشئاً عن التقارب الخلقى فى جهاز النطق الإنسانى من جهة ، كما أنه ناشىء عن العادات التى انطبع بها هذا الجهاز ، فكل عضو من أعضاء النطق يأخذ منذ البداية وضعه الذى يتناسب مع الأصوات التى يدرب على أدائها ، بحيث يصعب على المرء أن يؤدى أصواتاً تتميز بها لغة غير لغته ، ومن ذلك مايصادفه الأوربى من عسر ، وربما استحالة ، عند محاولته نطق الحاء ، أوالعين العربية ، بل مانجده لدى كثيرمن السوادنيين من نطق الحاء هاء ، رغم انتمائهم إلى العروبة . ولا ريب أنه لادخل للعروبة ولا للزنوجة فى موضوع العجز أو القدرة على النطق ، وإنما هو التدريب والتعود على نطق الصوت واستعماله ، بحيث يمكن للخبير بالأصوات ، وآلية إنتاجها ، أن يؤدى مايعسر على غيره أداؤه ، ولذلك أمثلة حية صادفناها فى كل مكان ، فاللغة ملكة ، ومهارة فى آن .

وإذا كانت الأصوات تمثل القدر المشترك بين جميع اللغات الإنسانية ، فإن هناك من الظواهر اللغوية مايعد قانوناً مشتركا بين لغات الجنس البشرى ، كأن تخصص اللغات لكل مجموعة من الأصوات دلالة معينة ، وهو سلوك مطرد فى جميع لغات البشر ، فليس فيها انفصال بين الأصوات والمدلول ، لأن ذلك لو حدث يعتبر من الضوضاء غير ذات المعنى ، وقد تميز الصوت الإنسانى عن غيره بالدلالة التى تمثل دائماً الجانب العقلى فى السلوك اللغوى .

أما اختلاف تركيب الأصوات من لغة إلى أخرى فهو القدر الذى تتميز به كل منها .

ومن السمات المشتركة ، والغالبة بين اللغات الإنسانية أن عملية إنتاج الأصوات تتم على أساس طردى ، بمعنى أن الأصوات اللغوية يصحبها دائماً زفير للهواء من الرئتين إلى خارج الفم ، عبر الحنجرة ، وأوتارها الصوتية .

ومن النادر أن تعرف اللغة أصواتاً شفطية ، وإن كان لدينا أمثلة لبعضها كصوت القبلة ، أو صوت الرفض فى عامية مصر ، أو الصوت الجانبى الاحتكاكى الذى ينطقه أهل السودان بمعنى (نعم) ، أو الصوت الذى تصدره المرأة لتجميع الدجاج حول الطعام . أو صوت الشهقة التى يصدرها الإنسان فى بعض المواقف ، وبعض هذه الأصوات مستعمل فى لغات إفريقية ، وهو مسجل فى جدول الرموز الصوتية الدولية .

كذلك يعتبر من السمات المشتركة بين لغات البشر تكونها من مقاطع ، تتألف من صوامت وحركات ، أو من صوامت فقط ، أو حركات فقط .

وتختلف اللغات فيما بينها من حيث تقبلها لنسيج المقطع على نحو معين ، أو رفضها له ، وتعتبر اللغة العربية من اللغات التى تفرض كثيراً من القيود على تأليف مقاطعها .

ولذلك نجد العالم اللغوى يتناول اللغة فى مستويين :

١ — مستوى التجريدية التى يتصور فيها لغات البشر فى ضوء قوانين عامة ذات اتصال بالاستعدادات العضوية والنفسية ، التى يعيش بها الإنسان ، مهما اختلف به الزمان والمكان .

٢ — ومستوى الواقعية التى يدرك فيها الفروق بين الألسنة المختلفة .

على أن تناول اللغة من حيث علاقتها بالحياة الاجتماعية يساعدنا على تصور الصلة بين المستوى الواقعى والمستوى التجريدى ، مجسمة فى صورة اللسان الذى تستعمله الجماعة ، وهو قواعد اصطلح عليها المجتمع بجميع أفراده ، حتى إن الفرد يولد ليجد هذا اللسان مستعملا بشكل عام ، وكأنه قانون صارم لابد أن يخضع له ، وأن يتناوله كما لقنه ، وأن يحاول تحقيق مستوى من النطق يرضى عنه التنظيم الاجتماعى للقواعد ، ويرضى عنه أفراد المجتمع أيضاً .

اللغة المشتركة :

فإذا قلنا بأن هنالك لغة مشتركة بين أعضاء الجماعة الواحدة فإنما نعنى تلك الصورة المثالية التى لاتقع على لسان ناطق من أصحاب اللغة بصورة كاملة مهما حاول التأنق والتزام القواعد ، وذلك لأننا نسلم أساساً بأن لكل فرد سلوكه اللغوى الخاص ، فهو يضفى على اللغة التى لقنها فى مرباه من خصائصه ، ومن ثقافته ، وأحياناً من افتنانه ، مايزيد المسافة بينه وبين الصورة المثالية للغة بعداً .

ويعرف أنطوان مييه اللغة المشتركة بأنها : « نواة مثالية لا يزيدها الزمن إلا حوشية وبعداً عما فى صورة التكلم الجارية من اتجاهات ، وهى مجهود متجدد دائم للتوفيق بين اتجاهات التطور اللغوى الطبيعية وبين هذه النواة . ولهذا فهى ليست لغة ثابتة ، كما أنها لاتتطور تطوراً مطرداً ، بل فيها نوع من التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور »[1] .

---

(١) الأستاذ الدواخلى ـ مذكرة فى علم اللغة ص ٧٤ .

وقد دلت الملاحظة على أنه حين تقوى الصلة بين أفراد الجماعة اللغوية ، وتسهل بينهم وسائل الاتصال والارتباط ، مادية كانت أو ثقافية ـ تتكون لهم مع الزمن لغة مشتركة تقرب بينهم ، وتعينهم على تفاهم أسرع وأيسر ، وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية ، ثم تصبح بعد ذلك وسيلة المتعة حين تتخذ للتعبير عن أحاسيسهم وعواطفهم فى كل نتاج أدبى جميل[١] .

وإذن فمفهوم اللغة المشتركة لايعنى مستوى رفيعاً من التعبير الفنى ، ولكنه قدر فى متناول أوساط الناس ، يتعامل مع قدراتهم الثقافية العامة ، فهم يفهمونه ، وإن كان بعضهم لا يحسن استعماله فى التعبير عن أفكاره ، وقد يكون هذا المستوى مكتوباً يقرءونه ، وقد يكون منطوقاً يسمعونه فى مجال من المجالات الجادة .

ولا شك أن تعبير مييه بأنها (نواة مثالية لايزيدها الزمن إلاحوشية) فيه قدر كبير من دقة التصوير ، لأن مرور الزمن يضيف دائماً إلى اللسان حصيلة الأفراد وإبداعهم ، سواء أكان إبداعاً راقياً ، أم رديئاً ، واللغة كالنهر الجارى يلقى فيه من كل شىء ، وهو يحمل فى تياره كل مايلقى فيه ، ثم ينفيه على حافتيه ليبقى متدفقاً ثرثاراً ، محتفظاً بحقيقته الأولى التى كان بها نهراً على طول الزمان ، وهذه هى النواة المثالية فى وجود النهر أو وجود اللسان .

ومن هنا نستطيع أن نصف اللغة المشتركة بأنها المستوى اللغوى الثقافى الأعم ـ فى جماعة لغوية .

---

(١) مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٢ للدكتور إبراهيم أنيس .

ولنأخذ على ذلك مثلا : فالعربية الفصحى لها قواعد صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، يمكن الناطق إذا ما اتبعها أن يتحدث بها ، ولكن هذا الناطق قد يكون منتمياً إلى الوجه القبلى فيصطحب معه بعض الخواص النطقية التى لاتفارق لسانه ، وهى خواص تميزه عن الناطق من أبناء الدلتا ، الذى ينطق هو الآخر اللغة الفصحى بطريقته الخاصة .

فكلا هذين الشخصين يلتزم بعدة قواعد مشتركة ، ولكن أحدهما لايمكن أن يأتى بالصورة المثالية للغة الفصحى ، وإن حاول الاقتراب منها . ولا ريب أن نطقنا للغة الفصحى – فيما نرى – يختلف اختلافاً بيناً عن نطق إخواننا من أبناء العراق للغة الفصحى ، وعن نطق أبناء الجزائر ، أو أبناء الشام ، أو أبناء السودان .

فأى هذه المستويات هو اللغة الفصحى ؟ ، والفصحى المثالية ؟ . . ذلك هو مايدفعنا إلى القول ، تبعاً لرأى سوسور ، بأن (اللغة الفصحى) تعنى فى الواقع مستوى مثالياً ، أقرب مايكون إلى التجريد ، وهو مستوى يحاول كل ناطق أن يحققه من وجهة نظره . فمع اختلاف النطق باللغة الفصحى باختلاف الأفراد ، وباختلاف الأوطان ، يوجد قدر مشترك فيما بينهم ، فى الأصوات ، وفى الصيغ ، وفى التراكيب ، هو الذى يكون اللغة المشتركة ، أو اللسان المشترك .

فاللغة المشتركة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة[١] .

---

(١) اللغة لفندريس ص ٣٠٦ .

لكن هنالك مسألة أخرى هى : ما حدود هذه المجموعة التى تتكلم اللغة المشتركة ؟ لا ريب أن لكل مجموعة لغوية حدودا تفصلها عن المجتمعات المجاورة التى تستعمل لسانا آخر مخالفا . فالعربى فى العراق يتكلم العربية المشتركة إلى الحد الذى تبدأ فيه فى الشمال الأعلى لغة الأكراد ، والعربى فى سورية يتكلم العربية المشتركة إلى الحدود التى تبدأ عندها فى الشمال كذلك اللغة التركية ، وهذه الحدود مرسومة ولا شك ، حتى فى داخل القرى الشمالية ، حين يفصل بين اللسان والآخر شارع ، أو حين تتحدث بأحد اللسانين مجموعة من الأسر فى القرية ، وتتحدث مجموعة من الأسر الأخرى باللسان الآخر .

وهكذا نجد أن الحدود التى تفصل مجموعة لغوية عن مثيلتها هى حدود واضحة لكل من يحاول معرفتها .

تحديد اللهجة :

أما الأمر الأدق فهو مسألة معرفة الحدود اللهجية ، ما بين لهجة وأخرى . ولقد سبق أن أشرنا إلى الفروق الفردية ما بين متكلم وآخر ، هذه الفروق الفردية قد تتفشى فى إقليم معين لتصبح طابعا يميز لهجته عن سائر الأقاليم المجاورة ، وهو ما يحدث دائما ونلاحظه فيما بين لهجات الأقاليم المختلفة . فلهجة الشرقية تمتاز على لهجة الدقهلية ، ولهجة بور سعيد التى تستقى من المنزلة والمطرية تختلف عن لهجة الاسكندرية التى يفد إليها كثيرون من أبناء الصعيد إلى جانب كثيرين من مختلف مدن الريف ، والصحراء الغربية .

والمهم فى مسألة التفرقة اللهجية أن كل ناطق بلهجة يحس فى أعماقه أن لسانه هو اللسان المستقيم ، وأن لهجته هى اللهجة المعتدلة ، وما عداها فهو انحراف عن الصواب ، جدير السخرية .

ومن الصعوبة بمكان أن نحاول رسم حدود لهجية ، على غرار الحدود اللغوية ، التى كانت واضحة فى حالة اللغة المشتركة ، ذلك أن اللهجات تتميز فيما بينها ببعض الصفات الصوتية ، كما تتميز ببعض المفردات الشائعة ، والتراكيب الخاصة ، وليس من المتوقع دائماً أن تتوافق الحدود التى تقف عندها خاصة صوتية معينة مع الحدود التى يقف عندها انتشار كلمة معينة .

ولتوضيح ذلك نأخذ مثلا مقياس الفتحة (a) الذى ينطقه أبناء القاهرة فى كلمات مثل : هريسَه وعجميَّة ، وبدريه وجاموسه ، ويلاحظ أن نطاق القاهرة هذا شائع ممتد إلى قلب الوجه البحرى ، ولـكن يلاحظ أيضا أن هذا المقياس يتحول عند بعض أبناء الريف فى محافظات مثل الدقهلية والبحيرة وكفر الشيخ والغربية إلى مقياس الفتحة الممالة (e) : الهريسه ، والعجميه ، والبدريه ، والجاموسه ، وهو نطاق يحاول به الممثلون أن يقتربوا من لهجات الريف .

هل يمـكن أن نحاول رسم حدود لانتشار هذا النطاق الممال ؟ وإذا استطعنا تتبع هذه الحدود ورسمها على خريطة لغوية ، فهل يمـكن أن نجد أن خاصة أخرى من الخصائص النطقية التى تميز سكان الريف عن سكان القاهرة لها نفس الحدود ؟ .

وذلك مثل : كلمة : (بلاش) التى تتحول فى لسان بعض الريفيين إلى : (بلاه) ، وعبارة (يسرح الشعر) التى يعبرون عنها بعبارة : (يكد الشعر) ، وكلمة (الشاب) التى تطلق فى القاهرة على (الفتى) ، وتطلق فى الريف على (العجل) ؟

وهل تقف كل الخصائص الريفية عند حدود واحدة لتبدأ بعدها خصائص

لغة القاهرة ؟ كلا . . فإن امتداد الظواهر اللغوية لا تحده الحدود الجغرافية فى داخل الوطن الواحد ، وإنما هو يخضع لعدة عوامل اجتماعية معقدة . قد تسمح بتعديل فى جانب ، وتصر على تجميد جانب آخر ، ومن هنا كان من الصعب رسم خريطة جغرافية لغوية لخصائص لهجة معينة ، وكل ما يمكن أن يحدث هو رسم خريطة لظاهرة معينة ، أو لانتشار صوت معين ، أو مقياس واحد من مقاييس أصوات اللين ، وقد يحدث أن نجد اطرادا فى انتشار بعض مقاييس اللين المتشابهة ، ولكن من النادر أن نجد اتفاقا فى مدى انتشار الخصائص التركيبية أو الدلالية .

هل معنى هذا أن اللهجات لا تعرف الحدود مطلقا ؟ . . . بالطبع لا . . فإن لكل لهجة مجموعة من السمات المشتركة التى تميز بينها وبين جارتها ، وهى سمات تزدهر فى منطقة من المناطق ، فى مجموعها ، وتتدرج فى تضاؤلها شيئاً فشيئاً إلى أن يحدث مجال لغوى آخر ، تتألق فيه مجموعة من السمات اللهجية المخالفة . فرسم الحدود اللهجية إنما يتم على أساس مجموعة الخصائص الشائعة فى مجال معين ، والتى تقابلها مجموعة أخرى من السمات فى مجال آخر .

هذا التمييز بين لهجة وأخرى لا يحسب حساب الفروق الفردية ، التى ما زالت فردية ، فمثل هذه الفروق يتعرض لضغط المجتمع على صاحبه لتعديل نهجه فى النطق ، فالفرد فى الواقع يواجه نوعين من الضغوط : ضغط يخضعه للنظام اللغوى العام ، عندما يبدأ فى العيش مع المجموعة اللغوية ، وضغط يرده إلى هذا النظام اللغوى العام ، إذا ما حاول الانحراف عن سمته . واللغة بالنسبة إلى هذا الفرد تتمثل فى مستويين : مستوى اللغة المشتركة التى تفرضها تقاليد راسخة وعامة ، هى فى قوة القوانين الصارمة ، ومستوى اللغة الفردية التى يخلع فيها الفرد على لغته من خصائصه الذاتية .

وبعبارة أخرى : إذا تصورنا فردين يعيشان معا ، فإن لغتهما تكون لغة موحدة الخصائص فى كل مستوى من مستوياتها ، إذا ما صرفنا النظر عن الفروق الفردية التافهة .

غير أن هذين الفردين يفترقان ، حين يذهب كل منهما إلى عمله فى القرية النائية ، وهنالك يتعرض كلاهما لتأثير اللهجة الخاصة بتلك القرية ، فيأخذ من ضغطها ، ومن تراكيبها ، ومن أصواتها ، ثم يعود آخر النهار ، وقد تحملت لغته بعض عناصر التفريق بينها وبين لغة صاحبه ، فإذا بنا نجد أن اجتماعهما للمرة الثانية سوف يحاول أن ينفى هذه التأثيرات الطارئة ويحاربها فى سبيل المحافظة على الوحدة اللغوية فيما بينهما ، فهما فى حالة اجتماعهما يخضعان لعوامل التوحيد اللغوى ، وهما فى حالة افتراقهما يخضعان لعوامل التفريق اللغوى ، وهكذا شأن الجماعة اللغوية مع اللغة ، وشأن اللغة مع الجماعة اللغوية ، فقد تضعف إحدى الجماعات اللغوية لتفرض تقاليدُ لهجة مجاورة أحكامَها على لهجتها ، فتتطور هذه تطورا صوتيا ، أو تركيبيا ، أو اشتقاقيا ، وقد تصمد تلك اللهجة للتأثير فتحافظ على صورتها الصوتية ، وعلى بناء صيغها ، فتظل متميزة عما سواها من اللهجات .

اللغات الخاصة

غير أن هنالك أيضاً مستوى آخر من النظم اللسانية ينشأ في ظروف اجتماعية غير عادية ، هي ظروف الانعزال الاجتماعي . وفيها تنشأ اللغات الخاصة .

ويقصد باللغات الخاصة تلك اللغات التي تستعملها الجماعات المتحيزة ، والعصابات ، والمهن ، والطوائف المتميزة .

وأقرب الأمثلة إلينا ما نجده من الفارق الكبير بين لغتنا الجارية ولغة أحكام المحاكم ، ومحاضر التحقيقات ، فهذه لغة قانونية ذات مصطلحات خاصة بها ، تستعملها في معان ثابتة ، بل وتصوغ عبارتها صياغة متميزة لا يألفها الإنسان إلا حين يجدها مكتوبة بخط أحد المحضرين .

وهنالك أيضا لغة خاصة يتكلم بها أصحاب كل حرفة ، حيث يجعلون للفظ معنى خاصا ، لا يدركه غيرهم من الطوائف الأخرى ، ومن ذلك مثلا : أن (الحرامى) فى العامية هو اللص ، ولكنه فى لسان النقاشين يعنى ما تفوته (الفرشاة) من أماكن يجب طلاؤها ، وكلمة (الخابور) فى العربية تعنى نوعا من النبات أو الشجر ، وهو فى لسان النقاشين يعنى خشبة تغرس فى الحائط لتدق فيها المسامير ، وفى لسان النجارين تعنى (الخبز) ، وفى لسان الأطباء قطعة من الشاش المعقم يحشى بها موضع عملية الباسور ، ولا شك أن المعنى فى كل مستوى يختلف اختلافا بينا ، ولا علاقة بين المعنى المهنى فى حرفة الطب أو حرفة النقش أو النجارة وبين المعنى اللغوى الأساسى المشترك .

وكلنا يدرك الفرق فى الاستعمال بين معنى كلمة (كرسى) فى اللغة العامة ومعناها فى لغة مدمنى المخدرات والمدخنين ، كما يحس المدمن بالخطر إذا ما سمع كلمة (كبسة) ، التى تعنى لديه (الشرطة) ، ولكنها عند بعض النساء تعنى ما يصيب المرأة أحيانا يعوقها عن الحمل ، وتتعاطى له بعض الوصفات البلدية ، أو تتبخر لتبرأ منه . كما نعلم أن الأشقياء واللصوص يصطنعون لأنفسهم لغة خاصة بهم يتفاهمون بها ، فهم يطلقون كلمة (جزمة) على الشرطى كما يطلق النشالون منهم كلمة (العم) على الضحية ، وكلمة (الحيصة) على حافظة النقود ، وكلمة (ترمسة) على الساعة ، وكلمة (ذهوب) على الجنيه . وهكذا . فإذا دخل هؤلاء السجن كانت لهم ألفاظهم التى يتحصنون بها من مراقبة الإدارة .

وكلنا يعلم أيضاً ما تحتويه كتب أصحاب الزايرجة والشعوذة من كلمات غامضة مبهمة ، هى بلا شك ذات معنى لدى أصحابها ، كما أنها ذات تأثير عميق فى نفوس السذج والبسطاء ، أعنى : نفوس المعتقدين فى تأثيرها حتى لو كانوا من أصحاب الثقافات الرفيعة ، فإذا ما أطلق المشعبذ البخور أطلق معه مجموعة من الرقى والتراتيل والتهاويل ، تحتوى كلمات ذات دلالات غامضة يتوسل بها إلى ما يريد الاستيلاء عليه من عقل الضحية أو مالها .

وكلنا أيضاً يشهد مجموعات من الألفاظ الغريبة فى دكان العطار وعلى صفائحه ، هى تسميات قديمة أو شعبية لأنواع من التوابل والأعشاب والنباتات النادرة ، لا يستعملها غير العطارين ، ولا يعرفها سواهم ، ولو اجتمع عطاران فى مجلس فتحدثا فى تجارتهما لما فهم أحد من الجالسين شيئاً ، لغرابة ما يقولون من ألفاظ وتراكيب .

وحسبك أن تقرأ هذا النص الذى كتبه ابن دانيال فى كتابه (طيف الخيال) على لسان أحد باعة الأدوية والمركبات العطارية، حين وقف وسط الجمهور يروج لدوائه الذى يشفى من جميع الأمراض، فأخذ يصف محتوياته بتلك الطريقة التى تشبه كثيراً ما نشهده فى الموالد حين يحدثنا بعضهم عن زجاجته الزهيدة الثمن، والتى تشفى أيضاً من جميع الأمراض. قال: «والدِّرياق[١] مخلص من النهوش[٢] (والسوب)[٣]، والعِضَاض، الشافى ركبته من هذه الدواهى: من قَرْص الأشقيل، وقَرْص العنصل[٤]، وقَرْص الأفاعى، وأضفت إليه من الفلفل الأبيض، والأفيون، والأبريسا، وزر الورد، والغاريقون، وشفعته ترب السوس، ودهن البلسان[٥]، والزراوند والزنجبيل، وحب البان، والاسقرديوس، واسطوخودس، وفوذنج[٦]، وفراسيون، وأضفت إليه القُسْط[٧]، ودارفل، وكُنْدُر[٨]، وصمغ البُطْم[٩] وسليخه[١٠]، وإذخر[١١]، وساذجا هنديا، وقُرْدُمانا[١٢]، ورازيانجا، ولحية التيس، وراحا مشويا[١٣]، وجنطيانا، وحب الفار، وحب البلسان[١٤] وقاقيا[١٥]، وأنيسون[١٦]، وذوقوا[١٧]، وسيكبينج[١٨]، وحماما، ووجًّا[١٩]، وقنطوريون.

---

(١) هو الترياق، فصيح (٢) المصدر المروى: نهشا

(٣) المصدر المروى: لسبا (٤) نبات معمر من الفصيلة الزنبقية؛ له ورق كورق السكرات.

(٥) شجر له زهر أبيض يستخرج من بعض أنواعه دهن طيب الرائحة.

(٦) لعل أصله. فوده، بالفارسية: خير جاف (٧) عود يجاء به من الهند يجعل فى البخور وفى الدواء (٨) اللبان (٩) الحبة الخضراء من الفصيلة الفستقية

(١٠) شىء كأنه قشر منسلخ ذو شعب (١١) حشيش طيب الرائحة.

(١٢) القردمانى. الكروياء الرومى (١٣) خمرا مخلوطا.

(١٤) من الفصيلة البخورية (١٥) لعل أصله: القاقلة: نبات عطرى ينبت فى الهند الصينية كالحبهان (١٦) نبات حولى زهره أبيض؛ وثمره يستعمل فى أغراض طبية

(١٧) الذرق: الحندقوق: نبات، ولعله هو (١٨) السكنجبين: كل شراب مركب من حامض وحلو (١٩) الوج: نبات عشبى من فصيلة القلقاسيات، رائحته زكية

تلك إفادة طبية ، وفى اقتناء مثله يهون بذل ما ملكتم » .

لقد حاولنا تحقيق ألفاظ هذا النص فلم نعثر إلا على ما أثبتناه أسفل الصفحة ، على وجه التحقيق ، أو التقريب ، فأما الألفاظ : (أشقيل ، ابريساـ غاريقون ـ زراوند ـ اسقرديوس ـ اسطوخودس ـ فراسيون ـ دارفل ـ ساذجا هنديا ـ رازيانج ـ جنطيان ـ قنطوريون) ـ فعلمها عندقائلها ، وأبناء مهنته ، وهى على أية حال لم تدخل معجم (لسان العرب) ، كما لم تدخل (المعجم الوسيط) ، ولا مانع من أن يكون بعضها قد ورد فى (تاج العروس) أو غيره من المعاجم ، على أنه من الألفاظ الرومية أو الهندية ، إذ لا وجود له فى المعجم الفارسى .

ولكن يلاحظ أن المصدرين : (النهوش ـ اللسوب) لم يستعملا بهذه الصيغة فى الفصحى ، فهما غالبا من توليد لغة عصرها ، كما أننا لا ندرى المدلول الحقيقى للتراكيب : (قرص الأشقيل ، قرص العنصل ، قرص الأفاعى) ، ولعلها مركبات عطارية خاصة ، كلحية التيس ، وما أشبهها .

إن من النادر أن يفهم المرء ، مهما بلغت خبرته ما يقوله هذا الرجل ، كما أن من النادر أن يفهم أيضاً ما يقوله شبيهه فى موالد هذه الأيام ، فذلك مستوى من التعبير خاص بأصحابه ، ولا يفهمه إلا من عرف سر المهنة ـ كما يقولون .

وإنا لنستطيع القول بأن أكثر الحرفيين يتخذون لأنفسهم ما يسمونه بلغة (السيم) ، وهو يعتمد فى جوهره على استعمال ألفاظ المهنة فى معان خارجة عن مضمونها اللغوى ، ولقد جالست بعض النجارين فإذا لهم غرائب فى هذا

الباب ، فهم يطلقون كلمة (المرينة) على الزوجة ، وهى فى الأصل الخشبة من نوع معين معروف ، وكلمة (المحزّ) على صاحب العمل ، وتعبيرهم (المحز رابص) يعنى : واخذ باله ، وكلمة (الخابور) على الخبز ، وكلمة (السندو) على الـكلام ، وهو فى الأصل : مقياس للقطات ، وكلمة (الأمطة) على البطن وعبارة (الأمطة هوت) أى : أنه جائع .

وللمنجدين كذلك استعمالاتهم ، كما أن لتجار الصاغة لغتهم الخاصة التى تمزج بين العبرية والعربية مع التوسع فى تحريف الدلالات .

هذه الأمثلة كلها دليل على أن هناك مستوى من اللغات غير اللغة المشتركة وغير اللهجات ، هو مستوى اللغات الخاصة ، وهى لغات تنشأ نتيجة الانعزال الذى يحس به أفراد الجماعة اللغوية الخاصة عن المجتمع العام ، وقد يكون هذا الانعزال من شأن الحرفة التى يعيشون منها ، وقد يكون نتيجة إحساسهم بالعداء للنظام العام ، فهم يحاولون أن يخفوا أغراضهم تحت كلمات مشوهة المعنى ، أو مشوهة الصيغة ، ولـكنها تؤدى الغرض الذى صيغت من أجله .

ولقد لقيت هذه العاميات الخاصة عناية علمية من اللغويين المحدثين فى الخارج ، ولـكنها بقيت بعيدة عن العناية بها فى بلادنا ، حتى وجدنا أنفسنا أمام طلاسم يحار المرء فى تفسيرها ، وفى مواجهة شفرة تحتاج إلى خبرة فى إيضاح مضمونها .

والناظر فى المعجم الفرنسى (L'Argot Moderen) يستطيع أن يدرك إلى أى مدى عكف مؤلفاه على تقصى كل ما يدور على ألسنة الناس من جميع الطبقات والمهن ، ولا سيما تلك التعبيرات المصرية ، التى يتداولها الشباب عن الجنس ، ولا يمـكن أن ترد فى كتابات الأدباء ، أو فى المعاجم الـكبيرة ،

بل لقد ذهب المؤلفان إلى حيث يباع الهوى فأحصيا كل ما يكنى به الفتيات المحترفات عن رذائلهن ، وأورداه فى هذا المعجم العجيب ، لا قصدا إلى الإفساد ، أو نشر الرذيلة ، ولكن تسجيلا لصور من التعامل الشعبى مع اللغة الفرنسية ، وهو تسجيل على مستوى علمى .

وقد اعتبر المؤلفان . جيو ساندرى géo Sandry ، ومارسيل كارير Marcel carrère – أن لكل نشاط فى المجتمع ، تجارى ، أو صناعى ، أو رياضى ، أو خدمة – لغته الخاصة ، وذلك كالبورصة ، والطيران ولاعبى السيرك والسباق ، والمصارعين ، وأرباب السجون ، والرسامين ، والمسارح ، وما وراء الكواليس ، والكنائس ، والسينما ، والجيش ، والمدارس ، والمعاهد الكبرى ، والبريد ، والطباعة ، والطباخة ، والطيران الشراعى ، والتجديف الشراعى ، والبحرية النهرية ، والصيد ، والرجبى ، وكرة القدم ، والميكانيكا . فلكل هؤلاء وغيرهم لغتهم الخاصة ، التى تقوم على الاختصار ، أو تشويه الكلمة صوتيا ، أو تحريفها دلاليا ، أو استعارة كلمة من لغة أوربية أخرى .

إننا لا نستطيع أن نقول : إن اللغات الخاصة فى محيطنا العربى قد حرمت من مثل هذه العناية ، فإن لدينا مجموعة من التآليف التى عنيت برصد التعبيرات العامية ، منذ عهد بعيد ، ومن أبرز هذه الكتب : دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، والقول المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغة العرب ، والمعجم الكبير لتيمور باشا ، وقاموس العادات والتقاليد المصرية ، لأحمد أمين .

ولكن الهدف من هذه الأعمال كان غالبا تأصيل الكلمات والتعبيرات العامية ، فى معجم الفصحى ، فأما متابعة رصد الكلمات والتعبير لذاتها ، فذلك ما لم يتم فى نطاق العربية حتى الآن ، وهو ما ندعو إلى الاهتمام به ،

صونا لألفاظ اللغة الشعبية من الاندثار ، وتتبعا للتطور الدلالى الذى هو جوهر الاستعمال اليومى لهذه الألفاظ الخاصة .

ولا ريب أن هذه العاميات الخاصة نتيجة جهد لغوى يبذله الأفراد الذين اصطلحوا عليها ، كما أن لكلماتها الخاصة علاقة بالاستعمال العام ينبغى أن تكون موضع دراسة لغوية ، تكشف عن خفاياها ، وتعالج طلاسمها وأسرارها .

وخلاصة القول : أن اللغات الخاصة تنشأ من الانعزال الاجتماعى ، فهى من حيث المبدأ لغات طبيعية ، كاللهجات تماماً ، ولكنها تقوم غالبا على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها[1] .

---

(١) فندريس ص ٣٢٥

اللغات الموجودة

اللغات الإنسانية على سطح هذا الكوكب أكثر من أن تحصى ، فعلى الرغم من بحوث العلماء التى تحاول أن تحصى المسميات فى كل بقعة من بقاع الأرض ، نرى أن هناك دون شك لغات لم يتم التعرف عليها بعد ، وما زالت بحوث العلماء اللغويين والاجتماعيين تحاول الكشف عنها ، والتعرف على أصولها . ذلك أن اللغة ظاهرة معقدة شديدة التعقيد ، وقد تحدث الإنسان على طول التاريخ لغات بعضها اندثر تماما ، ولم يبق منه شىء ، أو بقى منه بعض النقوش التى تدل على مدى ثرائه أو فقره . وبعضها الآخر أخفى معالمه القديمة ، وأبدى صورة جديدة ، هى الأخرى ماضية على طريق التطور الخالد ، الخالق أيضا[1] .

وقد حاول العلماء أن يصنفوا لنا اللغات التى تم اكتشافها وحصرها ، ليسهل علينا حصرها ، ومعرفة علاقات بعضها ببعض ، وأشهر النظريات فى هذه السبيل هى نظرية مكس مولر Mex muller التى ترجع جميع اللغات الإنسانية أو أغلبها إلى ثلاث فصائل هى :

١ — الفصيلة الهندية الأوربية .

---

(١) ذكر مييه **meillet** نقلا عن ف . ن فنك **F. n. Finck** أن ماعرف من اللغات حتى الآن بلغت عدته ألفى لغة **Linguistique historique et Linguistique générale Page 76.**

وذكر ماريوباى أنه يوجد فى العالم الآن نحو ثلاثة آلاف لغة متكلمة ، بخلاف اللهجات (أنظر أسس علم اللغة ص ٦٥) .

٢ — الفصيلة الحامية السامية .

٣ — الفصيلة الطورانية .

ويعنون بكلمة (فصيلة) : مجموعة من اللغات التي تتشابه في عناصر قديمة ولكنها تختلف في بقية العناصر القابلة للتطور ، وهذه العناصر القديمة التي تجمع بين لغات الفصيلة الواحدة هي :

١ — الضمائر .

٢ — الأعداد .

٣ — أسماء الإشارة والموصول .

٤ — الاشتراك في معاني نسبة كبيرة من الكلمات ذات الدلالات القديمة ، كالأرض والسماء ، وألقاب الأسرة ، كالأب والأم ، والأخ والابن.

٥ — أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ — الاشتراك العام في كيفية تركيب الجمل[1] .

فهذه العناصر إنما عدت قديمة لأنه ليس من السهل أن تتطور ، بل هي أشبه بالمواد المتحجرة ، تتداولها ألسنة الأفراد ، دون أن تحاول أن تحدث بها أدنى تغيير ، أو يكون ذلك التغيير في حدود ضيقة جداً بحيث يبقى دائماً في الكلمة عنصر ثابت لا يتغير ، على حين تتعرض سائر العناصر اللغوية

---

(١) في اللهجات العربية /١٨

كالأسماء والأفعال والأعلام لتغيرات بالغة الكثرة والتأثير ، حتى تتباين مواد اللغة أو اللهجة عن مواد جارتها أو أختها ، فتتشعب اللغة الواحدة إلى لغات مختلفة لا يربط بينها سوى العناصر القديمة المتبقية على رغم التطور .

وحسبنا أن ننظر إلى أسماء الأعداد فى اللغات الثلاثة (الفرنسية والإيطالية والأسبانية) لندرك قدر ما تفيدنا هذه العناصر القديمة فى تشخيص التطور اللغوى ومداه داخل لغات الفصيلة الواحدة :

Francais	Italieno	Espagnol
un — une	uno-una	uno-una
deux	due	dos
trois	tre	tres
Quatre	Quatro	cuatro
cinq	cinque	cinco
Six	Sei	Seis
Sept	Set'e	Siete
hnit	Otte	ocho
neuf	nuove	nueve
dix	dieci	dies
Vingt	venti	veinte
trente	trenta	treinta
Quarante	Quaranta	cuarena
Cent	cento	ciento

هذا التشابه ، بل التطابق غالبا لا يمكن أن يكون طارئا أو عارضا[1]،

(١) السابق ص ٣

فلقد حدد له العلماء قواعد للتطور تختلف باختلاف شخصية كل لغة ، ومنها استطاعوا أن يحددو أعضاء الفصيلة الواحدة ، وعلاقات هذه الأعضاء : تاريخية واشتقاقية .

ومن المناسب قبل أن نتحدث عن تصنيف اللغات الإنسانية أن نحدد معنى « القرابة اللغوية » فقد يؤدى استخدام هذا المصطلح إلى لبس كبير . حين يتصور البعض أن بين اللغات أنسابا ووشائج أسرية ، حتى ليمكن أن تكون هنالك لغات أمهات ، ولغات بنات ، ولغات أخوات ، وكل هذه تعبيرات سيئة . لأنها تزيف تصورنا لعلاقة اللغات بعضها ببعض ، إذ لاشيء من الشبه بين قرابة اللغات وبين التوالد بالمعنى الوظيفى لهذه المصطلحات ، وليس من الممكن لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى ، وليس فى وسع أى عالم لغوى – كما يقول فندريس – أن يحدد الساعة التى وقع فيها هذا الميلاد . فإذا قلنا : إن الفرنسية قد خرجت من اللاتينية ، فمعنى ذلك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال العصور فى إقليم من الأقاليم ، وإذا قلنا : إن السامية قد ولدت العربية ، فليس معنى ذلك سوى أن العربية هى الصورة التى آلت إليها السامية الأولى – على فرض وجودها – فى تلك البيئة المنعزلة ، الجزيرة العربية .

وهناك مجال آخر لإطلاق مصطلح (القرابة اللغوية) ، وذلك حين تنشعب اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ، تختلف باختلاف القبائل والبيئات الجغرافية ، وعوامل الاتصال المتاحة لكل منها ، فبقدر ما توحد اللغة المشتركة بين أبناء الشعب الواحد ، تفرق اللهجات بين مستوياته الاجتماعية والقبلية ، وهى حالة واجهتها اللغة العربية فى القديم ، كما تواجهها اللهجة المصرية ، التى اتخذت أشكالا مختلفة باختلاف بلدان الصعيد أو الدلتا ، وباختلاف الأصول

الأسرية التى ينتمى إليها الناطقون بها . ولكن تظل هذه اللهجات جميعاً فى إطار اللغة الواحدة المشتركة ، التى تجمع سائر أبناء الشعب الواحد .

فى هذا الضوء يمكن أن نتصور علاقة أعضاء الفصيلة اللغوية ، مهما اختلفت لغاتها ، ومهما تباعدت أوطانها ، إذ يظل الرباط اللغوى دائما هو الصلة التى لا تبلى عبر التاريخ ، بفضل هذه البقايا والعناصر اللغوية القديمة .

الفصيلة اللغوية الأولى : وبفضل هذه العناصر التى أسلفنا ذكرها أمكن الباحثين اللغويين أن يكشفوا العلاقة بين اللغة السنسكرتية التى موطنها الهند ، وبين اللغات الأوربية المتشعبة،فإذا بهم يطلقون على هذه المجموعات المتشابهة فى عناصرها القديمة (فصيلة اللغات الهندية ــ الأوربية) .

ولما كانت هذه اللغات قد تباعدت وتباينت بفعل البيئات المختلفة ، والأحداث التاريخية التى عاشتها ، فقد ميز اللغويون فى هذه المجموعة من اللغات ثمانى مجموعات تشمل عدداً كبيرا من اللغات القديمة التى اختفت الآن من مسرح الحياة ، واللغات الحديثة الحية ، وهى على التوالى :

١ ــ مجموعة اللغات الآرية :

وتشمل اللغات الهندية الحديثة ، والفارسية القديمة والحديثة والكردية ، والأفغانية .

٢ ــ مجموعة اللغات الأرمنية .

٣ ــ مجموعة اللغات الإغريقية .

وتشمل اللغات اليونانية القديمة والحديثة ، ومن أشهر اللغات اليونانية القديمة : اليونانية الأتيكية ، والدورية .

٤ — مجموعة اللغات الألبانية .

٥ — مجموعة اللغات الإيطالية .

وتشمل اللغات الأسكية ، واللاتينية ، واللغات الرومانية ، وهى المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والأسبانية ولغة رومانيا .

٦ — مجموعة اللغات الكلتية . وقد غلبتها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية ، وإن كانت لها بقايا فى كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز وغرب فرنسا .

٧ — مجموعة اللغات الجرمانية .

وتشمل لغات ايسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج ، والإنجليزية — السكسونية ، والحديثة ، والهولندية ، واللغات الألمانية .

٨ — مجموعة اللغات البلطيقية — السلافية .

وتشمل الروسية والتشكية والصربية — الكرواتية والبلغارية الحديثة ، وبعض اللغات القديمة فى شرق أوربا[١] .

ومن ذلك يظهر أن لغات هذه المجموعة الضخمة تشمل شعوبا كثيرة متفاوتة فى درجة رقيها وحضارتها ، وإن كانت تتسع لتضم أكثر شعوب آسيا وجميع شعوب أوربا ، واستراليا ، وامتد أثرها إلى جنوب إفريقية . ولا ريب أن التطور التاريخى قد أثر على كل لغة بحسب فاعلية مرحلتها الحضارية .

---

(١) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ٥٨ — ٦٣ .

الفصيلة اللغوية الثانية :

وهى الفصيلة الحامية ـ السامية Langues-chamito sémitqiues وتشتمل على مجموعتين من اللغات، هما السامية ، والحامية ، فاللغات السامية هى :

١ — مجموعة اللغات السامية الشمالية ، وتشمل اللغات : الأكادية ، أو الأشورية ، واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية) ، واللغات الآرامية .

٢ — مجموعة اللغات السامية الجنوبية ، وتشمل العربية ، واليمنية القديمة ، واللغات الحبشية السامية .

وأما اللغات الحامية فهى ثلاث طوائف :

١ ـ اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ ـ اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال إفريقية (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) .

٣ ـ اللغات الكوشية couchitiques ، وهى اللغات التى يتكلم بها السكان الأصليون للقسم الشرقى من إفريقية ، (ما عدا المنطقة الحبشية الناطقة بلغات سامية ؛ وما عدا المناطق السودانية) ، فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبدجا ، ودنقله ، غيرها .

ومن هنا يظهر أن المنطقة التى تتكلم لغات من الفصيلة الحامية ـ السامية أصغر بكثير من المنطقة التى تشغلها اللغات الهندية ـ الأوربية ، فضلا عن أن هذه المساحة تحتوى صحراوات واسعة ، ولا يكاد يتجاوز عدد الناطقين بها زهاء مائة وخمسين مليونا من البشر .

ومن الملاحظ على لغات هذه الفصيلة أن بعضها قد تغلب على بعض ،

حين احتدم الصراع بين هذه اللغات ، فقد انتصرت الآرامية على الأكادية فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وانتصرت على العبرية فى أواخر القرن الرابع نفسه ، ثم تلتها الفينيقية بآسيا فى القرن الأول قبل الميلاد .

وكذلك دخلت العربية فى صراع مع أخواتها ، وانتصرت على اللغات اليمنية وقضت عليها خلال العصر الجاهلى ، قبل ظهور الإسلام ، ولم يفلت من هذا المصير سوى عدة مناطق متطرفة لازالت حتى الآن تتكلم بتلك اللهجات . ثم صارعت العربية اللغة الآرامية بعد انتصاراتها التاريخية فيما قبل الميلاد ، وأخذت العربية تحتل مراكز الآرامية ، بلدا فى إثر بلد ، إلى أن قضت عليها حوالى القرن الثامن الميلادى ، ولم ينج من هذا الصراع سوى عدة مناطق منعزلة لازالت تتكلم الآرامية حتى العصر الحاضر .

وكذلك دخلت العربية فى صراع مع لغات أخرى غير سامية أو حامية ، حينما غزا الإسلام بلاد الترك والفرس والهنود ، وكان لهذا الصراع نتائج سوف يأتى تفصيلها ، بعد أن نستعرض تقسيم فصائل اللغات الإنسانية[1] .

الفصيلة اللغوية الثالثة :

وهى فصيلة اللغات الطورانية — Legues touraniennes وتشمل عددا من اللغات التى لا تدخل فى نطاق إحدى الفصيلتين السابقتين . وذلك كاللغات التركية ، والتركانية ، والمغولية ، والمنشورية .

وهذه اللغات ليست فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، بمعنى أنها لا تؤلف فيما بينها مجموعة من اللغات ذات خصائص مشتركة بالوصف الذى سبق فى معنى القرابة اللغوية ، ولكنها تلفيق من اللغات يجمع بينها صفة سلبية ،

(١) سوف يأتى حديث فى هذا عند دراسة (الصراع اللغوى)

هى أنها ليست حامية ـ سامية ، ولا هندية ـ أوربية . وقد يطول بنا الحديث لو أننا استعرضنا ما تبقى من فروع اللغات المختلفة التى حفلت بها تلك الموسوعة الضخمة : (لغات العالم) . Les langues du monde، ونقتصر على هذا القدر راجين أن تتاح لنا فرصة أخرى لعرض القضية بتفصيل أكبر إن شاء الله .

بيد أن وجود هذه اللغات يثير قضية الصراع فيما بينها ، وهو صراع من أجل السيادة والبقاء ، سواء اتخذ صورة حربية ، أو صورة سلمية . وذلك ما ينبغى أن نفرد له الصفحات التالية .

الصراع اللغوى

اللغة كما سبق تقريره فى مواضع عدة كائن حى ، يجرى عليه ما يجرى على سائر الكائنات الحية ، من عوارض مكانية وزمانية ، فهى تمر فى نشأتها بأحداث الطفولة ، ثم تشب عن الطوق لتعيش فترة من الشباب والتحفز ، ثم تكتمل أداتها ، وتنمى بعناصر القوة والثراء ، ثم تشيخ فى نهاية الأمر ، وقد ينتهى أمرها إلى الموت أو الانقراض .

واللغة ليست كائنا منعزلا يعيش فى فراغ ، وإنما هى كائن اجتماعى ، يتغذى من الأحداث الاجتماعية ، ويتأثر بعوامل التطور التاريخى ، ولذلك تعكس لنا اللغة دائماً حال المجتمع وصورته ، من تخلف أو حضارة ، ومن رقى أو انحطاط ، ومن هنا كان من اليسير على الباحثين معرفة حقيقة أى مجتمع من خلال النظر فى لغته ، التى هى سجل أمين لكل تفصيلات حياته الاجتماعية .

والمجتمع اللغوى ليس مجتمعا معزولا عن سائر المجتمعات ، وإنما هو يعيش وسط خضم من اللغات المختلفة ، والجماعات المتباينة ، وهو مضطر ، خضوعا لسنة الحياة ، أن يخالط هذه المجتمعات ، وأن يطلع على ما لديها ، وأن ينشىء صلات سياسية واقتصادية وثقافية بالقريب منها والبعيد ، ولعل هذا الجانب هو أهم ما تكشف عنه الجغرافيا اللغوية ، حين تنجز خرائطها ، وترسم حدود الظواهر اللغوية أو اللهجية ، فى تماسها أو اختلاطها .

والعلاقات بين المجتمعات المختلفة لا تدوم على حال واحدة ، وإنما هى تتقلب بين الود والصدام ، والحرب والسلام ، ولكل معركة ظروف ، ونتائج ، أبسطها النتائج العسكرية ، وأهمها وأخطرها النتائج الاجتماعية التى تشمل التأثير فى اللغة ، ذلك الكائن الاجتماعى .

ومعنى ذلك أن الاحتكاك بين المجتمعات قدر من الأقدار الحضارية التى تؤثر فى حياة اللغة بالسلب أو بالإعطاء ، وبالتقوية أو بالإفناء . وللاحتكاك صورتان :

الأولى : الصورة العنيفة التى تتمثل فى الحروب بين مجتمعين من لغتين مختلفتين .

والثانية : الصورة الهادئة التى تتمثل فى قيام علاقات صداقة وجوار بين هذين المجتمعين ، وإليك حديثا مفصلا عن كلتا الصورتين .

الحالة الأولى : حالة الغزو المسلح

قد يحاول مجتمع ما أن يغزو مجتمعاً آخر، بوساطة القوة الحربية ، وتنتهى المحاولة - افتراضاً - بانتصار الغازى ، بفضل ماتوفر لديه من جند ومعدات ، وظروف زمنية ساعدت على تمام نصره ، ويلقى المجتمع المهزوم السلاح ، ويستسلم للوضع الجديد .

وقد يحدث على إثر هذا الانتصار أن تهاجر مجموعات من الشعب الغازى إلى الأرض الجديدة المقهورة ، وهى تنطق بلغة غير لغة أصحاب البلاد ، وهنا يبدأ - مع مرور الوقت - صراع بين اللغتين ، الغازية والمغزوة ، وليس من الضرورى أن ينتهى هذا الصراع بنفس نتيجة المعركة الحربية ، لأن للصراع اللغوى ظروفه الخاصة به ، والتى تختلف اختلافاً كبيراً عن طبيعة المعارك الحربية . والشعب المقهور قد يكون أصلب عودا فى تمسكه بلغته منه فى تمسكه بسلاحه ، وقد يكون مستسلماً على طول الخط .

والنهاية أحد احتمالين : فإما أن تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى ، فتصبح لغة مشتركة بين جميع السكان ، غازيهم ومغزوهم ، وإما أن تضعف كل منهما عن هزيمة الأخرى فتتعايش اللغتان على صعيد واحد .

وعلى أية حال فإن الذى يتحكم فى هذه النتيجة ليس قوة الجيش ، ولا روعة الانتصار فى المعركة الحربية ، وإنما الذى يتحكم أحد عاملين ، أو هما معا ، وذلك من الوجهة النظرية :

العامل الأول : درجة الحضارة ، وهو (الكيف) ، إيجاباً أو سلباً . وهو فى الواقع العامل الجوهرى .

العامل الثانى : عدد الغزاة ، وهو (الـكم) .

فإذا تساوى الشعبان فى عدم الحضارة : بأن كانا متخلفين بدائيين ، فإن نتيجة الصراع تتوقف حينئذ على كثرة العدد وقلته ، فالنصر يكون للأكثر عدداً ، لأن العدد القليل سوف يغرق وسط طوفان بشرى ، فلن يظهر له أثر . والسر فى ذلك أن العدد الـكبير سوف يشعر بأنه متحصن وراء لغته ، على حين تفنى الأقلية التى لاوزن لها من الناحية الثقافية ، فهى لن تحدث أثراً ، ولن تبذل مجهوداً فى ذلك الصراع ، والنتيجة فى هذه الحال طبيعية . ويزيد من سرعة الانتصار أن تـكون اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين .

وقد حدث فى الواقع مثل هذا حين نزح الإنجليز السكسونيون ، من أواسط أوربا إلى انجلترا ، فتغلبت لغتهم على اللغات السلتية ، التى كان يتكلمها السكان الأصليون ؛ وذلك لأن عدد السلتيين بهذا الإقليم كان قليلا بالقياس إلى عدد المغيرين ، وكلا الشعبين كان همجياً بدائياً ، ومن ثم انتصرت لغة الأكثرين على لغة الأقلين ، التى هى من نفس فصيلتها : الهندية الأوربية .

فهذا مثال على انتصار لغة الشعب الغازى .

وحينما غزا النورمانديون انجلترا ، واحتلوا معظم أقاليمها ، كانوا هم فى الواقع قلة بالقياس إلى عدد الشعب المقهور ، ولذلك لم تلبث لغة النورمانديين أن تلاشت أمام اللغة الانجليزية ، فأصبح جميع السكان يتحدثون الإنجليزية ، سواء منهم الإنجليزى الأصل ، أو النورماندى الأصل[١] . ويلاحظ أن كلا

(١) علم اللغة للدكتور وافى / ٢٠٩

الشعبين كان مجرداً من الثقافة الراقية فى ذلك العهد ، كما أن لغتيهما تنتميان إلى فصيلة واحدة ، هى الفصيلة الهندية الأوربية .

فإذا اختلفت اللغتان من حيث أصلهما كان من الصعب تغلب إحداهما على الأخرى ، حتى مع توفر العدد فى أحد الجانبين عنه فى الجانب الآخر .

وإذا كان أحد الشعبين متفوقا فى درجة الحضارة عن الشعب الآخر ، فإن التفوق الكيفى يكتسح أمامه أى تفوق كمى ، فى أى جانب كان . فإذا كانت الحضارة للشعب الغازى اكتسحت لغته لغة الشعب المقهور ، مهما يكن عدد النازحين منه إلى الأرض الجديدة قليلا ، ولكن يشترط فى هذه الحالة أن يطول زمن سيطرته على هذه الأرض ، حتى يمكن تحقيق نتيجة حاسمة للصراع اللغوى ، كما أنه لابد من استمرار إقامة مجموعة كبيرة من أبنائه بين مجموعات الشعب المغزو ، وتحاول هذه المجموعة الاختلاط بأفراد الشعب ، على جميع مستويات الاتصال ، اجتماعياً وثقافياً .

والسر فى ذلك ظاهر جداً ، لأن الشعب الغالب يملك إلى جانب قوته المادية قوة حضارة لاتتوفر أدواتها للشعب المغلوب ، ومن الضرورى لفائدة الصراع أن يتحول من المستوى العسكرى إلى المستوى الحضارى ، الذى يدرك المغلوبون خلاله أنهم بحاجة إلى استيعاب أصول الحضارة الجديدة وقواعدها ومظاهرها .

ومن لوازم كل حضارة جديدة أنها تصطحب معها ثروة فى الكلمات الخاصة بالتعبيرعن أشيائها ، وعن أفكارها . والأشياء فى الحضارات دلائل على الأفكار ، ومن هنا تصبح محاولات الحضارة الجديدة أشبه بدروس

وتعاليم يلقّنها أفراد الشعب المغلوب، ويحاولون تمثلها واتباعها، ابتداء من مجرد الإعجاب بها، إلى حد اعتقادها والدفاع عنها، وهكذا يتم للغالبين السيطرة والانتصار فى المعركة اللغوية، بسيادة لغتهم على لغة المغلوبين، مهما يكن عددهم كبيراً، فالكم لاقيمة له بجانب الكيف.

ومن الأمثلة على ذلك أن فتوح الرومان فى وسط أوربا وجنوبها وشرقها تبعها تغلب اللغة اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا الآن)، مع أن الرومان الغزاة كانوا أقلية بالنسبة إلى السكان الأصليين فى هذه المناطق الشاسعة.

ونحن نعرف جميعاً ما أحدثته فتوحات العرب فى صدر الإسلام للشام والعراق ومصر والشمال الإفريقى، فقد اكتسحت العربية أمامها اللغات التى كانت سائدة فى تلك البقاع الواسعة، والأوطان المتناثرة: اكتسحت الآرامية فى الشام والعراق وفلسطين، واكتسحت القبطية فى مصر[1]. واكتسحت البربرية فى الشمال الإفريقى، والكوشية فى الشرق، وحلت محل هذه اللغات فى أوطانها.

والسر فى ذلك كما نعلم أن العرب كانوا دعاة حضارة جديدة يحملها دينهم الجديد، على حين كانت هذه الأمم رازحة تحت نير الاستعمار الرومانى أو الفارسى، الذى وثب إليها فى غفلة من الزمن، وجهالة من أصحابها، فلم تكن الشعوب فى تلك البلاد ذات رسالة حضارية، وإنما كانت تستشعر

---

(١) انظر مقدمات فتح العرب لمصر، والتى تمثلت فى هجرات كبرى تاريخية إليها إبان العصر الجاهلى فى كتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزى، مع دراسات عن تاريخ العروبة فى وادى النيل؛ للدكتور عبد المجيد عابدين /٧٧ ومابعدها.

المهانة والذل ، من تصرفات المستعمرين المستبدين ، فلما جاء العرب ، وهم ولا شك قلة بالنسبة إلى أى شعب من هذه الشعوب ، جاءوا وفى أيديهم مشعل الحضارة والإيمان ، مشعل العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الناس . دون نظر إلى الجنس أو اللون أو المستوى المادى ، مشعل الحرية والأخوة الإنسانية ، والتعاليم الأخلاقية ، فاستهوت دعوته القلوب . ولذلك هبت الشعوب من فورها مستجيبة لداعى الحضارة الجديدة ،ولغتها الجديدة أيضاً .

ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافى أن انتشار اللغة العربية فى مصر كان بطيئا طوال القرن الهجرى الأول ، وقبيل نهاية هذا القرن ، أى فى سنة ٨٧ هـ ، وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر ، من قبل أخيه الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، أمر بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت من قبل تكتب بالقبطية ، ثم نقل نصاً آخر عن دائرة المعارف الإسلامية : « أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية » وهو الأصح ، وظل التحول من الكتابة باليونانية فى الدواوين،والتحدث بالقبطية ،إلى الكتابة والتحدث بالعربية بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى تتكلم العربية ، ولا يفهم أفرادها القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا فى هذا القرن الرابع أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية ، وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض فى هذا العصر ،فالحقيقة أنها ظلت باقية فى ألسنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك . بدليل ما يذكره المقريزى من أن المأمون كان ينتقل فى ريف مصر ومعه مترجم[1] .

---

(١) المرجع السابق /٢١٢ هامش

وهذا الذى يذكره الدكتور وافى يدلنا على أن انتصار اللغة الغالبة ، برغم ما تحمل من دعوة حضارية يحتاج إلى عدة قرون ، وأن المعركة تستمر عدة أجيال كثيرة ، إلى أن يستتب لها الأمر ، بعد أن تمر بمراحل كثيرة .

بيد أن هذا الانتشار الساحق للعربية ، والذى ارتبط بدعوتها الحضارية ارتباطا سافرا ، لا يعجب اللغوى فندريس ، الذى يقرر أن هناك عنصرا عاطفيا قد يتصدر أسباب انتصار بعض اللغات ، وهذا العنصر العاطفى ينحصر فى الهيبة التى تتميز بها بعض اللغات ، وضرب لذلك مثلا بحال اللغة الإغريقية فى مواجهة الغزو التركى ، وذلك لأن إرادة الإغريق فى ألا يضحوا بلغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور ، فلم تستطع التركية يوماً أن تحل محلها ، أو حتى تنال منها ، برغم سيطرة اللغة التركية على الأجهزة الإدارية[1] .

كذلك يرجع إلى هذه الهيبة انتصار اللغة اللاتينية فى المجال الذى غزته جحافل الرومان فى أوربا ، فما كان للاتينى أن يرضى بتعلم إحدى اللغات المتبربرة ، ولذلك قضت اللاتينية فى إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكية والأمبرية .

ولكنه يعود فيربط هذه الهيبة بمعنى الحضارة التى يمثلها أصحاب اللغة المهيبة ، فيقول : كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية ، وهذه القيمة فى حالة اللغات الإغريقية تعتبر شيئاً كبيراً ، لأنها تفوق بكثير كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل ، فالتركية ، وهى لغة الفاتحين ،

(١) اللغة /٣٠١

ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الإغريقية التى تمثل ثقافة من أعرق الثقافات ،وربما كان لفندريس حق ما فى هذا التفسير للصراع التاريخى بين التركية والإغريقية .

لكنا نجده بعد ذلك يتعجب من القدرة على الانتشار التى حققتها بعض اللغات الهندية — الأوربية ، أو السامية كاللغة العربية ،وهى ترجع بلا شك - كما قال - إلى أسباب معقدة[1] !!

فما هذه الأسباب المعقدة ؟ - لقد حاول فندريس أن يغمض عينيه عن جوهر الحضارة الذى حملت العربية رسالته ، وتولت مهمة البيان عنه أمام الإنسانية كلها ، وذلك الجوهر هو (الإسلام) ، وليس الإسلام (بالأسباب المعقدة) ، ولكن الطريقة الأوربية فى النظر إلى تاريخ البلاد الإسلامية والعربية هى المعقدة .

والعجيب أن فندريس على جلالة قدره يعمى عن الحقيقة فى صراع التركية مع الإغريقية ، فيرجع ذلك إلى تفوق الإغريقية حضاريا ، وعجز التركية وانحطاط مستواها . برغم أنها لغة الفاتحين ، وهو فى هذا يتجاهل - عن عمد - حقيقة فرضت نفسها على أقدار أوربا قرونا عديدة ، هذه الحقيقة هى أن الأتراك كانوا أرقى من اليونانين حضاريا ، لأنهم كانوا يحملون رسالة الإسلام ، وقد كانت تركيا بالإسلام أرقى وأقوى الأمم الأوربية . لقد كان الأتراك أسرع شعوب أوربا استجابة لرسالته ، غير أنهم لم يحسنوا حمل هذه الرسالة[2] ، وأضعف من قدرتهم على الانتصار فى الصراع اللغوى

---

(١) السابق

(٢) حمل الأتراك الإسلام كسلطة زمنية ، ولم يتمثلوه كقيم حضارية . وبذلك تحولوا بعد مرحلة قليلة نسبياً إلى قوة بطش وطغيان ، بعيدة عن المغزى الحضارى والروحى لرسالة الإسلام التى جاءت رحمة للعالمين .

أن لغتهم لم تكن لغة الحضارة التى يمثلونها ، بل كانت مزيجا مختلطا من ألفاظ تركية أصيلة تنتمى إلى الفصيلة الطورانية، وأخرى عربية إسلامية تنتمى إلى الفصيلة السامية ، وما كان لهذا الخليط الملفق أن ينتصر على كل منسجم متوافق ، منتم إلى أصل واحد ، هو اللغة الإغريقية ، فهزيمة التركية فى هذا الصراع ترجع إذن إلى أسباب لغوية أكثر من أن تكون حضارية.

وقد كان اختلاط التركية بالعربية فى أصواتها ، وفى ألفاظها ، وفى رموزها الكتابية يكاد يفصلها عن فصيلتها الطورانية، ليلحقها بالفصيلة السامية. وقد سبق أن قررنا أن الانتصار فى الصراع اللغوى يكون أيسر إذا ما كانت اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، وهو مالم يتوفر فى حالة الصراع بين التركية والإغريقية ، فالتركية طورانية ، والإغريقية هندية ـ أوربية .

وأغلب الظن أن هذا الصراع لو نشب بين العربية ، وهى لغة الحضارة الإسلامية ، وبين الإغريقية ، على ما تتمع به من أصل عريق ـ لتغلبت العربية على الإغريقية ، واكتسحتها فى مواطنها ، كما محت كل أثر لها من مصر ، أرض الاحتلال الإغريقى . والسبب فى ذلك حينئذ هو تفوق المفهوم الحضارى لدى العرب عن المفهوم الحضارى عند اليونانيين ، وارتقاء اللغة العربية ارتقاء حضاريا عن اللغة الإغريقية ، وهى نتيجة غير مستبعدة الحدوث برغم اختلاف اللغتين من حيث أصلهما .

فإذا حدث العكس ، وهو أن يكون الشعب المغزو أرقى حضارة من الشعب الغازى ، فإن النتيجة حينئذ بدهية ، وهى استحالة انتصار الهمجية ولو غلبت ، على المدنية ولو قهرت ، فهذا الانتصار مؤقت دون شك ولابد أن يسترد الشعب المتحضر المقهور شخصيته ، عاجلا أو آجلا .

والاحتمال الثالث فى هذه القضية هو أن يكون الشعبان ذَوَىْ حضارة عريقة ، فلغة كل منهما قوية راقية . وحينئذ لا يمكن أن نجد لهذا الصراع أى أثر لغوى ، وإنما يكاد ينحصر أثره فى الميدان الاقتصادى أو السياسى .

ومن الأمثلة على ذلك صراع الألمانية مع الفرنسية فى داخل سويسرا ، ففى الشعب السويسرى قسم يتحدث الفرنسية ، وقسم آخر يتحدث الألمانية ، وكل ما يحدث هو أن تطرد الألمانية الفرنسية من إحدى القرى ، أو العكس ، دون أن يقال : إن الصراع بين اللغتين قد أضفى أثراً معينا على إحداهما من من الأخرى .

وليس هنالك مقياس معين يفرض إحدى اللغتين على السكان ، دون الأخرى ، فاللغتان فى حالتنا هذه متساويتا القوة ، ولكن المصلحة العملية لسكان القرى هى وحدها الحكم فى مثل هذه الحالة ، وهى التى تحكم لهذه اللغة أو تلك ، وقد تبقى اللغتان زمناً طويلا فى حالة تعادل .

ولقد يكون للعامل السياسى أثر كبير فى حسم نتيجة الصراع اللغوى ، حتى بين اللغتين غير المتكافئتين ، وقد برز هذا العامل فى العصر الحديث ، حين وجدنا كثيراً من الشعوب المستعمرة ، والمتخلفة ، تعمد إلى إحياء لغتها ، كوسيلة إلى بعث شخصيتها ، وقصدا إلى إذكاء روح الكفاح فى الأفراد من أبنائها ، فى مواجهة لغة المستعمرين المتحضرين . وقد قفز الوعى بأهمية اللغة فى الصراع من أجل الحرية قفزة عظيمة فى السنوات الأخيرة ، وخرجت إلى الوجود لغات إفريقية وآسيوية ما كان لها أن تنبعث ، لولا الشعور بالحاجة إلى درع لغوى يتحصن به الكفاح السياسى .

ففى حالة الجزائر مثلا سيطر الاستعمار عليها مائة وثلاثين عاما ، حاول خلالها أن يدمر كل رابطة تربطها بالإسلام والعربية ، لينفرد بها لقمة سائغة، وقد كان لدى الفرنسيين تخطيط شامل لهذا التغيير الجذرى ، يبدأ بالطفل الجزائرى ، إلى أن يصبح الطفل رجلا كبيراً متعاملا مع المستعمرين بلغتهم وبأسلوبهم ، يؤازرهم فى ذلك تفوق فى المفهوم الحضارى ، وهجرة هائلة غطت التراب الجزائرى كله ، وسياسة تقضى على كل أمل فى تدارك الخطر . حتى لقد سادت الفرنسية كل مستويات النشاط الثقافى ، فكان المفكرون والأدباء والصحفيون ، ومن دونهم من أبناء الشعب — يتكلمون ويستعملون الفرنسية رسمياً وشعبياً ، و يجهلون العربية ، إلا بضع كلمات .

غير أن بعض المصلحين الجزائريين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أدركوا أن المعركة من أجل الحرية يجب أن تبدأ باستعادة اللسان العربى ، فأنشأ الرجل (جمعية العلماء) التى أنشأت الكتاتيب فى المساجد والزوايا ، لتعليم اللغة العربية ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وأقبل الناس على هذه الكتاتيب ، مضحين بكل الميزات التى ضمنها المستعمر لرواد مدارسه ، كانت هذه فى الواقع بداية النهاية للاستعمار فى أرض الجزائر ، وهى الأرض الصلبة التى جرت عليها المعركة الضارية قرابة ثمانى سنوات من الثورة المسلحة.

وهاهى ذى معركة التعريب فى الجزائر على قدم وساق ، تحاول أن تضع اللمسات الأخيرة لرسم وجه الجزائر العربى المسلم ، على رغم تشويه الاستعمار وتشويشه أيضاً ، فقد استرد الشعب الجزائرى روحه حين استرد لسانه العربى .

ولقد نجد مثالا آخر من هذا القبيل فى الصومال ، حيث كانت تسيطر إيطاليا وفرنسا ، وحيث حاول الاستعمار فرض لغته على أبناء البلاد ، فإذا

بهم وقد نالوا حريتهم يحاولون بعث اللغة الصومالية ، التى لم تكن إلى عهد قريب لغة مكتوبة ، وهم يحاولون وضع نظام كتابى لها على أساس الرموز اللاتينية ، لتصبح من بعد ذلك لغة الدولة الصومالية ، بعد أن فشلت للأسف محاولة وضع نظام عربى لكتابتها . لأسباب لعب فيها الاستعمار دوره ، وأكملت الماركسية بقية المهمة ، لتفصم ما بين الشعب الصومالى ودينه ولغته .

فهذه هى المظاهر العامة للصراع اللغوى ، الذى يبدأ بغزو يعتمد على القوة المسلحة ، ثم تحدث من بعده هجرات ذات طابع معين ، وهذه هى القواعد التى تحكم ذلك الصراع .

الحالة الثانية : حالة الجوار بين اللغات

والصراع فى هذه الحالة سلمى ، لا تتحكم فيه عوامل هزيمة عسكرية ، ولا غطرسة فاتحين منتصرين ، وإنما يتحكم فيه بالدرجة القصوى مسألة تفوق إحدى اللغتين حضارياً عن الأخرى ، كما قد يؤثر فيه التفوق العددى .

فمن حالات هذا الصراع أن ينمو أحد الشعبين نمواً كبيراً ، حتى تضيق به المساحة التى يشغلها فتفيض منه موجات هجرة إلى الأراضى المجاورة ، التى يشغلها شعب آخر ذو لغة مخالفة ، وهنا يحدث احتكاك وصراع لغوى ، تكون الكلمة الفاصلة فيه لأكثر الشعبين عدداً ، أو لأوفرهما قسطا من الحضارة .

وعامل الحضارة فى هذه الحالة عامل مهم ، وذو تأثير خطير ، يفوق تأثير العدد الكبير ، ذلك لأن الحضارة قادرة على امتصاص التأثيرات المخالفة لمجالها ، وتمثلها .

ومن حالات هذا الصراع أيضاً أن يؤثر شعب على شعب مجاور له بنفوذه السياسى ، فتتغلب لغة الشعب ذى النفوذ الأقوى ، ومن أمثلة ذلك ما يحدث الآن بين اللغة الروسية والشعوب التى يقوى فيها نفوذ الاتحاد السوفيتى ، وبخاصة فى ولاياته الآسيوية ، فلا ريب أن لغات عديدة قد انقرضت ، أو هى فى طريقها إلى الانقراض بتأثير النفوذ الروسى على حياة هذه الشعوب ، وهو نفوذ يقوم على الانتصار للإيديولوجية الشيوعية ، وإذابة

ما عداها من عقائد [١] ، متخذا من اللغة الروسية أمضى أسلحته على الإطلاق .

وقد قام بعض اللغويين بدراسة تأثير اللغة الفرنسية ، وهى لغة مشتركة تمثل مدنية منظمة تنظيما قويا ، على مجموعة اللهجات المحلية ، واختار منها اللهجة البريتانية الشائعة فى مقاطعة بريتانيا ، وذلك فى ضوء دراسة العلاقة بين اللغتين الفرنسية والألمانية فى سويسرا ، فقرر أن كلتا الحالتين لاتشبه الأخرى ، إذ أنه فى حالة الفرنسية والألمانية تتقدم اللغتان وتتقهقران ، على نحو ما يفعل جيشان متجابهان ، فتأخر إحداهما أو تقدمها معناه انتقال فى الحدود . أما الحدود اللغوية بين البريتانية والفرنسية فلم تكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذى ربحته الفرنسية فى بريتانيا .

ففى بريتانيا توغلت الفرنسية فى كل اللهجات دون استثناء ، ولغة المدنية تحمل معها تيارا جارفاً من الكلمات الجديدة ، التى تمثل أشياء وأفكارا وعادات جديدة ، كما أن الآداب والدين قد ملآ البريتانية بالكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر ، وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقدم للبريتانيين بالطبع نماذج لكتب العبادة والتهذيب ، فظلت البريتانية تنحصر شيئاً فشيئاً فى الاستعمالات الزراعية والخاصة ، وأخذت الخدمة العسكرية ، وتعليم الفرنسية فى المدارس ، يعجلان هذه الحركة منذ نصف قرن [٢] .

---

(١) يظفر الإسلام فى ولايات الاتحاد السوفييتى بنصيب كبير من الحرب ، وتعمل اللجان الخاصة التى يؤلفها الحزب الشيوعى هناك على تلحيد المسلمين ، وهناك أيضاً ما يسمى بأكاديمية الإلحاد لإعداد المناهج العلمية من أجل القضاء على الإسلام فى الولايات الإسلامية ، توقياً للخطر العقائدى الذى يمثله وجود الإسلام فى نظر الماركسيين ، فهو البديل الوحيد المتفوق على سائر إيديولوجيات البشر .

(٢) اللغة / ٣٠٣

وهناك أمر هام هو أن توغل الفرنسية ظل زمنا طويلا يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت البريتانية تتلقى على غير شعور منها عدداً من الكلمات الفرنسية يزداد يوما بعد يوم ، ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طعمت بالكلمات الفرنسية .

أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما ، وفى هذه المنافسة خطر على البريتانية ، إذ أن الفوائد التى يمكن الحصول عليها من معرفة الفرنسية تفوق كثيرا تلك التى يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية وحدها ، هذا إلى أن الفرنسية لغة بورجوازية ، وتستعمل دون سواها فى مجتمعات المدن ، فهى تغرى بنات الحقول بالتكلم بها ، كما تغريهن ثياب الطبقة الراقية بلبسها ، يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالمجتمع البورجوازى تزداد يوما بعد يوم ، فمنهم الموظفون ، وخدم المنازل الذين يتكلمون الفرنسية مع مخدوميهم ، وقد جعل اتساع السياحة من الأجنبى ومن البورجوازى مورد رزق المواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة فى آن واحد . إلى غير ذلك من صور الاتصال بين اللغتين ، والصراع بينهما .

وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريتانيا ، فى حين أن البريتانية بلهجاتها المتعددة لم تصل يوما إلى هذا المركز ، فالتناحر بين البريتانية والفرنسية يرجع إذن فى نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية[1] .

---

(١) السابق

هذه الصورة عن صراع اللغتين صراعا سلميا يمكن أن نتصور مثيلتها هنا ، فى مصر ، فإلى جانب العربية التى يتحدث بها أغلب السكان نجد أن هنالك لغة أخرى يتخاطب بها مجموعة من الشعب ، هى اللغة النوبية ، ويمكن قياس مركز هذه اللغة بالنسبة إلى العربية بمركز البريتانية بالنسبة إلى الفرنسية .

غير أن اللغة النوبية كانت إلى زمن قريب جدا معزولة عن مجال تأثير العربية عزلا يكاد يكون تاما ، وذلك فى الأراضى والجبال التى غطاها الآن النيل ، فى بلاد النوبة ، بعد بناء السد العالى ، وقد كان وضعها هذا المنعزل يفرض عليها أن تبقى بعيدة عن تأثير العربية قليلا ، إذ لم يكن يتأثر بالعربية سوى أولئك الذين وفدوا إلى القاهرة يمارسون فيها بعض الأعمال ، وهؤلاء لا يعودون إلى النوبة القديمة إلا على فترات متباعدة ، ولأيام معدودة ، ومن هنا كان تأثير العربية فيما يبدو ضعيفا فى النوبية .

أما الآن ، وبعد أن تم تهجير شعب النوبة إلى الأرض الجديدة ، شمالى أسوان ، فإن تاريخا جديدا قد بدأ فى حياة هذا الشعب يفرض عليه الاحتكاك والاتصال بالشعب العربى فى الوجه القبلى ، وأغلب الظن أن وضع اللغة النوبية سوف يتغير بعد عدة أجيال .

غير أننا نرى أن تأثير الحياة والصراع الجديدين سوف يكون بطيئا جدا ، نظراً لتأخر المستوى الحضارى فى هذه البقاع عن المستوى الذى بلغته القاهرة ، اللهم إلا إذا نظمت حملات إعلام ، واستغلت أعمال التعمير

والإنشاء ، المتنامية فى المنطقة ، فى إضافة المزيد من القيم الحضارية إلى حياة الشعب النوبى بوجه خاص ، والشعب القبلى بوجه عام .

ولا شك أن حالة لغوية كهذه جديرة أن تتابعها الدراسات اللغوية الحديثة ، وأن تلاحظ فيها ظواهر الصراع وخفاياه ، وهى فرصة يمكن أن تلتقى أضواء كاشفة على ما أمكن التوصل إليه من حقائق ونظريات عن الصراع اللغوى فى العصر الحديث .

نتائج الصراع اللغوى ومراحلها

هذا الصراع الذى اختلفت ضروبه وظروفه ، لا يحقق نتائجه من انتصار اللغة الغالبة على اللغة المقهورة دفعة واحدة ، فقد سبق أن ذكرنا أن ذلك قد يستغرق فى بعض الحالات قروناً طويلة ، فى حالة انتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة ، والأمر أعسر من ذلك بكثير فى حالة اختلافهما .

وإلى جانب العنصر الزمنى وأهميته فى الصراع اللغوى وجدنا عنصر الحضارة ذا تأثير حاسم فى مصيره ، إذ أنه إلى جانب هذا العنصر تهون قيمة التفوق العددى ، كما أنه فى حالة انعدام الحضارة لدى الجماعة اللغوية الغازية لا يمكن أن يؤتى الصراع نتيجته المرجوة إلا إذا تشابه المغلوبون مع الغالبين فى عدم الحضارة ، وبذلك يكون النصر للأكثرين عدداً ، ومن هنا نعلم أن أهم عوامل النصر فى الصراع اللغوى هو : الحضارة ، وأهم شرط لتحقيق هـذا النصر هو : الزمن ، ويأتى التفوق العددى من حيث قيمته التأثيرية فى المرحلة الأخيرة .

وبقى أن نعرف المراحل التى يتم بها انتصار لغة على أخرى ، وقد حددها الدكتور وافى [1] بثلاث مراحل :

١ — المرحلة الأولى :

وتقذف فيها اللغة الغالبة اللغة المغلوبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، وهى الـكلمات التى تمثل بالأخص الجانب الحضارى ، الذى لم يألفه المغلوبون

---

(١) علم اللغة السابق

ولا ارتقوا إلى مستواه ، ويشمل ذلك أسماء المخترعات والآلات ، كما يشمل العادات المخالفة ، والتقاليد الرسمية والشعبية ، ومصطلحات العلوم ، وألفاظ الحضارة ، وبذلك يضعف المتن الأصلى للغة المغلوبة ، ويتجرد من كثير من مقوماته .

ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ، ومخارج حروفها ، وأساليبها فى نطاق الكلمات ، فيؤلف أهلها عباراتهم ، ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والصرفية ؛ وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ، ومخارج حروفهم حتى إنهم ليستبدلون ، فى الكلمات الدخيلة ، بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم — حروفا قريبة منها ، من حروف لغتهم .

وقريب من هذا ما نصت عليه كتب اللغة من أن العرب (مع الفارق فى القياس) كانوا — إذا عرضت لهم كلمة من الفارسية أو اليونانية مشتملة على صوت لا يوجد مثله فى حروف الهجاء العربية — ينطقون الصوت الغريب فى صورة أقرب الأصوات إليه فى لغتهم . وقد أشار إلى ذلك أبو الحسين أحمد بن فارس فى كتابه (الصاحبى) حين قال فيما رواه عن ابن دريد : حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها ، فمن تلك الحروف الحرف الذى بين الباء والفاء مثل (پور) إذا اضطروا فقالوا : (فور)[1] ، وهى بالفارسية تعنى : الولد أحيانا[2] .

٢ — والمرحلة الثانية :

تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ، ومخارج حروفها ،

(١) الصاحبى / ٢٤ — ٢٥

(٢) المعجم فى اللغة الفارسية الطبعة الأولى ٨٦

وأساليبها فى نطق الـكلمات ، فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة ، وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها ، وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة .

ولا شك أن هذه المرحلة لا تأتى إلا بعد الإلْف الطويل ، والمخالطة الدائمة بين المتـكلمين باللغتين ، فيزداد بذلك تشبع الناس بالتقاليد النطقية الجديدة ، ويزداد تمثلهم لألفاظ اللغة الغالبة . فيأتون بها على وجهها الصحيح، أو قريبا منه ، ومن هنا يزداد أيضا ابتعادهم عن تقاليدهم النطقية الأصيلة ، وينحل النظام الصوتى ليحل محله بالتدريج تلك النظم الدخيلة .

غير أن اللغة المغلوبة فى هذه المرحلة تحاول أن تقاوم الغزو اللغوى المتزايد فيتشبث أهلها بقواعد تصريفهم للـكلمات ، وقواعد تركيبهم للجمل ، وبما امتازت به لغتهم من عبارات مأثورة ، وأمثلة محفوظة ، تحمل فى نظرهم خلاصة تجارب القرون ، فيظلون يتمثلونها فى مواقفهم ، كبقية من البقايا الثمينة التى يفزعون إليها ، ولـكن ذلك لا يمنع طغيان التيار الغازى ، وتدفق موجاته العارمة فى محاولة للقضاء على هذه المقاومة .

٣ — والمرحلة الثالثة والأخيرة :

هى التى تنهار فيها مقاومة اللغة انهيارا تاما ، فتستسلم للصراع ، وتسقط معاقلها المتبقية ، معقلا فى إثر معقل ، إلى أن يسقط معقل القواعد النحوية ، وبذلك يسدل الستار عن فصل تاريخى من فصول الصراع اللغوى ، بين لغة منتصرة فرضت نفسها ، ولغة مهزومة انسحبت من المجال ، أو على الأصح ماتت على ألسنة أصحابها ، وانقرضت انقراضاً يكاد يكون كاملا .

على أن هناك حقيقة ينبغى أن نتذكرها دائما ، هى أن اللغة التى أصبحت

مغلوبة لا يقضى عليها قضاء تاما ، وإنما الملاحظ أنه لا بد أن تؤثر هى الأخرى فى اللغة الغالبة ، وأن تترك فيها بعض بصماتها ، لأن المتكلمين الجدد يتميزون ولا شك ببعض الصفات النطقية ، التى تطبع نطقهم بكلمات اللغة الجديدة ، فالصورة التى سوف ينطقون بها هذه اللغة لابد أن تكون متأثرة بهذه الصفات ، وحينئذ يمكن أن نقرر ظهور صورة جديدة قد تطورت إليها اللغة الغالبة على ألسنة المغلوبين .

من قضايا العربيـــة

ومشكلاتها المعاصرة

اللغة العربية المشتركة

سبق أن ذكرنا خلال حديثنا عن اللغة المشتركة واللهجات العوامل التى تنشأ بها اللغة المشتركة ، والصورة التى تكون عليها لغات الأفراد فى إطار هذه اللغة ، وعوامل الانقسام اللهجى ، وحدود هذا الانقسام .

ومن الطبيعى أن نطبق ماقلنا هنالك على حالة اللغة العربية ، لأنها هى الهدف الأساسى من دراستنا الأكاديمية والعملية .

وتاريخ هذه العربية تاريخ بعيد ، يرجع إلى ماقبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ،حتى لقد وجدنا الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يكتب كتابا يقرر فيه أن الثقافة العربية أقدم وأسبق من ثقافة اليونان والعبريين[1] .

وهو يقرر فى هذا الكتاب الفريد : أنه قد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة ، وهم معروفون بهذا الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ، ويطلقه عليهم غيرهم . وقد كانوا من قبل ذلك يسكنون هذه الجزيرة العربية ، قبل ذلك أيضاً بقرون ، ثم يقول : ولاخلاف كذلك فى قدم اللسان العربى فيها ، ولا فى أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ، ولم يعرف لهم لسان قبله يخالف له فى أصوله وخصائصه ، ثم تساءل : أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرنا مقيمين بالجزيرة العربية ، أم كانوا مقيمين فى موطن آخر ، ثم هاجروا إليها ؟

فاستعمال العربية فى رأى الأستاذ العقاد كان على ألسنة أهلها منذ أكثر

(١) سلسلة (المكتبة الثقافية) العدد (١) وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

من ثلاثين قرنا ، غير أنه يقرر بعد ذلك : أن عربية ذلك الزمان السحيق لم تكن هى عربية اليوم ، وهو أمر طبيعى ، ولكنها كانت فى صورة لغة أخرى ، هى الآرامية التى كانت عربية تلك الأيام فى موطنها ، وأنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة،ويختم حديثه بقوله : « وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية فى لغتها ، ونشأتها، ونسبتها إلى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية فى عهودها الأولى ، فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية » .

وليس الأستاذ العقاد منفردا فى رأيه هذا ، بل سبقه إلى ما هو أكثر منه بلوغا فى الزمان باحث عربى آخر هو الأستاذ محب الدين الخطيب،الذى وصل بالوجود العربى فى الجزيرة وما حولها إلى أبعد مما وصل إليه العقاد ، فمن المعلومات التاريخية المقررة الآن أن أول موجة هاجرت من الجزيرة العربية إلى العراق كانت عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد ، أى : منذ ستة وخمسين قرنا ، وبذلك يكون ظهور إبراهيم عليه السلام فى العراق ـ حدثا عربيا فى شكله العام ، وإن انتمى إلى بعض القبائل التى تحمل اسم الكلدانيين ، وهم قوم من الساميين ،أو العرب بشكل عام .

ويقدم المؤلف تفسيرا لهذا الالتقاء التاريخى فى تصوره فيقول : « إن اللغات السامية ، وهى اللغات التى كان يتكلم بها الكلديون والأشوريون ، فى العراق ، والسريانيون والفينيقيون والعبرانيون فى الشام والحبشة ، وراء الساحل العربى من بحر القلزم [البحر الأحمر] ـ كن فى العصور الأولى متشابهات بحيث يعتبرن كلهن لهجات للغة واحدة ، ولذلك استطاع سيدنا

إبراهيم عليه السلام أن يتنقل بين العراق والشام ومصر والحجاز، وأن يتفاهم مع جميع سكان تلك الأقطار، إذ لم يكن بين لغاتها من فرق إلا كما يوجد الآن بين لهجات العربية فى المغرب ومصر والشام وسائر هذه البلاد، ولا نستطيع القول بأن واحدة منهن هى الأصل، والأخرى فروع لها، بل الراجح أن اللغة الأصلية التى ترجع إليها هذه اللغات ـ ذابت فيهن، غير أن الحالة التى كانت عليها اللغات السامية جميعا قبل ظهور الإسلام تحملنا على القول بكل جزم وتأكيد ـ أن العربية أرقاهن، ومعنى هذا أنها أعرقهن فى القدم، فلا يبعد أن تكون هى البنت البكر لأمها السامية الأولى »[1].

غير أن هذا التاريخ الذى أشار إليه الأستاذان العقاد والخطيب غامض غموضا شديداً، نظرا إلى أن هذه اللغة لم تتطور فى وسط حضارى، بل كانت القبائل التى تكلمت بالعربية فى التاريخ منعزلة وسط بحار من الرمال، فيما سمى بشبه الجزيرة العربية، ولم يؤثر عن هذه القبائل أنها كانت تعرف شيئاً عن فنون التسجيل الحضارى كالنقش على الحجر، أو كالكتابة على البردى، أو كالتماثيل والمعابد والأديرة، وهو ما سجلت عليه الحضارة الفرعونية فى تاريخ مصر القديم، فحفظت لنا به معالم تلك الحقبة الخالدة فى تاريخ الإنسانية.

إن التاريخ العربى فيما قبل الحقبة المسماة بالعصر الجاهلى يتلخص فى عبارة واحدة هى: (لقد ولد العربى ومات)، فهذا القدر هو الذى جرى على كل عربى فى تلك الجزيرة، فى ذلك التاريخ البعيد، الذى شهد تطور العربية واستواءها على ألسنة أهلها من بدو الصحراء.

---

(١) اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب ـ بحث تاريخى فى الهجرات العربية منذ ستة آلاف سنة. وفى أن أصل الكلدانيين والفينيقيين. من العرب ـ للمرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب

وقد حاول بعض المستشرقين أن يكشفوا فى حفرياتهم شيئاً من هذا التاريخ ، ومن ذلك أنهم قدموا لنا بعض النقوش التى عثروا عليها فى بادية الشام ، فى حوران ، وفى زبيد ، وفى النمارة[1] ، وقالوا : إن ما وجد بها من نصوص يعد تصويراً لطفولة هذه اللغة ، ولكن التحقيق العلمى كشف عن أن هذه النصوص تنتمى إلى اللغة الآرامية التى هى مرحلة عربية، إلى جانب أنها ضحلة،وأكثر مضمونها أسماء أشخاص ، لا تعطى فكرة واضحة عن لغتها.

وهكذا نقف فى عماية وغموض إذا ماحاولنا كشف شىء،ولو قليل ، عن طفولة هذه العربية الفصحى .

ولكن هذا لا يمنعنا أن نؤكد أنها كانت كسائر لغات البشر ذات طفولة استمرت عدة قرون ، إلى أن شبت عن الطوق فكانت هذه اللغة المثالية الراقية ، التى تتمثل فى لغة الشعر الجاهلى .

وليس من المعقول أن نعتبر الشعر الجاهلى هو البداية الحقيقية لهذه اللغة، فليس من سنن الله فى تكوين اللغات أن تكون فى منشئها على هذا النسق الرفيع .وذلك النضج المكتهل ، وإنما الطبيعى أن لغة الجاهلى قد مرت خلال أحقاب تاريخية طويلة بمراحل تطورية هائلة ، تم خلالها صقلها على هذه الصورة العجيبة ، فاكتمل لأصحاب اللغة ذلك المستوى الراقى من القدرة على البيان ، فصاغوه ، نثرا فى خطبهم ، وشعرا فى قصائدهم ومعلقاتهم ، وانتهى إلينا مما قالوه نماذج تعد قمة لا تدانيها محاولات الشعراء والبلغاء على مر الزمان، وربما لو ذكرنا هذين البيتين :

ولقد ذكرْتك والرماح نَوَاهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرِك المتبسم

(١) ارجع فى هذا إلى كتاب (مصادر الشعر الجاهلى) للدكتور ناصر الدين الأسد — طبعة دار المعارف .

— دون أن نعرف قائلهما ، لحسبنا أنه أحد الشعراء المولهين المغرمين ، من المعاصرين ، ولكم يروعنا أن نعرف أنه عنترة بن شداد ، أحد فرسان الجاهلية ، وأحد شعرائها الأفذاذ ، وليس ما يروعنا منه هو تلك السلاسة فى التعبير فحسب ،ولكنها كذلك القدرة على صوغ هذا الموقف الفنى بالعناصر النفسية ، فى تلك العبارة الموجزة ، وذلك التعبير الأخاذ الساحر ، الممتلىء أدبا وتصونا ، المتنزه على الإسفاف فى تصوير المشاعر العاشقة .

ولغة على هذا المستوى لاتكون فى بدايتها ، وإنما فى قمة نضجها ، وفى أوج ازدهارها . وهى مرحلة لاتبلغها اللغات قبل أن تدب عشرات القرون على أربع ، ثم على رجلين ثم تستوى ناهضة لتطير بجناحين ، وهى فى خلال هذه المراحل التطورية تهذب من صيغها ، وتطور أصواتها ، وتنقى تراكيبها، وتصفى معانيها ، وتضيف إلى محصولها من اللغات المجاورة التى تحتك بها ، إلى أن يتم لها كيان لغوى ذو سمات مكتملة .

على أن وضع اللغة العربية كان فى الحق ممتازا عن سائر أخواتها من اللغات السامية ، إذ أنها قد انعزلت فى بيئاتها الصحراوية ، وابتعدت عن الاحتكاك باللغات المجاورة كثيرا.ولذلك يقرر اللغويون أنها أقرب أخواتها الساميات إلى اللغة السامية الأم (على فرض وجودها) ، لأنها احتفظت بعدة عناصر امتازت بها الفصيلة السامية على سائر اللغات المعروفة ، ثم انقرضت هذه العناصر من بقية أخواتها كالعبرية والسريانية والآرامية ، التى كانت مرحلة من مراحلها التاريخية فى رأى الأستاذين العقاد والخطيب .

وأبرز مثال على ذلك ظاهرة الإعراب التى تلازم أواخر الكلمات فى العربية ، فهى ظاهرة سامية قديمة ،توجد بعض بقاياها فى الأكدية ،ولكنها

انقرضت من سائر اللغات السامية ، وماذلك إلا لأن العربية قد انعزلت فى الصحراء ، بعيدا عن عوامل التأثير والتأثر باللغات المعاصرة لها ، والتى كانت تتأثر فى الواقع باللغات الغالبة عليها ، كالفارسيـــة والرومية والإغريقية .

ومن المسلم به تاريخيا أن العرب كانوا أمة متفرقة إلى قبائل ، وأن هذه القبائل قد حدث فيما بينها صراع هائل خلال قرون طويلة ، وشبت بينها حروب استمرت أحيانا إلى مائةعام . غيرأنها كانت أحيانا تميل إلى التواصل، وبخاصة فى ظل المقدسات التى تركزت فى مكة ، وكانت مكة فى الواقع أشبه بقلب الجزيرة العربية ، يفد إليها الحجيج رجالا وعلى كل ضامر ، ومن كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، على حد تعبير القرآن .

فالحياة العربية[1] فى صورتها الأولية لاتخرج عن التصور القبلى ، حيث كانت القبائل تعيش منعزلا بعضها عن بعض ، معتزاً كل منها بتقاليده الاجتماعية واللغوية ، مفتخراً بما لديه من قدرة على البطش بمعارضيه .

وحياة العزلة ذات تأثير على كل عناصر المجتمع ، البشرية والمعنوية ، فالأطفال فى ذلك المجتمع ينشأون بعيدين عن رعاية الأب والأم ، المشغولين بالرعى وتربية الأغنام ، وجلب القوت اليومى ، والحى خال من الكبار ، ممتلىء بالصغار ، الذين يلعبون معا ، ويمرحون ويغنون ، أعنى أنهم يمارسون

---

(١) انظر حول الأفكار الأساسية فى الموضوع كتاب « فى اللهجات العربية » للدكتور إبراهيم أنيس – الفصل الثانى .

نشاطهم اللغوى ، حرا طليقا من كل قيد أو رقابة . ولو فرض أن أحدهم كان منحرف النطق فى بعض الأصوات أو الصيغ — وهو ما كان واقعا دائما — فليس هناك من يقوّم له لسانه ، أو يعينه على تدارك خطئه ، ومن هنا تتفشى الأخطاء وتتعاظم على ألسنة الجيل الناشىء ، الذى يمسك من بعد بقيادة المجتمع ، وهو الذى شب على بعض الانحرافات النطقية ، وإذا بهذه الانحرافات عن سنن النطق الجماعى تكتسب ثباتا واستقرارا على الألسنة الشابة ، لتصبح من بعد صورة تطورية للغة ، بعد أن كانت فى بدايتها مجرد أخطاء أو انحرافات .

هكذا كانت حال اللهجات العربية فى نشأتها،فقد انعزلت قبائلها بعضها عن بعض ، وأخذت اللغة تتطور نتيجة الأوضاع الاجتماعية غير المستقرة فى داخل هذه القبائل ، غير أن حياة القبائل لم تكن دائما غير مستقرة ، إذ أن منها من توفرت له أسباب الاستقرار ، ومن الطبيعى أن تبطىء حركة تطور اللغة فى هذا الوسط عنها فى الوسط الآخر غير المستقر .

على أننا نغلو كثيرا ، بل نخطىء ، حين نتجاهل أحد المعالم الأساسية فى تكوين المجتمع العربى ، فهذا المجتمع شأنه شأن أغلب المجتمعات ، كان يضم مستويين من مستويات الحياة الاجتماعية :

المستوى الأول :

وتعيش فيه قبائل ذات حضارة وإمكانات مادية وأدبية كبيرة ، وهذه كانت تسكن المدن الكبرى ، مثل مكة ويثرب ، والحواضر اليمنية والشامية والعراقية ، التى كانت تجاور أو تخالط شعوب الفرس والروم ، وأهم ما يعنينا

منها القبائل التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة وغربها ، وهى قبائل : قريش وهذيل ، وثقيف ، والأوس ، والخزرج وغيرها .

والمستوى الثانى :

وتعيش فيه قبائل أكثر بداوة ، وأقل حضارة ، وهى كثيرة التنقل فى أرجاء الجزيرة بحثا عن المرعى ، وعن الاستقرار ، وعن الأمن ، وقد كانت هذه القبائل متركزة تقريباً فى شرق الجزيرة ووسطها ، ومن أشهرها : تميم ، وقيس ، وأسد .

وليس من الصواب أن نستهين بهذه القبائل فنتصور أن عددها قليل ، بل العكس هو الصحيح ، فتميم هذه كانت شعبا عظيما ، عددا ومكانة ، فى الجزيرة كلها ، وهى تعد الجناح الثانى للأمة التى عرفت بعد ذلك فى التاريخ باسم (الأمة العربية) ، حيث تعد قريش جناحها الأول .

وقبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم أحس الناس فى أنحاء الجزيرة بمغزى الصلات التى تربطهم فيما بينهم ، والتى تضمن لهم حماية فعالة ضد أى مغير قد يطرأ ، من الأحباش أو من الفرس ، فنشطت هذه الصلات فى صورة تبادل تجارى ، وأدبى ، حيث كانت تقام فى الأسواق التجارية ندوات يعرض فيها شعراء القبائل الوافدة قصائدهم ، وينشدونها بين يدى النقاد والمُحكَّمين ، وكان هؤلاء يحاولون تثقيف ما يعرض عليهم من الأشعار ، وتوجيه الشعراء الوجهة الصائبة فيما يصوغون ، حدث هذا فى أسواق كانت أدبية فى الواقع ، أكثر منها تجارية ، وذلك : كأسواق عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، وخيبر .

عن طريق هذه اللقاءات الأدبية تكونت للعرب لغة مشتركة ، وتقاليد فصحى ، هى خير ما جاءت به اللهجات المتفرقة ، فأضافته إلى لسان قريش ، التى كانت تسكن جوار البيت العتيق ، فمنحها هذا الجوار سلطة روحية وأدبية ، وإن لم يمنعها من أن تنتقى من ألسنة العرب ما وافق طباع ألسنتها ، وما أحست أنه صورة راقية من صور اللغة الفصحى ، يقول أبو الحسين أحمد بن فارس :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم ، أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة . وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم ، واختار منهم نبى الرحمة محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل قريشا قُطّانَ حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم . . . ثم قال : وكانت قريش ، مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[1].

فاللغة العربية المشتركة إذن ليست هى لغة قريش أو لهجتها ، فهذه كان شأنها شأن لهجات العرب ، وإن تكن أرقاها ، وأعظمها حضارة . وإنما كانت العربية المشتركة مزيجا من تقاليد اللهجات ، وهى التقاليد الراقية غير المسفة ، إلى جانب غلبة الطابع القرشى فى هذا الاختيار .

(١) الصاحبى / ٢٣ .

وليس وجود اللغة المشتركة بمانع العربىّ أن يتكلم بلهجته الخاصة ، فقد كان يلجأ إلى اللغة المشتركة ، حين يقف موقفا يتطلب منه الحديث إلى خليط من أبناء القبائل المختلفة ، فى ناد أدبى ، أو محفل للتقاضى ، أو سوق للتجارة ، وبعبارة مختصرة : فى المجال الجِدّىّ الذى يقتضى منه قولا جادا .

أما حين يعود إلى موطنه فإنه يعود إلى ما جرى به لسانه من تقاليد لهجته المحلية ، يتعامل بها مع مواطنيه ، جِدًّا وهزلاً .

وقد كان توحد اللهجات العربية ، فى المستوى الأدبى ، فى صورة اللغة المشتركة مقدمة لابد منها لنزول القرآن بتلك اللغة المختارة الصافية ، فلم نجد فى عبارة القرآن الكريم أثراً من آثار اللهجات الكثيرة ، وإنما كانت عبارته دائما خالصة من الأوشاب اللهجية ، تماما كما كان الشعر فى العصر الجاهلى خالصا من الأوشاب اللهجية ، مترفعا عن ظواهرها المسفة أحيانا . لقد كان الشعر ديوان العرب جميعا على اختلاف قبائلهم وأنسابهم وثقافاتهم ، وكان القرآن من بعد كتابَ العرب جميعا على اختلاف قبائلهم وأنسابهم ، بل كان أكثر من ذلك كتاب البشرية كلها ، أحمرها وأبيضها وأسودها ، فلا بد أن تكون صورته الأدبية غاية فى النقاء ، قمة فى السمو البيانى ، وهو ما وسم القرآن من أول آياته إلى آخرها ، حتى أقرت الأجيال الأولى والأخرى بتفوقه . وكان من شرائط الإيمان أن نسلم بإعجاز القرآن ، ولسوف نبين فى فصل قال أثر القرآن فى العربية على نحو مفصل إن شاء الله .

أشهر اللهجات العربية القديمة وعناصرها :

يجدر بنا بعد هذا البحث فى تاريخ اللغة العربية ، وتاريخ اللغة المشتركة الفصحى ، وعلاقتها باللهجات القبلية ـ أن نقدم إلمامة سريعة عن اللهجات العربية القديمة ، وأشهر هذه اللهجات ، وما تتميز به كل لهجة إجمالا عن غيرها .

والواقع أن اللهجات ـ فى أية لغة ـ لا يفصل بينها وبين اللغة المشتركة سوى بعض الصفات الصوتية ، فاللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة ، وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل ، تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات ، وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات هى التى اصطلح على تسميتها (باللغة)، أو (اللسان) فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص[1] .

وقد سبق أن ذكرنا أن اللغات المختلفة المنتمية إلى فصيلة واحدة ، يتميز بعضها عن بعض فى جوانب كثيرة ، ولكنها تتقارب فى أمور هى فى الواقع مجموعة العناصر القديمة ، التى نزيدها هنا تأكيدا :

---

(١) فى اللهجات العربية ص ١٦٠ .

١ ـ الضمائر .

٢ ـ الأعداد .

٣ ـ أسماء الإشارة والموصول .

٤ ـ الاشتراك فى معانى نسبة كبيرة من الكلمات ذات الدلالات القديمة، كالأرض والسماء ، وألقاب الأسرة كالأب والأم والأخ والابن .

٥ ـ أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ ـ الاشتراك العام فى كيفية تركيب الجمل[١] .

وقد اتضح ذلك لنا مما سقناه عن تقارب أسماء العدد بين الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وهى لغات مختلفة تنتمى إلى الفصيلة اللاتينية ، إحدى فصائل اللغات الهندية ـ الأوربية ، والأمر لا يختلف كثيرا عن ذلك فى مجال اللغات السامية (العربية والعبرية والسريانية) مثلا .

أما اللهجات فإن علاقتها باللغة المشتركة أقرب من ذلك ، وينحصر جوهر الفرق بين بعضها وبعض فى مجموعة من الصفات الصوتية ذات الصبغة المحلية :

١ ـ اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ ـ اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ ـ اختلاف فى مقياس بعض أصوات اللين .

٤ ـ تباين النغمة الموسيقية فى الكلام .

---

(١) السابق ص ١٧ .

٥ — اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة ، حين يتأثر بعضها ببعض[1] .

والناظر فى تاريخ اللغة العربية يجد أسماء قبائل كثيرة تتردد فى جوانب هذا التاريخ ، ولكن يبرز منها دائما عدة قبائل هى : قريش ، وتميم ، وأسد وهذيل ، وعقيل ، وطيىء ، وغيرها .

وإنما اشتهرت هذه القبائل دون سواها لما تميزت به لهجاتها من عناصر صوتية فرقت بينها وبين اللهجة المشتركة ، وهى عناصر كانت ملتزمة فى البيئات القبلية ، بين أفراد القبيلة الواحدة ، فإذا ما تغيرت البيئة ، ووقف العربى موقفا يخاطب فيه أفرادا آخرين لجأ إلى اللغة المشتركة ، يلتزم ظواهرها ، ويتمثل صفاتها .

ومن المؤسف بالنسبة إلى تاريخ اللغة العربية أن عناصر هذا التاريخ لم تحفظ مدونة بكل تفصيلاتها ، وإنما امتدت يد التجاهل والنسيان إلى هذه العناصر ، وبخاصة ما يتصل باللهجات العربية ، فلم ترو لنا آدابها الشعبية ، ولا حفظت لنا نصوص نرجع إليها فى تجلية معالم هذا التاريخ ، وهذه هى الصفة الغالبة على كل جوانب تاريخ العربية ، إبان نشأتها ، فيما قبل العصر الجاهلى . وزاد الإهمال للهجات حين اهتم الناس باللغة المشتركة ، وأثبتوا بها نصوصهم ، وسجلوا فى مستواها الأدبى أشعارهم ، فاستنكفوا أن يهتموا بأمر اللهجات على خطورته ، وكان أن رويت لنا أخبار متناثرة عنها ، لا يمكن أن تصنع تاريخا ، أو تصوغ فكرة متكاملة .

فقد رويت لنا مثلا عن لهجة تميم عدة أخبار ذات أهمية ، وتميم فى

---

(١) السابق .

التاريخ اللغوى رمز للبيئات البدوية بعامة ، فى مقابل البيئات الحضرية التى تمثلها قريش وأهل الحجاز .

فما روى لنا أن تميما كانت تنطق بعض الفتحات فى لسان قريش ممالة إلى الكسرة ، وهو ما عرف فى الدراسات اللغوية ، قديما ، وحديثا ، باسم (ظاهرة الإمالة) ، وروى أيضاً عن هذه القبيلة أنها كانت تدغم بعض الأصوات فى بعض ، إذا كان الصوتان المدغمان متقاربين ، أو متجانسين ، أو متماثلين ، واتصلا اتصالا مباشرا ، فحيث كانت قريش وأهل الحجاز ينطقون الأصوات واضحة متأنية ، كانت هذه القبيلة تسرع فى أداء مقاطع كلامها ، فيدخل بعض الأصوات فى بعض ، ومن أمثلة ذلك : أفتخذتم ، بالذال والتاء ، ينطقها بعضهم : أفتختّم ، وقد تمثلت هذه الظاهرة بمختلف أشكالها فى قراءة أبى عمرو بن العلاء ، وهى إحدى القراءات السبع ، فيما سمى (الإدغام) الصغير ، والكبير ، وقد درسناها كاملة فى رسالتنا للماجستير ، فى أحد فصولها .

ونسبت كتب اللغة إلى قبيلة تميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها (العنعنة) ، وهى قلب الهمزة المفتوحة المبدوء بها عينا ، ورووا لذلك قول بعضهم : (أشهد عَنَّك رسول الله) يريد : (أشهد أنك رسول الله) ، فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة .

ونسبت كتب اللغة إلى قبيلة هذيل ظاهرة (الفحفحة) ، وهى قلب الحاء عينا ، فيقولون مثلا : : (اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض) ، يريدون : (اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض) ، ويقال : إن قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : (عتى حين) فى قوله تعالى : (حتى حين) — من آثار اللهجة

الهذلية فى قرآءة القرآن ، وقد نهاه عمر بن الخطاب عن ذلك ، آمراً إياه أن يقرىء الناس بلسان قريش الذى أنزل به القرآن .

وينسبون إلى لهجات اليمن قلب السين تاء ، فيقولون : (النات) فى كلمة (الناس) ، و (الأكيات) فى لهجتهم هم (الأكياس) فى لساننا ، كما ينسبون إليهم النطق بما يشبه الجيم القاهرية ، فى مقابل الجيم المعطشة التى توصف بأنها الفصحى .

وينسبون إلى قريش أنها لم تكن تعرف (الهمزة) فى كلامها ، وأن الهمزة كانت من الأصوات التى يحرص عليها البدو ، دون الحضر .

ولا ريب أن هذه الظواهر تثير أمامنا مشكلات كثيرة ، تحتاج إلى مناقشات واسعة ، غير أن المقام لا يتسع لهذا ، وفى تلك العجالة التى نحرص عليها . وبحسبنا أن نعلم أن ظاهرة واحدة هى (الهمز) قد أفردت بالدراسة فى رسالتنا للدكتوراه ، وكذلك ظاهرة (الإمالة) التى ينبغى أن تدرس دراسة علمية تحليلية دقيقة ، لا تكتفى بالجانب التاريخى فى المشكلة ، على المنهج الذى ترسمه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شلبى فى رسالته للماجستير .

وقد استطاع الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه (فى اللهجات العربية) أن يفسر أحداثا لهجية كثيرة ، مما روى فى كتب اللغة والأدب ، وخرج من بحثه بتحديد الخطوط العامة التى تميز لهجات البدو عن لهجات الحضر ، وهو أمر يقوم فى كثير من مواضعه على المقارنات الصوتية ، كما يعتمد على نتائج الدراسات الاجتماعية فى العصر الحديث .

والنتيجة التى توصل إليها الدكتور أنيس تفيدنا أيضاً فى دراسة اللهجات الحديثة ، وهى كثيرة جدا ، فى داخل الوطن ، وخارجه ، وتعتبر دراسة هذه

اللهجات الحديثة مقدمة ضرورية لأى جهد يراد به التقريب بين أبناء الوطن العربى .

ومن العسير ، مع ما نرى من التمزق الراهن بين اللهجات العربية الحديثة ، أن تصنع محاولات السياسة إطارا يضم هذه الأشلاء والمذاهب المتنافرة ، فأبسط ما يفرق بينها هو انفصال الحدود السياسية ، وأخطر ما يمزق شملها هو هذا التنوع اللهجى ، الذى ينبغى أن تتعاون الجهود للقضاء عليه ، وإرساء حجر الأساس فى بناء الوحدة اللغوية ، طريق الوحدة الشاملة .

مقياس الصواب والخطأ فى اللغة

يتضح من دراسة تاريخ اللغة العربية أنها قد مرت فيما قبل الإسلام بمرحلتين :

المرحلة الأولى :

مرحلة التمزق القبلى ، حين كانت مجرد لهجات ، يتمسك أصحابها بتقاليدها ويعتزون .

المرحلة الثانية :

مرحلة التوحيد اللغوى ، وذلك حين ساد الجزيرة العربية نفوذ القبيلة الكبرى (قريش)،الذين كانوا سدنة البيت الحرام ، وكانوا إلى جانب ذلك أوسط العرب مركزا ، وأعلاهم نسبا ، وأرقاهم لساناً ، فأخذوا يختارون من ألسنة القبائل الوافدة إلى الحج وإلى الأسواق الموسمية - مارقَّ من الألفاظ والتراكيب . فتقوت بذلك لغتهم ، على حساب اللهجات الأخرى ، التى بقيت فى وضعها لاتتطور ، وكان أن أصبحت اللهجة القرشية لساناً مشتركاً بين جميع القبائل ، إلى جانب لهجاتها الخاصة .

وقد مضى قولنا : إن اللغة كائن اجتماعى ، يتأثر بالأحداث والظواهر الاجتماعية ، ويؤثر فيها أيضاً . فاللغة بهذا المفهوم ملك للمجتمع ، تنعكس فى حالتها صورته.

وفى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقول : إن الصواب اللغوى مرتبط أشد الارتباط بالصورة التى يرتضيها المجتمع للغته ، وإن الخطأ اللغوى هو

نقيض هذه الصورة ، لأن المجتمع هو الذى يملك اللغة ، وليست اللغة هى التى تحكم المجتمع .

وقد مرت اللغة العربية فى تطورها القديم بمرحلة اللغة الاجتماعية ، حين كانت تخضع لظروف المجتمع العربى فى الجاهلية ، وقد كان الأدباء والشعراء من سائر القبائل يلتزمون قوانين الفصحى المشتركة ، لاينحرفون عنها أبدا ، فإذا عادوا إلى مواطنهم القبلية استعملوا لهجتهم الخاصة ، وكان العربى فى كلتا الحالين ملتزما بالمستوى الصوابى، الذى ارتضاه مجتمعه الخاص للهجته، ولذلك الذى ارتضاه المجتمع العام للغته المشتركة ، فإذا بدرت من أحدهم بادرة انحراف تكفل المجتمع ، والنقاد فيه كثيرون ، بتقويم المخطىء ، سواء بالتوجيه الفردى ، أو بحكم مااستقر فى حس المجتمع من استنكار لموقف الخارجين عن تقاليده الفصحى .

لم يكن المجتمع يعرف للغته العربية آنذاك قواعد محددة ، ولكنه كان يضبطها بالإحساس بوجود القانون اللغوى ، صوتيا كان أو اشتقاقيا ، أو تركيبيا ، أو دلاليا ، والذوق الحاكم الناقد خير ألف مرة من قواعد شديدة التعقيد ، عسيرة التحليل والتركيب . وقد كان هذا الذوق العربى آنذاك يفصل بين ماهو [illegible] من تقاليد اللغة المشتركة ، حتى لو ناقض كلاهما الآخر ، فلكل مقام مستوى من اللغة ، ومن أمثلة ذلك ماروته لنا كتب النحو واللغة من شواهد تخالف فى صورتها ماتفرضه قواعد النحو العربى ، ومنها أبيات لشعراء جاهليين ، ومع ذلك حفظت ، ورويت لنا كما هى ، ومنها قول أبى النجم العجلى ، وهو من بنى عجل ، من بكر وائل :

واهاً لريا ثم واهاً واها   هى المنى لو أننا نلناها

يا ليت عيناها لنا وفاها   بثمن نرضى به أباهـــا
إن أباهـا وأبـا أباهـا   قد بلغا فى المجد غايتاها

وفى هذه الأبيات نجد أبا النجم يلزم المثنى الألف فى حالة النصب ، مع أن القاعدة النحوية تنصبه بالياء ، ونجده أيضا يلزم الأسماء الخمسة الألف فى حالة الجر ، مع أن القاعدة أن تجر بالياء (وأبا أبيها) ، ومع ذلك رويت لنا الأبيات ، تماما كما رويت لنا الأبيات التى استقام فيها إعراب الأسماء الخمسة حسب القاعدة المعروفة ، بالواو رفعا ، وبالألف نصبا ، وبالياء جرا ،ومعلوم أن الواو والألف والياء فى هذه الحالات ليست سوى تكبير للحركات المصغرة ، التى هى الضمة والفتحة والكسرة ، ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر :

رأين الغوانى الشَّيْبَ لاح بعارضى   فأعرضن عنى بالخدود النواضر

حيث ذكر الشاعر نون النسوة بعد الفعل (رأى) ، مع وجود الفاعل (الغوانى) وهو أمر قد تتأوله أو تمنعه القواعد النحوية . . إلى شواهد أخرى كثيرة حفلت بها كتب اللغة والأدب .

مثل هذا الشعر لم يكن يلقى معارضة قطعاً من جانب نقاد الجاهلية ، ومن المؤكد أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه وارد على سنن اللهجات ، ولكل لهجة قوانينها ونظمها ، كما أننا الآن ننظر إلى الأشعار التى تكتب بلهجات ريفية ـ نظرة تسليم ، فمن حق هذه الأشعار أن تعيش إلى جانب أشعار اللغة الفصحى ، وليس بوسع أحد أن يصادرها بدعوى الانتصار للفصحى ، أو بدعوى أنها خارجة على سننها ، فإن للعاميات قواعدها الخاصة بها ، رغم أنها غير مكتوبة .

فلما جاء عصر تدوين اللغة ، وأخذ علماء العربية يضعون قواعدها ، صرفية ونحوية ـ اتجه هؤلاء العلماء إلى القبائل القرشية وجيرانها ، فأخذوا عنها لغاتها ، ورفضوا ماعداها ، واعتبروا ماخرج عن قواعدها شذوذا وخطأ لايجوز اعتماده أو الأخذ به . فكأنهم حاولوا بعملهم هذا فرض مجموعة من القواعد الخاصة ببعض اللهجات على لهجات أخرى ، فى حين كانت هذه اللهجات جميعا تتعايش من قبل فى سلام ووئام .

ومن هنا نشأت فكرة الصواب والخطأ فى اللغة ، وهى الفكرة التى كانت مرتبطة بقواعد النحو الموضوعة ، فكل ماوافق القواعد النحوية عُدّ صوابا ، وكل ماخالفها عُدَّ لحنا .

وقد حدثت إبان ذلك العصر المتقدم حوادث بين النحاة والشعراء ،ظهر فيها إصرار الشعراء على تمثيل ماتعلموه من طبائع اللغة وتقاليدهافى أشعارهم، وميل النحاة إلى تقييدهم بالقواعد ، واعتبار ماخرج عنها لحنا يحاسبون عليه، ومن ذلك أن الفرزدق قال مرة شعرا يخاطب به عبد الملك بن مروان ، ويشكو له النوائب التى لم تدع له شيئا يغنى به ، قال :

وعَضُّ زمان يا ابن مروان لم يَدَعْ من المال إلا مُسحتاً أو مجلف

ونظر النحوى عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى فوجد أن الفرزدق خالف القواعد النحوية التى تفرض نصب المعطوف على منصوب : (مسحتا أو مجلفا) فسأل الفرزدق :

— علام رفعتَ (مجلفُ) ؟ .

فقال الفرزدق : على مايسوءك وينوءك ، علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا .

وفى هذه العبارة نجد التحدى السافر بين النحوى الملتزم بقواعده ، والشاعر المعتز بأبياته ، وماضمنها من لمحات حكّم فيها تفوقه اللغوى .

ويتطور الزمن بعد ذلك بالناس ، ليأتى نحاة آخرون ، فى القرن الرابع الهجرى ، ليعتبروا أن كل ماجاء عن اللهجات صواب،وهو حجة ينبغى أن تعتمد فى تقعيد القواعد النحوية ؛ مهما خالفت نهج الفصحى ، وفى مقدمة هؤلاء : أبو الفتح عثمان بن جنى ، الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، مؤلف كتب (الخصائص ، وسر الصناعة ، والمحتسب وغيرها) ، وقد عقد أيضا فى كتابه (الخصائص) فصلا بعنوان : (ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) .

وبعد أن كان النحاة المتقدمون يرفضون الاستشهاد بشعر معاصريهم من شعراء صدر الإسلام ، ولايحتجون إلا بشعر الجاهليين ، والمخضرمين (وهم الشعراء الذين عاشوا طرفا فى الجاهلية ، وطرفا فى الإسلام) وفى مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء ، الذى حدث عنه الأصمعى فقال : (لازمت أبا عمرو ابن العلاء عشر حجج فلم أسمعه [illegible] سلامى) ـ بعد هذا وجدنا النحاة المتأخرين يستشهدون بشعر معاصريهم ، كالمتنبى ، وأبى تمام ، والبحترى ، فضلا عن المتقدمين كالفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والحطيئة ، بل لقد وجدنا من المحدثين من يجيز الاحتجاج بشعر الشعراء المعاصرين ، أمثال شوقى وحافظ .

فإذا كانت اللغة ملكا للمجتمع فإن من الواجب اعتبار كل عطاء لغوى لهذا المجتمع ، فى أية صورة كان ، شعرا أو نثرا ، مادام أصحابه قد عرفوا بحب لغتهم ، والحفاظ عليها ، وبذلك يتسع باب القياس اللغوى ليشمل كل كتابنا المحدثين ، من أمثال المازنى ، وطه حسين ، والعقاد ، والرافعى ، ولكل من

هؤلاء عطاؤه اللغوى القيم ، الذى يثرى اللغة الفصحى بالكثير من الظواهر التركيبية ، نتيجة اطلاعهم على الآداب الغربية ، وتمثلهم لتراكيبها . ولعل من الأمثلة الجديرة بالذكر فى هذا المقام مالاحظه الدكتور إبراهيم أنيس فى قول شوقى متحدثا عن الطيران :

يإسلاح العصر بُشِّرْنا به   كل عصر بكمِىٍّ وسلاح

إن عزا لم يظلَّلْ فى غـد   بجناحيك ذليل مستباح

فإذا كانت الأداة (لم) تفيد قلب زمان الفعل المضارع إلى المضى ، فكيف يمكن أن يقول الشاعر : (لم يظلل فى غد) . . ؟ .. ومع ذلك فقد يكون هذا استعمالا مبتكرا للأداة (لم) فى ذوق شوقى ، ينبغى أن يوضع موضع التحليل والفحص ، للحكم على صلاحيته وإمكان اعتباره نموذجا من نماذج الفصحى المتجددة ، قائما على استحضار صورة الغد ، واعتبارها ذات وقائع ماضية بالقياس إلى زمنها الخاص .

وهكذا تتطور مقاييس الصواب والخطأ ، بمرور الزمن . واستمرار محاولات التجديد فى القواعد والمقاييس .

والأساس الذى يمكن أن نبنى عليه فكرتنا عن مقاييس الصواب والخطأ فى اللغة ذو مستويين :

المستوى الأول :

وهو المستوى الذى تفرضه القواعد النحوية الصارمة ، وهو مستوى (الصواب النحوى) .

والمستوى الثانى :

وهو المستوى المتصل باللغة ، من حيث هى كائن متحرك ، دائر فى المجتمع ، متأثر به ، مؤثر فيه ، متطور بتطوره ، وهذه كلها ظروف تفرض على مقاييسنا قدراً من المرونة ، يساير مقتضيات التطور ، ومايحدثه اتصال اللغة باللغات الأخرى من تبادل فى التراكيب ، وتطور فى الأصوات ، وفى المفردات ، وفى الدلالات ، وهو تطور يندفع المجتمع فى تياره ، بفعل عوامل معقدة شديدة التعقيد ، ولابد للغة أن تتسع لكل احتمال قد يؤثر فى مبناها ، لتكون أداة معبرة عن توقعات عصر جديد .

هذا المستوى هو (مستوى الصواب اللغوى) ، وهو لايناقض (الصواب النحوى) ، ولكنه قد يتوسع فى تطبيق قاعدة ، وفى إهمال أخرى ، مستعيضا عنها بما يوافق هواه الاجتماعى ، وقد تكون مراعاة الصواب النحوى بمثابة اللجام الذى يكبح جماح الانطلاق الذى يستهدف التخلص من التقاليد اللغوية العريقة .

وقد رأينا أن مسألة الصواب والخطأ لاتقتصر على الجانب النحوى ، أو الإعرابى ، فهذا جزء صغير من كيان شامخ ، تتقلب اللغة فى نواحيه ، ومن المسلم به أن أصعب جوانب اللغة وأعصاها على التطور جانب القواعد ، لكن هناك جوانب أخرى أعظم قابلية للتطور ، هى جوانب الأصوات ، والمفردات ، والدلالات ، والتراكيب ، والمعانى ، والقوالب الأدبية وغيرها .

ومن الواضح تماما أن العربية قد طرأ على معجمها وعلى أساليبها تطور كبير ، وبخاصة فى هذا العصر الصناعى ، الذى أمات مجموعة ألفاظ ، كانت قبل مستعملة ، دائرة على كل لسان ، مثل : الناقة ، والربع ، والفسطاط ، والقبيلة ، والفخذ ، والبطن ، والعشيرة ، (وهذه الألفاظ الأربعة الأخيرة

تدل على تقسيمات قبلية) ، كما ماتت مجموعات الألفاظ الهائلة الدالة على أنواع السيف، والأسد، والثعبان ، والعسل، وقد روى لكل من هذه مئات الأسماء ، حفلت بها كتب اللغة ، وألفت فيها مصنفات كثيرة مروية في التراث ، وحل محل هذه الألفاظ مجموعات أخرى ذات أهمية صناعية ، أو علمية ، أو اجتماعية وهي إما مشتقة من أصل قديم ، أو مولدة بإحدى طرق توليد الألفاظ ، كالنحت ، أو الارتجال ، أو مقترضة معربة ، وهي ألفاظ لم يعرفها العربي القديم ، الذي أثرنا عنه لغتنا الفصحى ، وأغلب الظن أنه لو بعث أحد هؤلاء الفصحاء ثم استمع إلى نطقنا للغة الفصحى ، لما فهم شيئا ، بسبب اختلاف طريقة نطقنا ، واختلاف نهجنا في تركيب جملنا . واحتشاد مجموعات من الألفاظ الغريبة ، التي لم تطرق أذنه ، ولم يتحرك بها لسانه . كما تصيبه الدهشة من حركة الحياة حوله ، وهي حركة تسيطر عليها الكهرباء ، التي لم يرها ، ولم يعرفها لفظا ولا مضمونا ، أي : أن قاموس اللغة قد تطور وتغير .

على أن هناك قضية أخرى متصلة بعلاج مشكلة الصواب والخطأ في اللغة ، فقد عالجنا حتى الآن جانب اللغة الفصحى قديما وحديثا ، في تناول الفرد لها ، وفي علاج العلماء لظواهرها .

بيد أن الفرد لا يتحدث الآن بالفصحى ، فهي لغة كتابة ، ولغة فكر ، أما لغة الحديث فتختلف من عامية إلى أخرى ، باختلاف بقاع الوطن العربي .

وقد جرت العاميات أيضا على مجموعة من القواعد والتقاليد التي يلتزمها المجتمع واستعمالاته ، ومن أمثلة ذلك حالات النفي ، والاستفهام ، والنهي ، والتمني ، والأدوات المختلفة ، واستعمال الفعل ، ماضيا ، أو مضارعا ، أو أمراً ، الخ . . الخ . .

وقد كسبت هذه التقاليد قوة الشيء المفروض ، بحكم المجتمع ، وبتقادم الاستعمال اللغوى على ألسنة الناطقين بالعامية ، فأى خروج على هذه التقاليد هو فى عرف أصحابها لحن ، يواجهه أفراد المجتمع بالاستنكار حينا ، وبالسخرية حينا آخر ، وبالنصح والإرشاد أحيانا ، بل إن التزام هذه التقاليد هو فى عرف المجتمع الأمارة الواحدة على انتماء المتكلم إليه ، وولائه للسانه ، واستعمال تقاليد أخرى يعنى فى نظر المجتمع أن المتكلم أجنبى عنه ، منتم إلى مجتمع آخر .

واستمع مثلا إلى سودانى ينفى الفعل (أعرف) ، فيقول : (ما بَعْـرِفْ لتشعر بالفرق بين نفيه ونفى المصرى : (مَعْرَفْش) ، واستعمال أحدهما لطريقة النفى المستعملة عند الآخر يعد فى نظر مجتمعه خروجا على تقاليد لهجته ، ولحنا فى تركيب صيغها ، وهو موقف لا يقبل إلا من الأجنبى عن اللهجة ، دون مواطنها.

فها نحن أولاء فى موقف يفرض فيه المجتمع مقياس الصواب والخطأ فى اللغة ، ويرسم الحدود التى لا ينبغى تجاوزها للفرد المتكلم ، وهى حدود ذات طبيعة اجتماعية ، أى : أنها تتطور بتطور المجتمع ، الذى يستقبل جهازه اللغوى كل يوم مزيداً من الألفاظ والتراكيب الواردة ، وهى تسهم بمرور الزمن فى تطوير اللسان بإثرائه بصيغ ومفردات ونظم جديدة .

ولا ريب أن تطور وسائل النشر والإعلام فى الوطن العربى سوف يفرض على العاميات المختلفة فى الأوطان العربية قدراً لغويا واحدا ، فى المستقبل القريب أو البعيد ، أى : أن هذه العاميات سوف تتقارب وتتفاعل ، لتتخلق من بينها لغة منطوقة مشتركة ، يستخدمها الناطقون من المحيط إلى الخليج ، وهى لغة أقرب إلى طبيعة الفصحى ، منها إلى أية عامية من العاميات الحديثة، لأن الحركة الثقافية فى الوطن العربى متجهة بكل طاقتها إلى دعم الاتجاه الوحدوى بين المواطنين فى كافة أرجاء الوطن العربى ، وليس كاللغة

الفصحى وسيلة لتوحيد القلوب ، من طريق توحيد الألسنة . ويومئذ سوف يعد الخروج على سنن اللغة الجديدة انحرافا عن الصواب اللغوى المستحدث ، وهكذا .

ومن ذلك كله يتضح أن مسألة الصواب والخطأ فى اللغة تخضع للنسبية ، فالصواب صواب بالنسبة إلى ظروف معينة تمر بها اللغة اجتماعيا وتاريخيا ، وبالنسبة إلى النموذج الذى يقاس إليه ، ومستوى هذا النموذج ، سواء أكان من اللغة الأدبية ، أم من لغة التأليف والكتب ، وبالنسبة إلى مستوى اللغة ذاتها ، فصحى كانت أو عامية . وهكذا تتحكم النسبية فى المشكلة التى شغلت جانبا كبيرا من مناقشات العلماء والأدباء ، خلال القرون .

القرآن والعربية

كانت اللغة العربية بين أبناء إسماعيل ، وفوق أرض الدعوة هى لغة الوحى والقرآن ، المنزل بخاتم الرسالات على خاتم أنبيائه محمد ، النبى العربى ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد كان بلوغ اللغة العربية هذه الدرجة من الكمال الذى أعدها لنزول القرآن بها حدثا جليلا تميزت به عربية القرآن فى ألسنة قريش ، على أخواتها فى الفصيلة السامية ، وهى العبرية التى كتبت بها التوراة ، والآرامية التى كتبت بها الأناجيل ، فبقى القرآن بكمال لسانه ، وآية بيانه ، على حين أصاب التحريف ما نزل من كلام الله فى التوراة والإنجيل .

لقد شاء الله أن يكون القرآن الكريم هو آيته الكبرى ، الباقية أبد الدهر ، بما جمع من كمال بيانه ، وحجة الله به ، وحكمة الشرع فيه ، وما اشتمل عليه من أخبار الغيب ، ونظم الحياة ، وقصص الرسل ، وبقائه على الزمن محفوظا بلسان عربى مبين ، هداية لكل عصر ، وذكرى للمتقين ، ورحمة للعالمين . .

والمهم أن ندرك أن الله سبحانه لم يرد أن يكون لنبيه الخاتم آية مؤقتة ، بل أرادها آية دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، آية تملك أن توقظ غفلات البشر على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ، ومستوياتهم ، فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معا .

وإنى لأحب أن أؤكد هنا أن القرآن هو الآية الكبرى والوحيدة

التى أتاها الله لنبيه محمد ﷺ ، وكل ماعداها من معجزات مؤقتة هو من تكريم الله للرسول ، ولسوف يظل القرآن هو الآية البيانية الصوتية ، والكونية والعقلية التى جعلها الله دستور هذه الأمة منذ كانت ، إلى أن ينتهى هذا الخلق الأرضى ، فهى ولا شك أمة القرآن .. صنعتها آياته وتعاليمه ، وارتبط وجودها بوجوده محفوظاً بعناية الله العليم الخبير .

وأما عن سور القرآن الكريم ، فإن من المعلوم أن القرآن يضم بين دفتيه (١١٤) سورة ، فيها (٦٢٣٦) آية ، وقد اقتضى نزول هذا القدر من كلام الله ثلاثا وعشرين سنة ، هى عمر دعوة النبى ﷺ بوحى الله بين قومه ، قضى منها ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشرة أعوام فى المدينة ، وكان الوحى يتنزل عليه كلما دعت إليه حاجة من تشريع ، أو استخلاص درس ، أو بيان حكم ، أو تعاليم ، إلى أن اكتمل على هذا النحو البالغ الكمال ، والله سبحانه يقول فى حكمة نزول القرآن منجما :

« وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » [الفرقان آية ٣٢] .

فإذا نظرنا إلى هذا القدر المنزل من الآيات تبينا أنه أكبر قدر من كلام الله نزل به وحى . ولم تكن التوراة بهذا الحجم ، ولا كان الإنجيل .

ثم إن هذا الكم القرآنى قد ارتبط بالعربية ارتباطاً وثيقاً . يتجلى به كماله اللغوى ، على حين أن التوراة والإنجيل كانا بلهجتين من لهجات الفصيلة السامية العامة هما : العبرانية ، والآرامية ، ولعلهما كانا بالنسبة إلى العربية كشأن لهجاتنا العامية فى الأقطار العربية المختلفة فى هذا العصر .

إن القرآن كما سبق لم ينزل جملة واحدة ، بل جاء منجما مفرقا على تتابع السنوات الثلاث والعشرين ، وحجم كهذا ، يتم نزوله فى زمن كهذا . كان يتوقع أن يختلف أوله عن آخره ، وأن ينقض بعضه بعضا ، وهذا مالم يحدث فى القرآن ، فقد جاء كما وصفه الذى أوحى به :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » [هود آية ١] .

وهو تكامل وإحكام لا يمكن أن يتحققا فى أعمال البشر ، فقد يستغرق تأليف كتاب من عمر كاتبه سنة أو سنتين ، فنجده يعدّل فى نهاية المدة ما كان قد أثبته فى أولها ، وهو أمر مألوف جدا فى ممارسات البشر . أما القرآن ، ذلك الكتاب الكامل الوافر ، فقد ظل طوال السنوات يتكامل بآياته آية آية ، دون أدنى تناقض أو اختلاف ، وذلك آية على أنه بدأ منذ الكلمة الأولى من الوحى يرسل أحكامه وكماله ، بعد أن نظمته قدرة الله الذى «علم القرآن » ، وفى هذا يقول الله وهو يحتكم إلى علم العرب بلسانهم ، وإلى عقلهم وقد نزل القرآن بما فاق قدرة البشر على الكمال :

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » [النساء آية ٨٢] .

مضمون القرآن واقتداره التعبيرى :

أما مضمون القرآن فهو ما لا نستطيع الإحاطة به فى هذه العجالة ، إلا إشارة مجملة إلى تنوع هذا المضمون ما بين الدنيا والآخرة ، فهو فى أمر الدنيا لا يترك صغيرة ولا كبيرة يلزم التشريع لها ، إلا وقد لمسها إجمالا أو تفصيلا ، هداية للناس فى مسيرتهم اليومية ، وهكذا نجد فيه التشريع ، والدعوة إلى التزامه ، وقصص الذين تمسكوا بشرائع الله ، أو الذين أهملوا شريعة الله من

السابقين ، وأهم القضايا التي ركز عليها القرآن قضية (الوحدانية) ، ولا عجب في ذلك ، فإن دعوة النبي ﷺ لم تكن إلا إلى التوجه لله وحده بالتوحيد الخالص :

«قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد» [سورة الإخلاص] .

ولذلك يجب أن نقرر هنا أن القرآن لم يتعرض لقضية (وجود الله) ، لأنه لم يكن هناك واقع في حياة العرب من أبناء إسماعيل وحول بيت الله ينفي هذا الوجود ، وكانت دعوة القرآن والإسلام منصبة على نفي الشركاء لله الحق ، الذي تعلم قريش والعرب أنه الله الحق ، ولكنهم تعلقوا في غفلاتهم بالشركاء زعما بقولهم :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » [الزمر آية ٣] .

بل إننا نستطيع أن نزعم أن الإنسان ، مهما بلغ من الانحراف لا يخرج عن تصور قوة مسيطرة على الحياة والوجود . فالإنسان (مؤله) منذ كان ، وإلى آخر الزمان . غاية ما هنالك أن من يدعون أنفسهم (بالملحدين) يختلفون عن أصحاب الأديان في وصف القوة المسيطرة على الكون ، فيرى أصحاب الإيمان أن هذه السيطرة إلهية ، ويرى أصحاب الإلحاد أنها سيطرة طبيعية ، أو مصادفة ، أو يكون الإله هو المادة أو الإنسان ، أو هو المجتمع إلى آخر هذه التصورات السقيمة التي لم تنف وجود المسيطر ، بل مسخت صورته بالعجز عن إدراكه في أذهان العاجزين المنحرفين ، ومع ذلك فقد أكدت لزوم وجود القوة المسيطرة في صورها الباطلة ، والتي لا يشير أحدها قط إلى الله الحق كما دعا إليه الرسل ، ونادت به الكتب المنزلة .

ولقد يتحدث القرآن في سبيل إثبات هذه الوحدانية الخالصة لله عن الكون ،

وما يضم من أجرام وأبعاد وقوانين حاكمة للمادة ، فإذا به يقدم الحقيقة المطلقة فى أوجز عبارة ، وأعظمها كشفاً عن الحقائق والسنن .

وحسبنا أن نسوق فى هذا الصدد إشارة القرآن إلى نظرية امتداد الكون، تلك الفكرة التى اهتدى إليها علماء الفلك ، عندما لاحظوا تغير المسافات المرصودة بيننا وبين بعض الكواكب السديمية دائما . بسرعة تفوق سرعة الضوء ، ومعنى ذلك بالأسلوب العلمى أن مساحة الكون تتغير باستمرار ، إلى زيادة مطردة هائلة دائمة . هذه الحقيقة الكونية الرائعة لم يتح إدراكها للعلماء إلا بعد اكتشاف الأبعاد الكونية بمناظير مقربة ألكترونية ، وبعد أن غزا الإنسان الفضاء ، للتأكد من تقديرات العلماء على الأرض ، وما كان معقولا أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل هذا القرن العشرين .

فأما خالق الإنسان ، فقد أخبر بها من قبل أربعة عشر قرنا فى آية من سورة الذاريات ، هى قوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون » [الذاريات آية ٤٧] .

فتعبير القرآن يفيد أن السماء تم بناؤها ، ولكن توسيع هذه السماء أمر مستمر مطرد ، وهو حديث عن عالم غير مدرك آنذاك بأية حاسة أو قدرة عقلية ولكنه إخبار الخالق الذى علم القرآن ، بالحقيقة التى اتجه العلم إلى إدراكها بعد أربعة عشر قرنا .

وربما اتصل بهذا الموضوع عن السماء والكون حديث القرآن عن الآخرة، وعن موجوداتها الكونية ، كالجنة والنار، وهى أكوان لا يمكن تصورها إلا من خلال صورة العظمة الإلهية المتجلية فى خلق الكون المنظور ، فى هذا الخلق

المغيب ، وهو استدلال لابد أن يعقبه تسليم وإيمان بقدرة الخالق ، وبحقيقة عالم الغيب ، ذلك الموجود الثابت فى آيات القرآن :

« وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن الله » [الزخرف آيات ٨٥ — ٨٧] .

إن حتمية هذا الكون كما عبر عنها القرآن وكما فسرها العلماء ، تجلّ عن التصور ، وتدعو إلى الإيمان بالقرآن بلا تردد ولا مراء .

وقد نتساءل هنا :

هل القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية ؟ أم أن اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن ؟ فإذا شئنا إجابة علمية عن هذا السؤال فلن تكون الإجابة — مع لزومها — أصدق تعبيراً من قول الله فى القرآن :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [الحجر آية ٩] .

ومعنى هذا أن حفظ القرآن ليس مهمة بشر ، ولا هو يتحقق بوسيلة من وسائل البشر ، بل هى مهمة الله وحده . « وإنا له لحافظون »

لقد قلنا : إن إرادة الله فى سننه فى البشر شاءت أن تجعل العربية لغة الوحى المنزل ، فهل أفادت العربية من هذا التنزيل ، أو من هذا الاستخدام الإلهى فى التعبير عن رسالة الوحى ؟ ...

إن هذا السؤال يبدو ساذجا ، ولكنه مفتاح إلى حقائق كثيرة من الضرورى الإلمام بها .

ولسوف نتصور الآن الوضع فى الجزيرة العربية قبل نزول القرآن ، وهذه الجزيرة كانت مهداً للناطقين بهذه اللغة ، وكانت محاطة من كل جانب بوجود لغوى هائل من الفرس فى فارس والعراق ، ومن الروم فى الشام ، ومن الأنباط العرب ، والانباط العرب فى مصر . وهذه الشعوب كانت حتى ذلك الحين مساوقة للحضارة الإنسانية على قدر ما بلغت من مستوى .

والعرب فى ذلك الحين كان وجودهم قبائلياً ، يتمثل فى تجمعات بدوية حول الماء والمراعى ، باستثناء مركزين فى مكة ويثرب ، يتميزان بوجود بعض النشاط التجارى . فيما عبر عنه القرآن برحلة الشتاء والصيف . وكان العرب أمة مفتنَّة فى بيانها ، ولاسيما ما كانت تنشده من أشعار ، وكان أكثر اعتمادها فى الحفاظ على نتاج العقول هو استخدام الحافظة أو الذاكرة فى رواية القصص والأمثال والأشعار . وكان الشعر بنظمه وإيقاعه أكثر تداولا بين القبائل ، فيتناشده الكبار والصغار ، وما استجادوه منه بقى بالحفظ والرواية ، والتسجيل الخطى حتى وصل إلينا .

وفى هذه الظروف لا يتصور أحد أن يتخلق مجتمع حضارى فى الجزيرة العربية ، ووضع كهذا لا يتصور أن يؤول إلا إلى الانقراض الاجتماعى واللغوى ، وهو فى أفضل توقعاته قد ينتهى إلى حركة هجرة من نوع الهجرات التى سبقت فى تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ .

وهذا التاريخ يحدثنا أن جزيرة العرب شهدت هجرات دورية كانت تحدث كل ألف عام تقريبا من داخل الجزيرة إلى خارجها . وقد كانت أولى الهجرات التى سجلها التاريخ إلى العراق حوالى عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد حيث

خرجت قبيلة كلدة (شيخ عربى مؤسس لدولة الكلدان[١]) وقد كانت طليعة النبط والآراميين، الذين نزحوا من شمال بلاد العرب فنزلت العراق مخيمة على ضفاف الفرات وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية، من فصيلة اللغات السامية التى هى أسرة العربية فى الواقع . .

وجاءت الموجة الثانية عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد، حيث عادت بلاد العرب فغصت بأبنائها بعد ألف سنة، فكانت الهجرة الآمورية الكنعانية، إلى شمال جزيرة العرب، حيث نزلت شعبة منهم ساحل البحر الأبيض المتوسط على حين انتشرت شعبة أخرى فى سوريا، وكانوا يتكلمون الكنعانية، إحدى اللغات السامية المنتشرة فى الجماعات التى نزلت الساحل الشرقى للبحر الأبيض، وكانت الشعبة الأخرى التى دخلت سوريا تتكلم بالآرامية .

وحدثت الموجة الثالثة عام ١٦٠٠ قبل الميلاد، فى اتجاه العراق، وكان من نتائجها استيلاء العرب على زمام الحكم فى مملكة كلدة كلها وتأسيسهم الدولة الكلدية الخامسة التى من ملوكها (حمورابى) المشهور .

وفى عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت الموجة الرابعة، وهى هجرة موجة من أبناء إسماعيل فى اتجاه الشام واليمن .

ثم كانت موجتان عربيتان زمن ميلاد عيسى عليه السلام نتيجة الحروب القبلية الطاحنة، ففصيلة تنزل العراق، وأخرى تنزل فلسطين، وثالثة إلى الشام ورابعة تتجه إلى مصر .

والملاحظ على هذه الموجات كلها أنها كانت تحدث نتيجة ازدحام قلب الجزيرة بالسكان، مع عجز مواردها عند الجفاف عن ضمان استمرار الحياة لمن

(١) سبقت الإشارة إلى هذه الهجرة فى صدر هذه الدراسة .

فيها من البشر ، فإذا بظاهرة الهجرة تحدث بصورة دورية كل ألف عام تقريباً .

والملاحظة الثانية : أن هذه الموجات كانت تأخذ شكل زحوف بشرية فى اتجاه الخصب على أحد الأنهار الموجودة بالمنطقة ، وهى دجلة والفرات فى العراق ، وبردى فى الشام ، والنيل فى مصر .

والملاحظة الثالثة : أنها لم تقترن أو تستتبع قيام دولة ، أو نشأة حضارة قوية فى مراكز الهجرة فى العراق أو فى الشام ، بل إنها اقتصرت على إعادة التوزيع السكانى على سطح الجزيرة العربية وما حولها مع خلق تجمعات قبلية عربية يمكن أن تؤثر فى الأحداث المقبلة .

غير أن هناك ملاحظة حول الدورية التى كانت تحدث فيها الهجرات ، فقد كانت على مدى ثلاثين قرنا تحدث كل ألف عام ، ولكنها بعد ذلك كانت تحدث كل ستة قرون تقريبا (عام ٦٠٠ قبل الميلاد) ثم (إبان ميلاد المسيح) ، ثم (بعد المسيح بسبعة قرون) عندما بعث النبى ﷺ ، ثلاث هجرات فى حوالى ١٣٠٠ عام ، وخرج العرب المسلمون آخرها فى موجة دينية لتحرير الوطن العربى الكبير من الشرك ، ورفع لواء الوحدانية الخالصة .

وهذه الهجرات المتتالية توحى بأن توقعات الحياة فى الجزيرة العربية ما كانت لتكون أكثر من تحرك الجموع المتكاثفة فى اتجاه الجنوب ، أو فى اتجاه الشمال ، التماسا للرخاء أو سعيا إلى الأمان .

أما أكثر من ذلك فلا قرينة تعين على تصوره ، لأن المادة التى تصنع منها الحضارة لم تكن متوفرة فى داخل الجزيرة العربية ، ماعدا الإنسان .

وهذا الإنسان هو الذى استهدفته فى موعده دعوة الإسلام ، تحقيقاً لدعاء

إبراهيم وإسماعيل عند بيت الله ، ليؤلف الله بعد عدوات الجاهلية بين قلوب القبائل العربية ، ليخرجوا بهذا الدين الحق على الناس ، حاملين الحرية والإيمان والأمن إلى جميع أرض العرب تحت راية القرآن مبشرين ، بالمجتمع الإنسانى الجديد ، الذى لا فضل فيه لأحد إلا بالتقوى .

ولقد كان أفضل ما يميز هذا الإنسان العربى فى جزيرته أنه كان إنسانا فطريا لم تستهلكه أساطير موضوعة ، ولا حضارات قاهرة ، لقد كان إنسانا يملك إرادته ، وبقية دين إبراهيم ، مع فطرته السليمة ، ولغته الكاملة ، وبيانه النافذ ، وقابلياته التى أعده الله بها ليزكيه بالكتاب ، وليكمل له الدين ، وليتم عليه النعمة بالإسلام .

كانت لغته هى شغله الشاغل فهو يعكف عليها فى مواسم الحج متفننا فى تصريف القول بها وانتقاء ألفاظها ، وصقل أشعارها وحفظ نصوصها ، فلقد كان يدرك أن عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه فى لغته العربية التى انتسب إليها فصار بها عربيا ، أى : مبينا ، وصار من حوله رغم حضاراتهم «عجما» غير مبينين !

ولقد ضمنت هذه الظروف للغة العربية نقاء من الشوائب ، وبعداً عن التأثير اللغوى الأجنبى ، بحيث لم يكن يتسلل إليها من اللغات الخارجة عنها إلا الألفاظ المعبرة عن منتجات الحضارة التى تنتقل إليها بأسمائها ، كالإستبرق والسندس والزنجبيل ، وغيرها من الألفاظ الأعجمية التى تنتمى إلى غير العربية .

وهكذا نزل القرآن واللغة العربية شغل العربى الشاغل ، فى صحوه ، وحلمه فى منامه ، وقد بلغ افتتانه بها ، وافتنانه فى بيانها مستوى من النضج لم تبلغه أية لهجة من اللهجات السامية التى هى من أخوات العربية . كالعبرية والآرامية والسريانية والكنعانية والكلدانية الخ ، لأن عكوف العربى على

إبداع بيانه بالعربية بلغ به درجة تقرب من التقديس للغة ، وأتاح لها بذلك فرصة نضج فنى متقدم يتميز بالأصالة وبالنقاء . فاستحقت أن تكون وعاء لوحى الله وكلامه الحكيم .

ومن ثم كانت الآية القرآنية : أن هذه اللغة التى عكف عليها العرب ، لتجويدها ، وامتلاك ناصية المعانى الإنسانية والواقعية بها ، قد تنزلت من عند الله بكلامه لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغه إدراكهم ، وما تتدبره عقولهم ، فى مستوى لا تبلغه قدرتهم على المحاكاة ومع ذلك فإن الألفاظ واحدة ، والأدوات واحدة ، وأشكال التصريف واحدة ، أى أن المادة اللغوية هى هى ، ومعانى الألفاظ هى هى تقريبا ، ولكن تشكيل الألفاظ والمعانى والتراكيب والإيقاع ، فى الوحى الإلهى ـ هو الآية العظمى ، فوق كل منال .

فكيف أطاقت العربية أن تتسع بحروفها وكلماتها لهذا التنزيل الإلهى بالقرآن العظيم ، دون أن تضيق عنه ، أو تعيا بحمله ، فكأنما هو بيان يتفجر من قلبها ؟ تلك صنعة الخالق :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » ، [الرحمن آيات ١ ـ ٤] .

ولقد كان نزول القرآن بالعربية حدثا فريدا فى تاريخ الدين والإنسان ، ذلك لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الاسلام ـ حققت من الناحية التاريخية استمرار العلاقة بينه وبين بيان العربية ، بحيث يظل هذا البيان قرآنياً ، يفسر القرآن ، ويحيا بالقرآن .

وكان من الممكن لو لم ينزل القرآن أن يتغير بيان العربية بمرور الزمن ، وتتابع الأجيال ، ثم تبدأ اللهجات العربية ـ التى كانت متعددة بتعدد القبائل ـ تستقل ، لتصبح من جيل إلى جيل لغات مستقلة ، لا علاقة بينها ، إلا ما يكون

من علاقة بين لغات الفصيلة الواحدة ، كما حدث للهجات الساميين التي أصبحت لغات مستقلة ، أي : أن نزول القرآن قد كفل مجموعة من النتائج في وجود اللغة العربية :

أولها : أن العرب جميعاً تشبثوا باللغة الفصحى ، لأنها لغة الوحي والعقيدة .

وثانيها : أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد ، مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية .

ثالثها : أن مرور الزمن ، وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى إلا مزيدا من تفاعلها مع القرآن ، بحيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن .

رابعها : أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين في أنحاء العالم ، فهم يقرأون القرآن بالعربية ، ويتعبدون بحروفه ، ويتخذون طريقة كتابته وسيلة لتسجيل لغاتهم ، وهذا في حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية ، على مستوى عالمي .

خامسها : وهذا هو الأهم - كانت آية القرآن اللغوية إعلانا عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة ، والتعبير عنها مهما يكن مستواها ، لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ ، لابد أن تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقديم الإنسان عبر كل العصور .

ولعل من خير ما يساق في هذا الصدد عن علاقة القرآن بالعربية ماجاء في كتاب (تحت راية القرآن) للمغفور له مصطفى صادق الرافعي ، قال :

« والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب ، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده وإن كانت وثيقة ، ولأتى عليه الزمان ، أو بالحرِيّ ، لنُفِّس من أمره شيء كثير عن الأمم ولاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غال أو مبطل ، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذرا للعوام والمستعجمين فى إحالته إلى أوضاعهم ، إذا ثابت لهم قدرة على ذلك ، ولو فعلوه لما كان بدعا من الرأى ، ولا مستنكرا فى قياس أصحابنا ، لأنهم لم يعْدوا منفعة طلبوها من سبيلها ، وخطة انتهجوها بدليلها » .

« وليس يقول هذا إلا ظنين قد انطوى صدره على غل ، واجتمع قلبه على دِخلة مكروهة ، وإلا جاهل من طراز أولئك ، لا يستطيل نظره بتجربة ، ولا ينفذ بعلم ، وإنما هو آخذ بذنب الرأى لا بوجهه ، ولكن يتوجه معه ، ولا يُقْبِلُ به ، ولكن يدبر به الرأى » .

« إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما ، حتى يتأذن الله بانقراض الخلق ، وطى هذا البسيط . ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس ، وردهم إليها ، وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامى ، ولتراخت به الأيام إلى ماشاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية ، ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ، ونضب ما بينهم ، فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب ، وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية ، لا السياسية ، فلا تتبين من آثارهم فى أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء ، إذا انساب الجدول فى المحيط »[1] .

---

(١) تحت راية القرآن /٤٧

ولعل معنى هذا الحديث من الرافعى يؤدى بنا إلى تصور تأثير القرآن فى هذه الأمة العربية، حين ألف الله به بين قلوب أبنائها ، وهو يذهب عنها عيبة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، ثم وهو يمحو ثاراتها القبلية ويخلصها من الشرك ، ليحييها بالإيمان ، وليزكيها ويطهرها بالكتاب والحكمة ، وقد اجتباها الله لذلك ، وأعدها لسانا وخلقا وقابلية ، كما جاء فى قوله تعالى :

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » [الحج آية ٧٨] .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية ، وليست اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن .

كما أنه ليس ممكنا تحقيق نهضة جديدة فى هذا الوطن العربى إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظا ومعنى . . وتلاوة وتدبيرا . . ونصا وتطبيقا .

أزمة العربية المعاصرة

لعلنا فى هذه الدراسة نمس قضية أساسية فى حياة العرب المعاصرة ، فقد واجهوا حالة من الركود اللغوى ، تمثلت فى انعزال اللغة العربية عن مجالات الحياة الحضارية ، ذلك أن العلوم الرياضية والطبيعية ، والكيمائية ، والطبية وغيرها تمارس دراستها وتدريسها باللغة الإنجليزية ، وعبثا يحاول المصلحون حتى الآن أن يغيروا من هذا الوضع المزرى ، وأن يبعثوا اللغة العربية على ألسنة أهلها من دارسى العلم الحديث ، وكأنما تقوم على استمرار هذا الوضع العجيب قوى خفية تحرص على إفشال كل محاولة لإحلال اللغة العربية محل اللغة الأوربية ، فى التدريس بالجامعات والمعاهد العليا .

من هذا الواقع العجيب يجب أن نبدأ مناقشة مشكلة اللغة العربية ، التى تبدو فى وضع متدهور حضاريا ، رغم أن القرآن الكريم موجود بين أيدى المسلمين ، ورغم أن القرآن قد سجل فى تاريخ الإنسانية حدثا فريدا هو حفظ اللغة ، وتثبيت صورتها اللفظية ، والتركيبية على مدى القرون ، على حين لا يمكن أن ينهض بهذه المهمة فى تاريخ أية لغة إنسانية كتاب معين ، مهما يكن شأنه .

ولنأخذ على هذه الفكرة مثالا واحداً من بين أمثلة كثيرة فى التاريخ ، فهذه اللغة الأغريقية التى كان يتكلمها القدماء قبل ميلاد المسيح ، قد كتب بها أهم نتاج الفكر الإغريقى ، على أيدى فلاسفة الإغريق ، من أمثال

سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وغيرهم ، ولو أننا اعتبرنا أعمـــال هؤلاء الفلاسفة بمثابة كتاب متكامل مؤلف باللغة الإغريقية القديمة ، فإن صفحات هذا الـكتاب سوف تبلغ أضعاف صفحات القرآن الـكريم ، ومع ذلك فإن هذه اللغة الإغريقية قدتغيرت تماماً ، وأصبحت هى واللاتينية فىعداد اللغات الميتة ، أما العربية فقد بقيت بما فى القرآن من « سر إلهى » هو أعظم تأثيراً من ثقافة البشر جميعاً، بل إن من الممكن أن نزعم هنا أن القرآن هو الذى منح العربية ضبطها ، ونحوها ، وقواعدها ، وكفل لها الاستمرار والنماء ، فالعربية تدين بصورتها الـكاملة للقرآن لا ريب .

وبرغم هذا نجد أن العربية قد انحدرت فى العصر الحديث حتى أصبحت فى عداد اللغات المتخلفة ، وحتى أصبح كل أمل العرب أن تعترف المنظمات والهيئات الدولية بلغتهم على أنها من اللغات الدولية ، وإن كان هذا الاعتراف لايضيف جديداً إلى الوضع المتخلف الذى تعانيه اللغة العربية بين أهلها ، وداخل أوطانها ، وهو الوضع الذى سوف يستمر طالما بقيت العربية مبعدة عن مجالات العلم والتـكنولوجيا ، وطالما اتخذ العلماء العرب لغة غيرها كوسيلة لتدريس العلوم بالجامعات العربية .

اللغة وأعداء الاسلام :

ومن الواجب أن نتساءل عن السبب الذى قاد اللغة العربية إلى هذا الوضع المتخلف ؟ .

والجواب بدهى ، يوحى به سياق هذا الحديث ، فإذا كان القرآن هو

واهب الحياة لهذه اللغة على نحو ما تقرر ، فإن من الطبيعي أن تموت إذا ما حيل بينها وبينه ، كما يموت الزرع إذا ما حرم الماء، وكما يموت الكائن الحي إذا حبس عنه الهواء !

ولقد عرف الاستعمار هذا السر فعمل كل ما في وسعه لأحداث الفصل بين الحياة العربية وبين (الإسلام) ، إذ كان قد جرب من قبل تجارب مريرة في محاربة (القرآن) بصورة مباشرة ، فلم تسفر جهود المستشرقين المجندين لذلك ، في الطعن على القرآن وتشويه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم — إلا عن خذلان وفشل .

والواقع أن المساس بالقرآن أمام أي مسلم حتى لو كان ضعيف العقيدة واهي الإيمان ، يثير في نفسه حمية واندفاعاً للذود عنه ، ومحاربة أعدائه .

فأما محاربة الإسلام تحت ستار المدنية أو التقدم أو التطور، فتلك كلها دعاوى تجوز على الكثيرين ، ممن يحرصون على تحقيق هذه الأهداف ، فضلا عمن يحاولون دائماً التوفيق بين مبادىء الاسلام وقضايا العصر الحديث .

ولعل في مسلك الماركسية داخل الوطن العربي ، بل وفي البلدان الإسلامية بعامة — ما يبرهن على صواب هذا التصور ، فلقد أدرك المخططون لمسيرة الماركسية في الشرق أن أكبر عقبة تواجههم تتمثل في هذا القرآن ، دستور الحركة الاسلامية ، ولما كان موقف الماركسية أساساً هو الإلحاد الصريح برفض مبدأ الألوهية — فقد كان ذلك الموقف حجر عثرة في طريق تغلغلها في قلوب الشباب وعقولهم ، ومن ثم كانت توجيهات الحزب الشيوعي

فى أى مكان لعملائه ألا يثيروا أى نقاش حول العقيدة ، وألا يصطدموا بمبدأ الايمان بالله ، فيتركوا هذا الجانب بعيداً معزولا عن المناقشة ، ثم إن عليهم أن يركزوا على قضايا المجتمع ، ومشكلات الاقتصاد التى يتقبل المسلم الجدل حولها ، وبذلك يقيمون جسورا للتفاهم وتبادل الأفكار هى فى تقديرهم خطوة أولى نحو تقويض بناء العقيدة الإسلامية فى كيان الفرد المسلم متى استمر الحوار وتعمق التأثير .

ولذلك لا ندهش إذا وجدنا أن كثيراً من المشتغلين بقضايا النقد والمسرح ، والرقص والغناء من المنحلين عقائديا ، أو المتعاطفين مع الماركسية ، لأن المخطط الماركسى يتجه دائماً إلى استخدام منهج (الإحلال) فى صراعه مع الأفكار الدينية ، وأعنى بذلك : أن تفريغ الفرد من معتقده يستلزم ملء هذا الفراغ ببعض الأشياء التى يقع عليها دائما اختيار الملاحدة ، كالرقص ، والموسيقى ، والمسرح ، وما إلى ذلك من الاهتمامات التى يرون أنها تشغل ساعات الحوار فى المجتمعات المدنية . فإحلال هذه الاهتمامات محل الأفكار الدينية هو منهج متبع دائما فى الصراع الفكرى ، وخير وسيلة إلى ذلك هى السيطرة على وسائل الإعلام المختلفة .

وكذلك لا ندهش إذا وجدنا أن أكثر الداعين إلى استخدام اللغة العامية فى الرواية ، وفى الأدب هم أيضاً من أصحاب الولاء للمذاهب الأوربية بأنواعها ، لأن النجاح فى هذه الدعوة يقوض صرح العلاقة بين المسلم وبين القرآن ، حين يستعجم لسانه ، وتصبح الفصحى القرآنية لغة أخرى أجنبية عنه ، وبمرور الزمن يختفى القرآن من حياة المجتمع الإســــلامى ،

ويتم لأعداء القرآن ما يريدون — وهيهات ، فالله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

وإذا كنا قد استخدمنا هذا المثال من حياتنا المعاصرة ، في صراعها مع أعداء الإسلام ، والقرآن ، فإن بداية الصراع كانت منذ عهد بعيد أسبق من الماركسية ، وحلفائها . بدأت مع فجر الحركة الأوربية نحو الشرق ، للسيطرة على الوطن العربي الإسلامي .

جذور الدعوة إلى العامية

ولنحاول أن نلقى ضوءاً على تاريخ الدعوة إلى استخدام العـامية ، وإحلالها محل العربية الفصحى ، لنعطى صورة للقارىء عن هذه الدعوة الخبيثة، التى لاتستهدف أساساً سوى محاربة القرآن ، دستور الإسلام الخالد .

ونلفت نظر القارىء هنا إلى ثلاثة مصادر أساسية يمكن الرجوع إليها فى هذا الصدد :

أولها : كتاب الدكتورة نفوسة زكريا بعنوان (تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية ، وآثارها فى مصر) ، وهو مطبوع عدة طبعات ، أولاها عام ١٩٦٤ ، وهذا عن الجانب التاريخى .

ثانيها : كتاب (أباطيل وأسمار) الذى كان خلال عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ مجموعة من المقالات كتبها العالم المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر فى مجلة الرسالة ، التى كانت تصدرها وزارة الإرشـاد القومى آنذاك ، وقد توخى الـكاتب الـكبير أن يدفع عن الإسلام والعربية غائلة بعض عملاء المبشرين ، من أمثال سلامه موسى ولويس عوض ومدرستهما . ويستطيع القارىء لهذا الـكتاب ، الذى طبع أيضاً عدة طبعات أن يدرك البعد السياسى ، والعقائدى لهذا الصراع بين دعاة العامية ودعاة الفصحى .

ثالثها : كتاب (الزحف على لغة القرآن) لأحمد عبد الغفور عطار ، وقد صدر فى بيروت عام ١٩٦٥ ، وقد أحسن مؤلفه أيضاً عرض القضية ، واستقصى جوانبها فى مصر ، وفى لبنان ، وفى سائر البلدان العربية ، كما تتبع

سمى بعض أعداء الفصحى ، فى سِيَرهم ، وفى نشاطاتهم .

ولهذه القضية بداية يجب أن نطالع سطورها الأولى ، عندما انحسر المد الصليبى عن أرض الإسلام فى المشرق العربى ، واقتنع عتاة الصليبيين بأنه لا أمل فى قهر المسلمين ، لقــد ظل هؤلاء الحاقدون يحملون بين جنوبهم ذكريات الحقد ، ونداءات الثأر ممن سحقوا جيوشهم ، وأذلوا ملوكهم ، ومرغوا تيجان أوربا فى وحل الهزيمة بعد رد العدوان .

ولعل تلك الكلمة المشهورة المأثورة عن الجنرال اللنبى قائدقوات الغزو الإنجليزى لفلسطين فى أواخر الحرب العالمية الأولى ، تكشف عن مكنون هذا الحقد المتنقل من أصلاب الرجال ، إلى أرحام النساء ، فى شعوب أوربا على اختلافها ، قال اللنبى عندما دخل القدس عام ١٩١٨ وقد وقف على أطلالها :

« الآن انتهت الحروب الصليبية »

لقد قال ذلك بعدسبعة قرون من انتهاء آخرمعاركها عام ١٢٩١ ميلادية أى : أن الحرب ظلت من الناحية التاريخية قائمة إلى أن أدرك الجنرال ثأره بدخول القدس ، وعودة الاحتلال الأوربى لها ، وهو الاحتلال الذى أخذ شكله الاستيطانى فيما بعد على يد الانجليز حين مكنوا العصابات الصهيونية من أرض فلسطين ، وواصلوا بذلك معركة الاستعمار الصليبى ، فى صورة تآمر مستمر بين الصليبيين واليهود فى كل أنحاء العالم ، ضد العرب والإسلام .

وكذلك لا ندهش حين نجد جنرالا آخر صهيونياً هو موسى ديان ، يقف عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، ليعلن أنه بهذا النصر الرخيص على الجيوش

العربية قد ثأر لقتلى اليهود فى يثرب وخيبر ، ودخلت الجيوش الصهيونية القدس مرة أخرى لتؤكد استمرار الثأر بينها وبين العرب والمسلمين ! !

والمهم أن نلاحظ الطابع الدينى الذى تحمله الغزوة الصهيونية لفلسطين ، إلى جانب الشعار الدينى الذى حمله الصليبيون ، ليمكننا أن نفسر تلك الصيحة التى أعلنها موتور آخر هو : وليم جيفور بلجراف حين قال :

« عندما يختفى القرآن ، ومدينة مكة من بلاد العرب فمن الممكن أن نرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !!

نعم ، فذلكم هو الهدف النهائى لكل الغزوات التى توافرت على أرض الإسلام : أن يختفى القرآن ، وأن تزول مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ولعل من الملاحظات الواضحة لكل من يتابع قضية الصراع الفكرى بين المسلمين وخصومهم من المستشرقين ، أن نجد هؤلاء الذين يدعون النزاهة فى أحكامهم يعكفون على التنديد بفكرة « الدين والدولة » فى الإسلام ، ولا نجد أحداً منهم ينتقد هذه الفكرة فى اليهودية ؛ لأن قيام دولة يهودية على أساس الدين هو مماسعى ويسعى إليه عتاة الصليبيين فى عصرنا ، من حيث إنه يمثل شوكة فى جنب الإسلام ، أوفى قلبه ، وهم يرون الإسلام عدواً تقليدياً لوجودهم الإرهابى .

ومعنى ذلك أن الذين تعـــادوا فى التاريخ وفى الواقع ، وهم اليهود والصليبيون ، قد اتحدوا الآن بكل معسكراتهم الإيديولوجية : رأسمالية ، وشيوعية ، وصهيونية ، لحرب الإسلام ، وتدمير المسلمين .

ويجب ألا ننسى أن إسرائيل قد حاربتنا ، وتحاربنا دائماً بجنود من

الدول الشيوعية ، وأسلحة من الدول الرأسمالية ، فكأنها تمثل ذلك الحلف الشيطانى لتحطيم وجود المسلمين . ولكل معسكر فى هذا الحلف أهداف يرجو تحقيقها من خلال إسرائيل .

فالصليبيون يريدون تحطيم الإسلام باعتباره دعوة التوحيد التى تلغى دعوة الشرك فى معتقداتهم ، وتنهى دولة الخرافة من وجود الدين !

والشيوعيون يريدون تحطيم الإسلام لنشر الإلحاد ، وتخريب الدين ، فهم يعتبرونه - بقياس غير علمى - أفيون الشعوب ، ووسيلة الأغنياء لاستغلال الكادحين !

والصهيونيون يريدون تحطيم الإسلام ليستمر لهم وجودهم فى فلسطين ، وليتمكنوا من بسط سلطانهم على الأرض ، من الفرات إلى النيل !

لقد اتفقوا جميعا على هدف واحد أساسى هو تحطيم « الإسلام » بأى ثمن ، وهكذا اتحد الأعداء .

ولكن السؤال الذى يرد فى هذا المجال هو : كيف يمكن تحطيم الإسلام ؟ وهل يمكن للجيوش الجرارة أن تحقق هذا الأمل ؟!

والجواب : قطعاً ليس هذا من مهمة الجيوش الجرارة ، بل إن العكس هو الصحيح . فلقد أثبتت تجارب الحروب أن المسلمين يتحدون فى مواجهة الخطر ، وأن قوة الإسلام تذكو كلما أحس المسلمون بمؤامرات الأعداء القدماء .

وإذن فلا بد من خطط يقوض الإسلام من داخله ، تمهيداً لضرب المسلمين من الخارج .

نعم ، لابد من إزالة القرآن ، وإزالة مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ليمكن الاستيلاء على مقدراتهم ؟ وتدمير وجودهم الحضارى ، بعبارة وليم جيفور « لنرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة ، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !

وواضح أن (الحضارة) الموجودة فى كلة هذا الصليبى الحاقد هى حضارة « الكنيسة » الأوربية ، التى ترى أن وجودها ذاته مهدد حضاريا طالما بقى القرآن ، وطالما بقيت مكة ، رمز الوحدة للمسلمين .

الحرب على القرآن :

والقرآن فى حياة المسلمين ليس مجرد كتاب مطبوع ، بل هو تنزيل من رب العالمين ، تحفظه الصدور ، وتنقله الأجيال ، وتطبقه الشعوب ، وتلتزم به الجماهير سلوكا وتعاليم .

وإذن ، فإن أى هجوم على القرآن لابد أن يخطط له بأناة وحكمة ، حتى لا يستثير كوامن الغيرة والحفاظ لدى المسلمين ، وبذلك يؤخذون من حيث لايشعرون ، كما أن هذا الهجوم يجب أن يواجه جميع احتمالات المواجهة ، فى مجالات اللغة ، والسلوك ، والتشريع ، والعبادات . .

وبذلك يمكن محاصرة الإسلام من كل الجهات .

ولقد أحسن الأستاذ عبد الغفور عطار تصوير هذه الحملات التى خططها أعداء الإسلام ، فقال فيما يتعلق بنص القرآن :

« رأوا أنه لابد من محاصرة القرآن حصاراً شديدا ، وتطويقه بحيث

لا يكون له منفذ ولا متنفس ، فأقاموا عليه الرقباء والحراس اليقظين ، وجردوا عليه الحملات التي لا تحصى :

حملة تتناول أسلوب القرآن بالنقد والتقبيح ..

وحملة تتناول القرآن الآية الكبرى فتنكرها ..

وحملة تتناول لغته من ناحية قواعد العربية نفسها ، وتزعم أن في القرآن غلطات نحوية !!

وحملة تتناول قصصه ، وتزعم أنها أساطير ..!

وحملة تتناول جمعه وتفسيره ..!

وحملة تتناول معانيه ..!

وحملة تتناول ما فيه من تشريع وحدود ونظم ..!

وحملة تتناول القرآن على أنه نسخة من كتب العهد القديم والجديد..!

وحملة تتناول قراءته وتدريسه » ..

ولكل حملة من هذه الحملات أقطابها ، ودعاتها ، ومتخصصوها ، الذين يعتمدون على التشكيك في كل المسلمات الإسلامية ، وفي كل الحقائق القرآنية ، ولقد خاض في هذه الحملات أدعياء ثقافة وصحفيون ، حتى ظهر من يدعو إلى عدم ضرورة حفظ القرآن أو تحفيظه للتلاميذ ، لأن ذلك لا يتفق مع النظريات التربوية التي قال بها علماء صليبيون ، أو ملاحدة ، أو صهيونيون .

وحسبنا أن نذكر هنا ذلك الدعي الذي ظهر في الجيل الماضي باسم

سلامة موسى ، وقد كان غاية ما نذر نفسه له ، هو الحرب ضد الإسلام ، انتصاراً لصليبية مقيتة يبرأ منها السيد المسيح ، ويبرأ منها المسيحيون الشرفاء، لقد كان سلامة موسى يرى « أن تدريس الدين فى المدارس سوف يحدث خلافا وشجارا بين المسلمين والأقباط » ! ولقد كذّبت الوقائع بعد ذلك ظنه، فلم يكن لتدريس الدين أثر فى المدارس إلا ربط أفراد المجتمع بدينهم وفضائله ، مهما اختلف الدين ، تأكيداً للوحدة الوطنية القوية .

ولقد كان لهذه الحملات الكثيرة هدف آخر ، رمى إلى تحقيقه كهنة هذه الحرب الفكرية ، وهو إلهاء المسلمين فى مشكلاتهم ، وشغلهم بأمور داخلياتهم ، وبعثرة جهودهم حتى لا تتكتل دفاعا ضد العدو المتربص . ولقد تحقق لهم ما أرادوا ، وانصرف علماء الاسلام عن واجب تبليغ دعوته ، إلى واجب الدفاع عنه فى قضايا جزئية ، يثيرها أدعياء العلم والأدب والثقافة .

وفى هذا الصدد ظهرت معارك حول التشكيك فى صحة الشعر الجاهلى ، وحول التشكيك فى الصدق التاريخى للقصص القرآنى ، والادعاء بأن بعض ما جاء فيه لا يمثل الحقيقة ، وإنما هو رمز إلى أمور يستهدفها الشارع ، كما كثر الدعاة إلى استعمال العامية بدل الفصحى ، وإلى استعمال الكتابة اللاتينية فى تمثيل الأصوات العربية ، وكان لبعضهم حول وطول فى المحافل الأدبية ، يسر لهم سبيل الشهرة ، مع أنهم كانوا يدعون إلى الفساد والانحلال فى المجتمع ، تلبية لدعوة زيفها بعض المستشرقين ، من أعداء العروبة والإسلام، ومن عملاء الصهيونية والاستعمار .

* * *

الدعوة إلى العامية :

فلنبدأ القضية من أقدم سطورها ، لنعرف من أين خرجت جذورها ، وهى كما يقول الأستاذ محمود شاكر قديمة جداً : « فمنذ استيقظ العالم الأوربى لنهضته الحديثة وهو يرى عجبا من حوله : أمم مختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، من قلب روسيا ، إلى الهند ، إلى جزائر الهند ، إلى فارس ، إلى تركيا ، إلى بلاد العرب ، إلى شمال أفريقية ، إلى قلب القارة الأفريقية وسواحلها ، إلى قلب أوربا نفسها — تتلو كتابا واحداً بجمعها ، يقرؤه مَنْ لسانُهُ العربية ، ومن لسانه غير العربية ، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب ، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها . ومن لم يحفظه جميعه حفظ بعضه ، ليقيم به صلاته ، وتداخلت لغته فى اللغات ، وتحولت خطوط الأمم إلى الخط الذى يكتب به هذا الكتاب كالهند ، وجزرها ، وفارس ، وسائر من دان بالإسلام ، فكان عجباً أن يكون فى الأرض كتاب كانت له هذه القوة الخارقة فى تحويل البشر إلى اتجاه واحد ، متسق على اختلاف الأجناس ، والألوان ، والألسنة . فمنذ ذلك العهد ظهر الاستشراق ، لدراسة أحوال هذا العالم الفسيح ، الذى سوف تتصدى له أوربا المسيحية بعد يقظتها ، وعلى حين غفوة رانت على هذا العالم (الإسلامى) » .

ولا ريب أن هذا الاستشراق كان طليعة الاستعمار الأوربى للعالم الإسلامى ، وأنه كان طليعة غير مسلحة بالأسلحة التقليدية ، كالبندقية والمدفع ، بل بأسلحة تتفوق عليهما فى أساليب الفتك ، وآثار الدمار ، وأعنى بذلك دقة التخطيط ومهارة الكيد والتآمر ، وقد بدأ الاستشراق بدراسة

أحوال هذا العالم الإسلامى ، باسم الحضارة والمدنية ، وقسم العالم الإسلامى ، إلى عربى ، وغير عربى ، فأما القسم غير العربى فقد كان من السهل تحويل وجهته عن العربية إلى لغاته المحلية ، أو إلى لغات استعمارية جديدة ، بتأثير التفوق الحضارى .

ولا ريب أن ما حدث فى تركيا إبان الحركة الكمالية كان من تسلط هؤلاء الأوربيين على عقلية كمال أتاتورك ، ذلك الذى قطع كل علاقة بين تركيا والعالم الإسلامى ، وكان من آثاره (تغيير) الكتابة التركية من الحروف العربية إلى اللاتينية ، أملا فى إلحاق تركيا بأوربا ، ولعل الزائر لتركيا الآن يرى إلى أى حد تحققت آمال هذا المغامر الحاقد على الإسلام والعربية، فإن تركيا لم تحقق من وراء هذه الحركة أى هدف ، فلا هى لحقت فعلا بالبلدان الأوربية فى مستواها الحضارى ، ولا هى أبقت على وشائجها بالوطن العربى والعالم الإسلامى ، إن محاولة (أوربة) تركيا لم تسفر إلا عن وضع ملفق خليط من أصباغ وألوان أوربية ، على حين بقيت النزعة الإسلامية تتلمس التعبير عن نشاطها . ولعل ما قرأناه أخيراً فى الصحافة بمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى أنقره يكشف ، رغم كل ما صنعته علمانية أتاتورك ، عن تمسك تركيا بتراثها الإسلامى .

ولقد كانت مهمة (الاستشراق) فى أكثر أحواله أن يرسم للدول الأوربية كيفية التهام أقطار العالم الإسلامى ، وازدرادها قطعة قطعة ، عن طريق دراسة أحوال شعوبها ، ولغاتها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، ومواطن القوة والضعف فى بنائها ، وكيفية التغلب على عناصر القوة ، وكيفية استغلال عناصر الضعف فى تقويض وجودها . وهكذا جاء الاستشراق إلى الوطن العربى .

ومن الملاحظات الجديرة بالتأمل فيما يتعلق بقضيتنا هذه ـ أن جميع المستشرقين وعدداً ممن تابعهم من العرب ، وبخاصة فى لبنان ، على ما دعوا إليه من نبذ الفصحى ، واتخاذ العامية لغة ثقافة ـ هم من المسيحيين ، وهم أيضاً من غير المتخصصين فى الدراسات اللغوية ، وإذا وجد من بينهم من يحمل اسم المسلم ، فهو فى الواقع منحل خارج على الإسلام ، بل هو أسوأ من أن يكون مسيحيا ، ولربما وجد من بين المسيحيين العقلاء من دافع عن الفصحى وانتصر للغة القرآن .

وقد أدى عدم معرفة دعاة العامية بالدرس اللغوى ـ إلى أن وقعوا فى أخطاء ساذجة ، تدل على الجهل ، المتلفع بالحقد والضغينة والخداع .

ولنسمع إلى واحد من أقدم الدعاة إلى استخدام العامية ، ونبذ الفصحى ، وهو المستشرق الألمانى (ولهلم سبيتا) ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ ، وقد كان موظفا بدار الكتب المصرية ، وقد خالط سبيتا جماهير الشعب المصرى ، ودرس ما يستهدفه أى مستشرق عنها ، فى حدود الخطط المعروف ، ثم خرج على الناس بكتاب أطلق عليه (قواعد اللغة العامية فى مصر) ، وقد جاء فى مقدمته فيما نقلته الدكتورة نفوسه زكريا قوله : « وأخيراً ، سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى راودنى على الدوام طول مدة جمع مادة هذا الكتاب ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، ويمس أمراً بالنسبة لها وإلى شعبها ، يكاد يكون مسألة حياة أو موت ، فكل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يرى إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحى النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، ففى مثل تلك الظروف لا يمكن مطلقا التفكير فى ثقافة

شعبية ، إذ كيف يمكن فى فترة التعليم الابتدائى القصير أن يحصل المرء ، حتى على نصف معرفته بلغة صعبة جداً ، كاللغة العربية الفصحى ؟!

ثم يقول « وطريقة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء المعقدة ، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا ، ومع ذلك يكون الأمر سهلا لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة ، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة ، فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة ، بدلا من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالى من المصريين ، مثل غرابة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، وبالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقى ويتطور » !!

ولعل من الدوافع التى حدت بولهلم سبيتا إلى أن يخرج كتابه هذا ـ أن مصر كانت تعيش فترة يقظة تمثلت فى إنشاء مدرسة دار العلوم ، عام ١٨٧٢ ، وظهور بعض النوابغ فى العربية وآدابها ممن اشتغلوا فى هذه المدرسة كالشيخ حسين المرصفى ، أو ممن اهتموا بإحياء العربية الفصحى ، كالشاعر محمود سامى البارودى ، ويرى الأستاذ شاكر أنه قد (بدأت العربية من يومئذ تستعيد شبابها وقوتها ، وانطلقت الألسنة من عقال العجز ، بفضل هذين الرجلين) .

والواقع أن مصر ، التى كانت موضع تركيز للنشاط الاستشراقى التخريبى ، كانت فى ذلك العهد على مفترق الطرق :

فمن الناحية السياسية كانت فيها صحوة أدت إلى الثورة العرابية ، ومن الناحية الأدبية كانت فيها صحوة أدت إلى بعث العربية من سُباتها ، بعد ليل طويل من التخلف والجمود .

ولولا هذا التحرك الجديد ماتحركت ألسنة سبيتا وشيعته ، بمثل هذا الكلام ، لأن الأوضاع الراكدة لاتحرك الحقد ، ولاتدعو إلى اقتراح جديد ، ولكن سبيتا ، وهو يعمل فى إطار مخطط مرسوم له من قبل ، لاحظ أن الأمور توشك على التقدم إلى آفاق جديدة بالإحياء وبالثورة ، فطلع على الناس بهذه الفتنة ، رجاء أن يحرف مسيرتهم ، وإذا لم يستطع ذلك على وجه الكمال فليكن له أن يشوش على حركة الوطنية المصرية ، ليعوق سيرها نحو أهدافها .

ومع ذلك فإن سبيتا كان يتحدث بلغة مكشوفة تطفح بالخداع ، كما أنها حافلة بالجهالة اللغوية أساساً .

فما من شعب على هذه الأرض إلا وهو يتكلم خلاف ما يكتب[1] ، إذ أن من الحقائق المقررة أن يكون هناك دائماً مسافة بين لغة الحديث ، ولغة الفكر والكتابة ، تعرف ذلك كل لغات الدنيا ، حية أو نصف حية ، واللغة، أية لغة ليست هى القدر الذى يتحدث به الناس ، فلغة الحديث لاتمثل أكثر من ٥ ٪ من حجم اللغة المكتوبة ، والمجموعة فى المعاجم والقواميس ، فلو أننا ألغينا ما يكون من الفصحى فى الألفاظ والتراكيب ، لما بقى لناشىء فيما يسمى بلغة الحديث ، ولكانت أزمة هائلة تؤدى إلى أبشع عملية تخريب حضارى ، كما أراده ، ويريده أعداء مصر والعروبة والإسلام .

والحديث عن صعوبة العربية حديث عن وهم لا حقيقة له ، فكل لغات الدنيا عبارة عن كلمات ، وتراكيب من هذه الكلمات ، ولكل كلمة مدلول أو عدة مدلولات ، وعلاقة الفرد باللغة هى علاقة التلقى عن الجماعة بالحفظ والتدريب .

---

(١) ارجع إلى دراستنا لهذا الموضوع ص ٥٢ وما بعدها

ولا فرق فى ضرورة الحفظ والتدريب بين لغة وأخرى . أو بين متكلم وآخر .

ولكل لغة تقاليدها التى تميزها عن غيرها ، وعلى من يريد معرفتها أن يهضم هذه التقاليد ، كما هضمها سيبويه وأضرابه ، وأكبر دليل على إمكان هذه المعرفة لمن أراد — إتقان كثير من هؤلاء المستشرقين الغربيين للفصحى ، ربما بصورة أفضل من بعض العرب أنفسهم ، يقابل ذلك قدرة كثير من العرب على إتقان اللغات الأجنبية ، بطول المران ، وجودة الحفظ .

فإذا جئنا إلى الكتابة كان أمرها أهون ، لأن كمية الرموز المستخدمة فى تسجيل النطق هى فى الواقع نصف المنطوق ، أو أكثر بقليل ، ومعنى ذلك أن الكتابة العربية كتابة موجزة .

فهل يمكن أن تكون الكتابة اللاتينية أوفى من الكتابة العربية فى تسجيل المنطوق ؟ .

ذلك أمر بعيد ، إذ أن البشرية لم تعرف حتى الآن نظاما كتابياً يسجل واقع النطق كما هو ، لأنه إنما يتدخل فى ذلك دائماً عوامل كثيرة ، أهمها التاريخ والتراث . وعدم قابلية نظام الكتابة للتطور طبقاً لتطور النطق المسموع . أى : ان نظام الكتابة فى جميع اللغات هو دائماً نظام متخلف ، ومع ذلك فإن الأجيال تبقى عليه ، حفاظاً على علاقتها بماضيها ، ولو أن كل جيل استباح أن يغير نظام الكتابة تبعاً لمواصفاته النطقية لكان لكل جيل نظامه الكتابى الذى يختلف قطعاً عن سابقه ، قليلا أو كثيراً ، وهو أمر أقرب إلى الفوضى ، منه إلى الاستقرار أو التقدم ! وقد سبق بيان ذلك.

وأما التمثيل للفرق بين العربية الفصحى والعامية بالفرق بين اللاتينية والإيطالية فليس مقبولا من الناحية اللغوية ، لأن لكل لغة ظروفها الخاصة التى تنفرد بها ، واللغة العربية لغة مصطفاة ، نزل بها أخلد كتاب ، عرفته

البشرية ، فاستقرت صورتها اللفظية ، واحتكمت قدرتها البيانية ، وأصبح كل مبين بهذا اللسان منجذباً إلى لحات البيان القرآنى ، كما تنجذب الكواكب والنجوم إلى مراكزجاذبيتها فى المجرة التى تسبح حولها . والقرآن لهذه الأمة المؤمنة إنما هو مركز جاذبيتها الأعظم فى الاتجاه الصادق والهادف إلى الله .

هذه مناقشة لما ساقه ولهلم سبيتا ، ومن وجهة نظر موضوعية محضة ، فإذا وضعنا كلامه هذا فى ضوء خلفياته الدينية الاستشراقية زادت الصورة عجباً وإثارة ، ولنقرأ ماقاله هذا المحترق بحقده فى التعقيب على دعوته :

« لماذا لا يمكن تغيير هذه الحال المؤسفة إلى ماهو أحسن ؟ ... ببساطة لأن هناك خوفاً من التعدى على حرمة الدين إذا تركنا لغة القرآن كلية ، ولكن لغة القرآن لا يكتب بها الآن فى أى قطر ، فأينما وجدت لغة عربية مكتوبة فهى اللغة العربية الوسطى ، أى : لغة الدواوين ، وحتى ما يدعى بالوحدة بين الشعوب العربية لا يمكن أن يقلقها تبنى لغة الحديث العامية ، إذ أن لغة الصلاة والعبادات الدينية الأخرى ستظل كما هى فى كل مكان » !

والعجيب أن نجد فى هذا الكلام محاولة للتفريق ، والتمزيق ، إذ بينما يفصل لغة القرآن عما سماه باللغة العربية الوسطى ، نجده يفصل لغة الحديث اليومية عما سماه : لغة الصلاة والعبادات الدينية ـ كأنما يحلم بأن تصبح العربية لغة كهنوت ، حين تتحول المساجد إلى معابد خربة ، وحين يتحول علماء الإسلام إلى قسس متجمدين داخل الأديرة ! !

والأعجب من ذلك أن نجد هذه الدعاوى تتكرر فى أحدث طبعاتها ، فى مجلة (ديوجين) التى تصدرها منظمة اليونسكو ، فقد نشر بها فى العدد

الخامس والعشرين (مايو — يوليو ١٩٧٤) مقال لكاتب لاتخفى على فطنة القارىء هويته واسمه : وهو أنطوان مطر ، والمقال بعنوان :

(اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال فى مستقبل عالم المتكلمين بها) .

وقد وصف الكاتب اللغة العربية الفصحى بأنها لا يمكن أن تستعمل اليوم فى نقل الفكر الحديث لثلاثة أسباب ظاهرة :

١ — قد احتفظت اللغة العربية لمدة قرون بطابع دينى قوى جداً ، وهى عند المسلمين لغة الوحى ، وهى كذلك لغة الوحى عند الأتراك والأندونيسيين والباكستانيين ، وآخرين من الذين لا يستطيعون فهمها ، وهؤلاء لهم لغة قومية علمانية ، فى حين أن العرب ليست لهم لغة من هذا النوع .

٢ — اللغة العربية وسيلة معبرة عن حضارة قديمة قوية التأثير ، ظلت مرتبطة بتراثها القديم كأنها لن تكون أكثر من وسيلة للتعبير عن التاريخ .

٣ — تجاوز التطور الاجتماعى والاقتصادى العالم العربى من ناحية ، كما تجاوزه التطور التقنى من ناحية أخرى ، لأنه ظل منفصلا عن حركة التقدم العلمى المسرعة المعاصرة لأسباب سياسية فى جوهرها .

إن بين سبيتا وأنطوان مطر فاصلا زمنيا يقترب من قرن كامل ، ومع ذلك نجد أن أسس دعواهما واحدة ، تقوم على التعريض بالفصحى ، فهى لغة طقوس دينية (كاللاتينية والقبطية داخل الكنائس) ، وهى لغة تاريخية ميتة كاللغة المصرية القديمة ، وهى لغة متخلفة تجاوزها التقدم العلمى والحضارى ، وباختصار : هى أسوأ لغة فى العالم منذ كان ، إلى أن لا يكون ! ! . .
وكأنما عز على أعداء الإسلام أن يكون الإسلام سببا فى خلود العربية ، فهم

يحاولون قلب القاموس ، ليصبح الواقع أن العربية ماتت بسبب اتصالها بالإسلام !

والحق أن المرء يرثى لحال أولئك الناس ، فهم يعانون قطعا آلاما عقلانية ونفسانية هائلة أصابتهم بها ثبات العربية والإسلام ، في توحدهما التاريخي ، أمام ضراوة الحرب الاستشراقية ، وخبث الكيد الذي اصطنعه المستشرقون لفصم هذه العروة الوثقى ، التي هي في الحق إرادة الله .

غير أن أنطوان مطر يمتاز عن سبيتا بميزة ترجع إلى طبيعة المرحلة التاريخية التي عاش فيها كلاهما ، كما قد ترجع إلى اختلاف تكوينهما العلمي .

إن كلام سبيتا يبدو مقززاً مكشوف العورة أمام كل من يقرؤه ، ولكن كلام أنطوان مطر يتقمص أردية من التحليل اللغوي المغالط ، ومن النزاهة العلمية المزعومة . وقد يتجلى هذا الموقف في حديثه عن سر الضعف اللغوي في الحياة العربية المعاصرة ، وأنه راجع إلى ضعف الاتصال بين أفراد المجتمع ، نظراً لما ينشأ عن (التعدد اللغوي) الواقع فعلا من اضطراب في هذا الاتصال فهو يقول :

« وأكثر من ذلك كيف يتحتم تكوين طبيعة هذا الاتصال ؟ وكيف يتكون بناؤه في مجتمع يكتب لغة دون أن يتحدث بها ، ويتكلم بعدة لهجات ينشأ منها لغات قومية (كذا) دون أن تكتب ؟ وماهي فرص البقاء للغة مكتوبة ولا يُتَحدَّث بها في ختام القرن العشرين ؟ وماذا يبقى من اللغات غير المكتوبة التي يتحدث بها سوى عناصر تاريخية ، وفولكلورية تشمل في النهاية مجموعة من التقاليد من لوازمها وصفاتها عدم التغير ، والارتباط الشديد بالماضي ؟ » ! !

وواضح أن هؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلة التخاطب فى اللغة العربية ـ كهؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلات التعليم فى عالم المتحدثين باللغة العربية ـ عليهم أن ينظروا فى أول الأمر : التعدد اللغوى الذى يمكن أن يكون على وجه التقريب كما يأتى :

الأدب القديم (المكتوب الذى لا يتحدث به) .

الأدب الحديث (المكتوب الذى لا يتحدث به عن طريق الاتصال بالجماهير) .

اللهجات (التى يتحدث بها ولا تكتب) مثل :

الجزائرية .. السورية .. المصرية .. السعودية .. العراقية .. المراكشية .. الأردنية إلى آخره ..!

وهذا التعدد يؤدى إلى تباعد بين المتحدثين باللغة العربية عن بيئتهم الإنسانية ، ويجعل ظاهرة الامتزاج من الصعوبة بمكان ، وهذا الوجه خاص له أهميته فى مستوى الإعلام الجماهيرى ، فالجزائرى والمراكشى أو التونسى ـ لا يفهم شيئاً من اللهجات المصرية ، أو السورية ، أو اليمنية إلخ ...

وليس من الممكن إدراك الهدف من هذا الكلام عندما يساق هذا المساق العلمى فى الظاهر ، إذا كانت الجهود التى يبذلها هؤلاء هى لعلاج مشكلة الاتصال الجماهيرى ، التى هى جوهر المشكلة اللغوية .

وإذا كانت العربية القديمة الفصحى ميتة جامدة متخلفة فى نظرهم ـ فماذا يمكن أن تحققه اللهجات المتعددة ، أو اللغات المتعددة ، فى تحسين عملية الاتصال الجماهيرى ، مادام العرب لا يفهم بعضهم بعضا لهجيا ؟ .

إن اللجوء إلى استعمال اللهجات يعنى بالضرورة خلق كيانات منعزلة مستقلة ، بعدد اللهجات المختلفة ، وهو أيضاً باب من احتمال التمزق العربي إلى كيانات أصغر ، كلما أحست مجموعة من الناس باختلاف لهجتها عن لهجة شركائها فى الوطن ، وهذا بالطبع هو ما يريده أعداء العروبة والإسلام ، من أول سبيتا إلى آخر أنطوان ..!!

ثم إن هناك أمراً آخر هو التهويل فى تصور الفروق اللهجية ، بحيث تصير اللهجات لغات قومية ، متميزاً بعضها عن بعض ، كتعدد اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية ، من بنات الفصيلة اللاتينية وهكذا ، وهو أمر يرفضه الواقع ويفضحه ، إذ أن الشعوب العربية تعيش طوال تاريخها حالة من الاتصال الجماهيرى من خلال اللغة الفصحى ، لم تضعف عبر القرون، بفضل القرآن الكريم ، ولقد حكمت العالم الإسلامى ، العربى وغير العربى ، دول كثيرة ابتداء من الدولة الأموية ، ثم العباسية فى المشرق ، والأموية فى المغرب وأسبانيا ، ثم الفاطمية ، والأخشيدية ، والطولونية ، والأيوبية... إلخ ، وتفاهم المسلمون عبر هذا التاريخ حول مشكلاتهم الرئيسية المشتركة ، دون أدنى اضطراب فى أداة الاتصال ، التى كانت هى هذه الفصحى . مع وجود اللهجات العامية المحلية .

فما الذى وقع حديثا حتى تضعف أداة الاتصال ، ونحن فى عصر المواصلات السلكية واللاسلكية والكهرباء والترانسيستور ، والصحافة والتليفزيون . والمفروض أن تذلل هذه الوسائل صعوبات الاتصال ، وتساعد على نشر الوعى اللغوى ؟ .

ثم إن القرآن ما زال هو هو ، مقروءا ، ومحفوظا ، ومكتوبا ، ومرفوعا على أنه شعار يلهم الجماهير، ويقود تحركها نحو المستقبل ؟ .

فتعدد اللهجات فى الوطن العربى الواحد ليس عقبة فى طريق التوحيد اللغوى ، لأنه مطروح جانباً أمام دواعى التقارب والاندماج ، والوسيلة الوحيدةُ لتأكيد هذا التقارب والاندماج هو تناسى أمر اللهجات ، وما تثيره أحيانا من مشكلات ، والالتفات إلى نشر الفصحى ، ودعم وجودها ، ومحو الأمية التى تعوق انتشارها ، وبذلك يمكن تحديد نوعية الاتصال الجماهيرى بما يخدم أهداف الوحدة العربية ، والمستقبل الاسلامى .

أعـداء الفصحى :

واضح إذن أن ولهلم سبيتا ، وأنطوان مطر يمثلان قوسين أولهما فى أول قرن يبدأ فى عام ١٨٨٠م ، عندما نشر كتابه (قواعد اللغة العامية فى مصر) ، وإن كان قد بدأ قبل ذلك طبعاً ، وثانيهما فى أواخر هذا القرن عندما نشر مقاله عام ١٩٧٤ .

وبين هذين القوسين تقع مجموعة من الأسماء التى وعتها ذاكرة هذه المشكلة ، وأشارت إليها الدراسات الخاصة بها ، والتى سبق أن لفتنا النظر إليها .

فما إن ظهر كتاب سبيتا حتى انبرت صحيفة (المقتطف) التى كان يصدرها الصحفى يعقوب صروف منذ عام ١٨٧٦م — لتشجيع دعوته إلى نبذ الفصحى ، وأخذ العامية لغة لكتابة العلوم ، فضلا عن أن تكون لغة للصحافة مثلا .

وكانت هذه خطوة ذات مغزى فى تناول المشكلة ، لأن العلوم هى الميدان الذى قصرت فيه العربية آنذاك ، بسبب الحصار الاستعمارى الذى ضرب حولها .

وبعد سبيتا ظهر مستشرق آخر ألمانى هو كارل فولرس (١٨٥٧-١٩٠٩) ، وقد عمل أيضاً كسلفه فى مجال الكتب ، فكان أميناً للمكتبة الخديوية بالقاهرة ، وألف عدة كتب أو رسائل فى العامية المصرية ، وأشهرها كتابه : (اللهجة العامية الحديثة فى مصر) .

ثم يأتى مستشرق ثالث ، وهو فى هذه المرة إنجليزى ، اسمه وليم ولكوكس (١٨٥٢ - ١٩٣٢) . وقد كان الرجل مهندساً فى الانشاءات الهيدروليكية ، وهو الذى أشرف على تخطيط وبناء خزان أسوان عام ١٨٩٨م .

والعجيب أن نجد هذا المهندس يخوض فيما خاض فيه أسلافه من مخطط العداء الفصحى ، رغم أن عمله وتخصصه لا يؤهلانه لمثل ما قال ، ولكنه الهدف الواحد الذى يجمع الأشتات ، ولعل قراءة النص التالى تكشف عن معدنه الخداع .. يقول ولكوكس فى إحدى محاضراته :

« قضيت عشر سنوات حين كنت فى خدمة الحكومة المصرية وأنا أشرف على مدرسة الهندسة ، وأمتحن طلبتها ، وكنت أجد بين الطلبة من يعدون حقا من الأذكياء ، ولكنهم كانوا يسيرون فى دروسهم ببلادة ، لأنهم كانوا يقرأونها باللغة الفصحى المصطنعة ، وليس باللغة المصرية الحية » !

ويردد فى أثناء أحاديثه : « إن الذى عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى » ، « وإن اللغة العربية الفصحى ماتت بسبب جمودها وصعوبتها » !!

ويبدو أن هذه الحملة على الفصحى من الزاوية العلمية كانت التمهيد السياسى لاستيلاء المستشار الإنجليزى (دنلوب) على التعليم فى مصر ، وتغليب الإنجليزية فى جميع مراحل التعليم .

ثم يتقدم المخطط خطوة أخرى بما يكتبه القاضى سلوف ولمور ، وقد كان يعمل فى محاكم مصر ، فقد ألف كتابا بعنوان (العربية المحلية فى مصر) ، ودعا فيه إلى اتخاذ الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية ، واتخاذ اللاتينية لغة أدبية .

وهكذا يظهر لنا التدرج فى تقديم الاتفاق الاستعمارى ضد لغة القرآن ، فقد بدأ المخطط متدرجا هكذا :

١ — العربية صعبة - جامدة - ميتة ..

٢ — العربية ليست لغة للعلوم ..

٣ — الانجليزية لغة التعليم ..

٤ — لابد من تبنى الرموز اللاتينية فى الكتابة العربية ..

٥ — يجب اتخاذ اللاتينية لغة أدبية ، كما أصبحت الإنجليزية لغة للتعليم ..

وما زلنا حتى الآن نواجه شخوصا وأشباحا أجنبية ، من الألمان والإنجليز ، ذكرنا رءوسهم ، وأعرضنا عن أذنابهم ، يسيرون فى نفس الاتجاه العدوانى للغة القرآن .

ولكن هؤلاء لم يعملوا وحدهم ، بل استطاعوا أن يجندوا لهم عملاء فى مصر ، وفى لبنان ، كانوا وما زالوا مصرين على ترديد كلام سادتهم من الأجانب العدوانيين ..

ومن أخبث الرؤوس التى حملت كِبْرَ هذه الدعوة فى الصحافة المصرية- الصليبى الماركسى الحاقد سلامة[1] موسى ، وقد بدأ أولا فى مقاعد الصفقين لمقالات ومحاضرات السير ولكوكس ، وكان فى مقالاته يخلط جهلا وهذيانا وحقداً ، يمثله أصدق تمثيل قوله :

(وقد خطب السير ولكوكس منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة (العامية) جمع فيها اختباراته عنها، وارتأى فيها أن هذه العامية التى نتكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى ، فكل منهما لغة متميزة عن الأخرى ، ونحن

(١) وصف المستشرق الفرنسى جاك بيرك سلامه موسى بأنه ماركسى - انظر ترجمتنا لمقدمته الكتاب (مختارات من الأدب العربى المعاصر) المنشورة فى مجلة المجلة - عدد سبتمبر ١٩٦٦ .

لم نكتبها عن العرب ، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس (!) الذين أقاموا فى مصر نحو ٥٠٠ سنة ، وأن طريقة النفى المزدوج حين نقول : (أناماعملتش) هى طريقة لا يعرفها العرب ، وإنما جاءتنا من الهكسوس ، الذين انتشرت لغتهم فى أقطار عدة حول مصر ، حتى بلغت مالطة ، وهذه اللغة تعبر الآن عن مزاجنا ، وتقوم بالمعانى التى تختلج فى أذهاننا ، أما اللغة الفصحى فهى (الهيروغليفية) التى يترجم كتابنا وطلبتنا إليها خواطرهم وأفكارهم ، كما ينقلونها أحيانا إلى الانجليزية أو الفرنسية ، ويرطنون بألفاظها المحفوظة من الكتب) !! أىّ هذيان !! ؟؟

وقد وقف سلامه موسى بعد ذلك داعية إلى نبذ الفصحى ، رغم أنه كتب كل آثاره بها ، والسر فى ذلك أنه كان فى الواقع (ممثلا) يلعب أدوراً كثيرة فى الحياة المصرية لحساب هدفه الهدام ، فهو يرفع الصليب ، ويقدس المنجل والمطرقة ، ويعزف القداس الفرعونى فى الدعاية لأمجاد الوطنية المصرية القديمة ، ثم يتلوى بأى كلام يوصله إلى هدفه ، وينفس به عن حقده على العروبة والإسلام . . !

وهو أحياناً يبدو فى صورة المستغل لغفلات الآخرين ، كما حدث حين قال « إن التأفف من اللغة الفصحى ليس حديثاً ، إذ هو يرجع إلى ماقبل ثلاثين سنة ، حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها » .

ولقد كان قاسم أمين تعرض فى بعض كتاباته لقضية اللغة : فدعا مرة إلى تدعيم اللغة العربية بتحرير أسلوبها على أقلام الكتاب ، من التصنع والتكلف ، فهويقول « الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات فلايأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فىمكان واحد ، لأن ذلك يكون حشواً فىالكلام مستهجناً ، ودليلا على فقر فى الفكر والخيال » .

ودعا مرة أخرى إلى فتح باب الاجتهاد فى اللغة : « فإذا أتحنا للغة العربية أن تستوعب المصطلحات الأوربية الجديدة الخاصة بالاختراعات أثرينا اللغة. وإذا انتقينا من العامية الكلمات الفصيحة ، أو التى لها أصل عربى فصيح — لم نحتج إلى الاشتقاق والنحت ، فنحن خلفاء العرب ، وما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربياً » .

وليس فى هذه الآراء ما يمس إيمان قاسم أمين بالعربية وقدرها ، ومستقبلها .

ولكن قاسم أمين تحرك خاطره يوما عندما رأى كثرة اللحن فى ضبط الكلمات ، فدعا إلى نوع من الإصلاح اللغوى ، قال فيه :

« لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل مايقع تحت نظره من غير لحن ، أليس هذا برهاناً على وجوب إصلاح اللغة العربية ، لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لاتتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الأفرنكية ، واللغة التركية ، يمكن حذف قواعد النصب ، والجوازم ، والحال ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة ، إذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ . . . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » .

وواضح أيضاً أن قاسماً لم يرد التخلى عن الفصحى ، إنما أراد إصلاح وضع معين ثقافى ، فأخطأ الوسيلة ، ولكن سلامة موسى يرى أنه دعا إلى العامية بهذا الرأى ، تصيداً منه للمتشابه ، وتحميلا للنصوص بأكثر مما تحتمل .

لقد كان سلامة موسى — كما سبق القول — صليبياً ماركسياً غوغائياً مشككا ، وتحت هذه الأقنعة كلها يمكن أن نفهم قوله فى كتابه (اليوم والغد) :

« الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا » ! !

إنه لا يرى فى مقومات وجود أمته سوى أن تكون ذيلا لمستعمريها ، بكل مايترتب على ذلك من قضاء على الإسلام ، وعلى اللغة ، وعلى العروبة ، ومن عجب أن يعتبر بعض كتابنا هذا المتلون الحاقد المجهول من دعاة الإصلاح !!

وإذا كان سلامه موسى أثراً شائهاً من آثار الجهود الاستعمارية ضد العربية والإسلام ، فإنه قد أثر فى كثير من الأذناب الذين بدأوا حياتهم يدعون إلى ما كان يدعو إليه ، وفى مقدمتهم لويس عوض الهازل بتفاهاته من خلال عمله بجريدة الأهرام والمسترسل فى أباطيله ، وضلالاته الحاضرة إلى اليوم ! !

وشبيه بموقف قاسم أمين فى أوائل القرن العشرين — موقف كاتب معاصر ، هو الأستاذ يوسف السباعى الذى نشر مقالا فى مجلة الرسالة الجديدة (مايو ١٩٥٥) يطالب فيه بالتخلص من قواعد النحو والصرف ، ربما لأنه لم يستوعبها حتى الآن ، برغم اشتغاله بالأدب ، ورغم حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى أدب اللغة التى لا يعرف نحوها أو صرفها. هذا فى مصر .

* * *

أما فى لبنان : فقد عرف من هؤلاء الدعاة للعامية الخورى مارون غصن ، وهو مبشر حاقد على الإسلام ولغة القرآن .

ومن بنى جلدته رجل آخر هو أنيس فريحة . .

وثالث هو سعيد عقل ، ولعله أنشطهم الآن ، إذ هو يحمل لواء الدعوة إلى سلخ لبنان بلغته أو بلهجته من جسد العروبة ، واتخاذ الرموز اللاتينية فى كتابتها ، وهو يتربع على قمة مؤسسة لطبع الكتب بالخطة الجديدة ، وتتولى الإنفاق على مشروعه مؤسسات أمريكية وصهيونية . ! !

وأخيراً هل نستطيع ـ والحال هذه ـ فصل الدعوة إلى استخدام العامية فى لغة المسرح ، بإطلاق عن هذه القضية ذات الجذور البعيدة ، وبخاصة إذا حمل لواءها ناس معروفون بمعتقداتهم الماركسية ، ودعوتهم إلى ما يسمونه بالواقعية ، فى اللغة ، وهو تحريف لمعنى الواقعية فى الفن . . ؟ !!

خلاصة القضية :

وبعد : فقد طال الشوط الذى بدأناه ، وكنا نؤمل أن لا يطول على هذا النحو ، ولكن للضرورة أحكام ، وضرورة استيعاب هذه المشكلة تقتضى أكثر مما قدمنا ، فهو إذن إيجاز حيث ينبغى الإسهاب .

بيد أن لنا بعض الملاحظات فى ختام هذا الشوط :

أولها : أنه قد اتضحت للقارىء المسلم طبيعة الصراع الذى يقف فيه المسلمون مدافعين عن الدين والفصحى والقرآن ضد الأعداء المتربصين . من كل أرجاء الأرض .

ثانيها : أنه قد انكشفت حقيقة هؤلاء الأعداء ، وأسفرت نواياهم ، وهى بعيدة تماماً عن هدف الإصلاح اللغوى ، الذى لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار الفصحى .

ثالثها : أن هؤلاء الداعين إلى إصلاح الوضع اللغوى ليسوا لغويين . وإنما هم خليط من الوراقين أمناء المكتبات ، ومن المهندسين ، وخبراء الاستعمار ، وعملائه ، فكلامهم فى مشكلة اللغة غير مقبول شكلا أو موضوعاً .

رابعها : أن أحداً منهم لم يتفضل علينا بتجربة كتابة أدبه أو فكره باللغة العامية ، لنرى كيف يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، لأنه يعلم مقدماً أن مصير ما يكتبه حينئذ هو إلى المزابل لا غير !!!

وخامسها : أن أعداء القرآن ركزوا حملتهم على مصر أولا ، ثم كانت لهم جولة فى لبنان . لأن مصر هى قلب الوطن العربى ومنارة التوحيد فى العالم الإسلامى . .

وسادسها : لقد ركز الأعداء حملتهم وهجماتهم على العربية ، حتى كأنها هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تستحق مثل هذا الهجوم ، لا لشىء إلا لأنها لغة القرآن .

وسابعها : نحن لسنا ضد دراسة اللهجات كواقع لغوى ، ولكننا ضد محاولة تمزيق الأمة العربية بتقطيع علاقتها بالفصحى ، وهى المقوم الأساسى لأية وحدة عربية إسلامية .

وأخيراً ، فإن من المؤكد أن هذه الدعوات لا تزال رغم قوة التيار القومى والدينى راصدة لفرص الغزو ، ناشطة فى إثارة الشكوك ، والأمل فى الله أن ينزل نصره على دعاة دينه ، وحماة قرآنه تحقيقاً لوعده الصادق .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (الحجر آية ٩) .

* * *

موضوعات الكتاب